الحسين

ملك المملكة الأردنية الهاشمية

مهنيتي كملك

الحسين

ملك المملكة الأردنية الهاشمية

مهنتي كملك

أحاديث ملكية

نشرها بالفرنسية فريدون
صاحب جم ونقلها الى العربية
غالب عارف طوقان

ان حياتي
ملك لشعبي
«عبد الله بن الحسين
١٨ تموز - يوليو - ١٩٥١»

مقدمة
الطبعة العربية

كتاب جلالة الحسين الذي صدر في النصف الثاني من عام ١٩٧٥، بعنوان (مهنتي كملك) قد نال اعجاب وتقدير كل من قرأه من المطلعين على اللغة الفرنسية في هذا البلد ، وما من شك في أن هذا الاعجاب وهذا التقدير اللذين قوبل بهما كتاب جلالته في الاردن يعتبران مؤشرا أكيدا لما حظي به الكتاب القيم للعاهل الهاشمي العظيم في أوساط المثقفين والمعنيين بشؤون الشرق الاوسط في فرنسا وفي سائر الاقطار التي تتذوق الادب الفرنسي وتتابع قراءة الكتب الحديثة التي تنشر في هذه اللغة ٠

لقد عودنا الحسين رعاه الله أن يكون قمة في الكتابة والخطابة، وأن يبلغ الذروة في سائر الموضوعات القومية والسياسية والانسانية التي يعالجها سواء على الصعيد المحلي أو العربي أو الدولي ، فلا عجب أن تأججت في نفوس المواطنين الرغبة الاكيدة الحارة في الاطلاع على محتويات كتاب الحسين الجديد ، كعادتهم بالنسبة لكل ما يصدر من أقوال وأفعال عن القائد الرائد ٠

ماذا قال الحسين في هذا الكتاب ؟ أو ما هي الموضوعات التي عالجها المليك المحبوب في كتابه (مهنتي كملك) ؟ ٠
سؤال طرحه كل منا على نفسه وبقي متلهفا متشوقا لمعرفة الجواب ٠

لقد صدر كتاب الحسين على شكل أسئلة موجزة وجهها الى جلالته الكاتب الكبير السيد فريدون صاحب جم ، وأجوبة مفصلة تلطف بها جلالته حفظه الله ٠

أما الاسئلة فعددها ثمانية وثلاثون سؤالا ، يمكن أن تجمع في صفحات أربع ، وأما الاجوبة ، فتشمل الكتاب بأسره ، وتتناول صورا مشرقة من حياة صاحب الجلالة الهاشمية ، منذ طفولته الكريمة حتى يومنا هذا ، يتألف منها تاريخ الاردن الحديث ٠

أما هذه الصور ، فهي تارة لوحات فنية ضخمة تصور كفاح بطل عملاق يصارع الكوارث والاهوال والمصاعب ، ويعاني المشقات والمتاعب في سبيل حياة أفضل لشعبه الوفي الامين ٠

وهي تارة ألحان عذبة حزينة ، تصور آلام شاب في عمر الزهور يحتضن جسد جده البطل الشهيد ، ويعرض حياته الغالية للخطر، لملاحقة الجاني الاثيم ٠

وهي حينا تحكي مشاعر ابن بار بوالده الحبيب وأمه الحنون ، وتحلل لنا أحاسيس الطفولة الملكية الطاهرة البريئة ، وتصور البرعم الجميل الغالي وهو مبتهج بألعاب تعلقت بها نفسه العزيزة بسذاجة الطفولة الملائكية فتأخذها الام العظيمة بيدها الحانية لتعيدها الى مالكها ، ثم تخلع حليتها الوحيدة لتشتري بثمنها ما يعوضه عما أخذ منه لتعيد الفرح الى القلب الحزين ٠

وهي حينا آخر ، تروي لنا الجد والنشاط اللذين يبذلهما شاب أعده القدر الالهي لمصير عظيم ، ولتحمل مسؤوليات جسام ٠

وهي دائما تصور الرجولة والبطولة والشهامة والجرأة والتضحية والوطنية في أنبل مظاهرها وبواطنها ، الى جانب ما تميز به الحسين العظيم من تسامح وتسامي وعفو عند المقدرة ٠

ويتبين القارىء من خلال جميع سطور الكتاب الملكي السامي ، مدى حب الحسين لشعبه وايمانه بمستقبله واستعداده للتضحية بكل شيء في سبيل اسعاده وحمايته ٠

ان المرء ليستشعر عظمة الحسين الملك والاب والاخ في أصفى

وأنبل مظاهرها عندما يروي لنا كيف كان يخرج في الليل متنكرا ليتعرف على أحوال شعبه ويطمئن على شؤون اولئك الذين محضوه ثقتهم وحبهم وولاءهم فيعيد بذلك سيرة السلف الصالح من أبطال العروبة والاسلام الذين قادوا أمتنا الى المجد وضربوا أروع الامثلة في العمل على اسعاد الرعية والتفاني في خدمتها والسهر على راحتها وتحقيق رخائها وازدهارها واشاعة الامن والاستقرار في ديارها ٠

وهل يستطيع أحد أن يجد قصيدة في حب الوطن وأهله ، أبلغ وأروع تعبيرا وأوقع تأثيرا في النفس مما كتبه الحسين عن الاردن وأبناء الاردن في كتابه الجميل ؟

لقد تجلى المليك في هذا الكتاب كالعهد به ، كاتبا مجيدا وأديبا كبيرا ومحللا ماهرا لاعمق أغوار النفس الانسانية وفنانا بارعا في تصوير المواقف والعواطف بريشة ساحرة خبيرة بمختلف أساليب التعبير الفني الجميل ٠

والكتاب ينطوي على الاحداث التي مرت بالاردن الخالد منذ اللحظة السعيدة التي نودي فيها بالحسين المفدى ملكا للمملكة الاردنية الهاشمية في آب من عام ١٩٥٢ ، هذه الاحداث المصيرية التي لعب فيها الحسين الدور الاول ، قائدا لمسيرة شعبه على دروب المجد والخلود وذائدا عن حياضه ، ومدافعا عن حقوقه ، ورافعا صوته عاليا مدويا في المحافل الدولية وقامعا للفتن التي تهدده ومشجعا لكل ما يحقق له التقدم والازدهار ٠

ويتناول الكتاب تحليلا للقضية الفلسطينية بأسلوب يجذب القارىء الاوروبي وبموضوعية ومسئولية المؤرخ ، وعمق وجدية العالم الباحث ٠

ويتطرق جلالة الحسين في معرض تحليله لمراحل هذه القضية الى كفاح الملك الشهيد عبد الله بن الحسين في سبيل الدفاع عن

عروبة فلسطين والى النظرة البعيدة الثاقبة التي كان يحاول من خلالها معالجة محنة شعبه يوم أن كان الوعي السياسي في المنطقة بأسرها ، ولا سيما بين زعماء فلسطين أنفسهم ، قاصرا ، متخلفا ، عاجزا عن تبين الحقائق من خلال ضباب الاحداث .

ويروي العاهل العظيم ما قاله جده الشهيد عن الصهيونية ضمن ما كتبه في حزيران من عام ١٩٣٨ ، ردا على الذين كانوا ينتقدون مشروعه لانقاذ فلسطين :

« تقوم الصهيونية على دعائم ثلاث : تصريح بلفور ، والشعوب الاوروبية التي تحاول التخلص من اليهود ، والمتطرفين العرب الذين يرفضون كل حل ولا يكفون عن الشكوى والاستغاثة باولئك الذين لن ينجدوهم أبدا » .

نعم ان المتطرفين العرب هم الذين قاوموا مشروع الملك الشهيد الذي تقدم به الى الحكومة البريطانية لانهاء الانتداب وضم فلسطين الى شرقي الاردن ، انقاذا لارض فلسطين وشعب فلسطين من الطوفان الصهيوني الهادر .

ولو قدر لمشروع الملك عبد الله بن الحسين أن يرى النور لما قامت اسرائيل ولاقتصر الوجود اليهودي في فلسطين على تجمع سكاني محدود في بعض المناطق القليلة ، ولتأسست دولة عربية مستقلة قوية على أنقاض حلم صهيون ، جنبت الجيلين القديم والحديث والاجيال الصاعدة ، الكوارث المتلاحقة التي عرقلت وتعرقل مسيرة الامة العربية ، وحفظت وحدة أراضي الوطن العربي من المحيط الى الخليج ، بعيدة عن الجسم الصهيوني الغريب الذي يقف اليوم حائلا دون تلاقي المشرق العربي بالمغرب العربي .

وما الكتاب في الحقيقة الا رواية واقعية شيقة لاحداث فترة مجيدة من تاريخ شعب خالد من خلال قصة حياة ملك شجاع بطل .

وتتميز هذه الرواية الفريدة بالاسلوب السهل الممتنع مع الامانة

في السرد والدقة في الوصف والحرارة في التعبير والجرأة في بيان الحقيقة .

فما أن يبدأ المرء في قراءتها حتى يشغف بها ، فيلتهمها التهاما ولا يتركها حتى يأتي على اخرها ويطوي الكتاب وقد ازداد حبا للحسين واعجابا به ، واجلالا لشخصه الملكي السامي .

والكتاب الملكي موجه في الاصل للقارىء الاوروبي لكي يكسب تأييده للقضية الفلسطينية ، فيشرح له أبعادها وعدالتها وانسانيتها ويطلعه على تعنت العدو الصهيوني وغطرسته وتصميمه على عدم الجنوح الى السلام مع جيرانه .
وهو دفاع يتلاءم مع العقلية الاوروبية عن القومية العربية والوحدة العربية ومراميها الحضارية وأهدافهما السلمية الانشائية الخيرة ، وابراز لتاريخ الامة العربية المجيدة ومدى مساهمتها في تقدم الانسانية جمعاء على مدى العصور والاجيال ، وما تكنّه من نوايا طيبة لسائر الامم والشعوب .

وهو الى ذلك تصوير يجذب القارىء الاوروبي لوجه الاردن العربي ومقدار ما حققه من انجازات في مختلف جوانب التقدم الحضاري ، ولصموده في وجه الحركات الهدامة التي كانت تبغي القضاء على كيانه ، وتصميمه على التعاون مع أشقائه في سبيل بناء حياة أفضل لهم ولسائر البشرية .

ويتضمن كتاب « مهنتي كملك » سردا أمينا لهذه الاحداث التاريخية التي مرت بها البلاد منذ مطلع الخمسينيات وحتى منتصف السبعينيات ، وهي أحداث هامة وقعت في ربع القرن الماضي وأثرت تأثيرا كبيرا على مجرى الامور في هذه المنطقة الحساسة من العالم وهي لاهميتها لا يستطيع أي عالم يتصدى للتأريخ لهذه المنطقة ، الا أن يتناولها بالبحث المستفيض والدراسة العميقة والعناية التامة حتى بجزئياتها ، ليستخلص منها العبر والدروس فيما يجب أن تكون عليه العلاقات بين

الاقطار الشقيقة ٠

فهي لذلك لا غنى عنها لفهم التطورات التي طرأت على مختلف مظاهر التعاون بين الاقطار العربية وما بلغته العلاقات بينها اليوم من تحسن ملحوظ ، على الرغم من الغيوم المؤسفة الموقتة التي تلقي بظلالها القاتمة الان على هذه العلاقات ، والتي لن تلبث ان تنقشع ، بزوال اسبابها قريبا ، بفضل الجهود التي يبذلها جلالة الملك الحسين المعظم واخوانه الملوك والرؤساء العرب ، مما يبشر بمستقبل افضل للامة العربية وبنجاح اشمل لقضاياها القومية المشتركة ٠

ان هذه الفترة من التاريخ التي يتناولها الحسين بالعرض والشرح والتحليل تمثل الصراع الذي كان قائما بين الاراء والمعتقدات وبين الشخصيات والقيادات عبر النزاعات التي كانت ثائرة وقتئذ ٠ وان اطلاع القارىء العربي اليوم عليها يعتبر ضرورة حتمية وحاجة حيوية صحية لتستبين له الاخطاء التي أرتكبت ومقدار الطاقات التي هدرت ، فتتضح له أهمية توحيد الصفوف والجهود ويتحقق من الدور الكبير الذي يلعبه الاردن في خدمة القضايا العربية وتظهر مشرقة نيرة ، مواقف الحسين القومية ، وسلامة السياسة التي انتهجها وصواب الرأي الذي صمد ببطولته المعهودة في الدفاع عنه غير هياب ولا وجل ٠

ويتجلى الاردن ، في هذا الكتاب الشيق، بقيادة العاهل العظيم، قلعة صامدة للعروبة في الماضي والحاضر والمستقبل ومنطلقا لتحرير أرض فلسطين العزيزة ، وتبدو المملكة الاردنية الهاشمية فيه ، كيف أنها قد التزمت بالخط القومي العربي منذ تأسيسها ، وكيف أن الحملات والهجمات والافتراءات والمؤامرات والاغتيالات التي تعرض لها هذا البلد العربي الابي ، على مدى سنوات كانت محض هدراً للطاقات وخطأ فظيعا في النظرات والاجتهادات ولكنها مع ذلك لم تستطع أن تعرقل مسيرة الاردن على طريق العمل

العربي القومي والوحدوي والازدهار الاقتصادي والتقدم العلمي ٠ ويقيني أن نشر ألكتاب باللغة العربية كانت تلبية لحاجة ملحة الى دروس واقعية في الوطنية والقومية والحزم والعزم والتصميم ليتمثل بها جيلنا الصاعد ويسير على هداها في كفاحه من أجل حياة أفضل لامته العربية العظيمة ٠

أما السيد فريدون صاحب جم ، فانه يستحق منا كل تقدير على أمانته في النقل وحصافته في الفهم وطول باعه في الترجمة الفرنسية ٠

وأما الترجمة العربية فقد روعي فيها التقيد الدقيق بالنص الفرنسي مع العناية التامة بمقتضيات الاسلوب العربي وقواعد البلاغة العربية بحيث جاءت كالصورة وخيالها في المرآة ٠

المحامي

غالب عارف طوقان

٣٠ تموز ١٩٧٨

مقدمــــة

الطبعة الفرنسية

كانت السيارة ذات اللـون المعدني الاسمر مـن طراز (لينكولن كونتيننتال) تمر متريثة في شوارع عمان المزدحمة • وعلى الطريق البالغ خمسة كيلومترات الذي يفصل قصر بسمان الملكي عـن مقر القيادة العامة للقوات المسلحة ، كانت السيارة الملكية تتوقف مرات عدة أمام الانـوار الحمراء ، وكان الحسين بكـل ديمقراطية يكبح جمـاح السيارة ويتوقف • كنت وقتئـذ الى جانبه ، وكان مرافقـه العسكري الرائد بدر الدين ظاظا يجلس علـى المقعد الخلفي ، بـلا أي حرس ولا أية دراجة نارية تتقدمها ولا أي شرطي •

عرف بعض المـارة مليكهـم فجعلـوا يصفقون • واتخـذ رجـال الشرطة الذين كانوا يتولون تنظيم حركة السير ، موقف التهيوء ؛ رافعين أياديهم بالتحيـة العسكرية ، كان الملـك بادي السعادة • انه يحب أن يتجول متنكرا بيـن أبناء شعبه ، ليتحسس نبضات قلب الامة • ومن بعيد ، انطلق صفير أبواق سيارات الحرس منذرا باقترابها ، فتبسم الحسين ، ومال عليّ قائلا : « مـا رأيك في أن نسبقهم ؟ » • ثم زاد من سرعة السيارة • ان بعض لحظات مـن الاسترخاء والراحة والسكينة لهي بالنسبة للمليك ، نادرة وثمينة •

في مدخل الثكنة العسكرية ، وأمـام رجـال هيئة أركـان حربـه بكاملهم ، وعلى رأسهم المشيـر حابس المجالـي والفريق زيـد بن شاكر ، برزت سيارتا الحرس من طـراز شيفروليه ، فوجـه اليّ الملك غمزة عين ذات معنـى •

طوال هذه الايام التي أمضيتها في معية العاهل الهاشمي والتي

تمكنت خلالها من التحدث اليه طويلا ، ومن مشاهدته كيف يعيش ، ومن مرافقته في جولاته ، رأيت الحسين يتمتع الـى أقصى الحدود ببعض لحظات مـن الحرية ، سواء وهـو يقود بنفسه سيارتـه ، بمعزل عن حرسه الخاص ، أو وهو يقود طائرته الهيليكوبتر ، أو وهو يتجول في البادية لامعان الفكـر والتأمـل في مستقبـل بلاده أو للتحدث الى البدو « الاكثر اخلاصا بين المخلصين » ، أولئك الذين لم يخونوه أبـدا والذين وقفوا دومـا الى جانبـه في أحرج وأصعـب لحظـات حياتـه ·

على احدى تلال عمان السبعة ، يعيش الملك الحسين وأسرته في قصر غاية في البساطة ، حيث يندر أن تجد الاثاث الثمين ، وحيث ينعدم وجود الاواني الذهبية · لقد تعمّد الهاشميون هذا التقشف منذ أربعين جيلا ، أي منـذ أن بعث جدهـم الاعظـم الرسول صلى الله عليه وسلم · لقد كانوا فقـراء وسيبقون كذلك · لقـــد تغيَّر الزمن بـلا شك في يومنا هـذا ، وأصبح الحسيـن يمتلك سيارتين شخصيتين ، وبعض الدراجات النارية وطائرة هيليكوبتر · ولكن هلْ هكذا حقا يتصور الغربيون المقتنيات الملكية ؟·

عندما يجتاز المرء السور الحديدي الاسود لقصر الملك ، يشاهد جماهير عمان الغفيرة التي تنشط الى أعمالها ، ويقع بصره عـلى مخيم للاجئين الفلسطينيين ، يستطيع الحسيـن أن يراه من على سطـح قصره ·

لقد قالَ لي الحسين : « انني أحب هذا الشعب حبا جما ، وعميقا وانني لولاه لما كنت شيئا مذكورا » ·

ويتأجج عندئذ في نفسه ، الحنين الى الماضي ، ويعود بذاكرتـه القهقري عبر الزمن ، فيرى نفسه فتى صغيرا ، ينمو ويترعرع مع الشعب ، وبين أبناء الشعب ·

« ان حياتي ملك لشعبي ··· » ·

لقد استقرت هذه العبارة في ذهن الحسيـن منـذ تموز (يوليو) من عام ١٩٥١ ، حين قالها جده المغفور له الملك عبـد الله وهو فـي طريقه الى القدس ، ليقوم برحلـة لن يعود منها ، اذ أنـه اغتيل على مرأى من حفيده في المسجد الاقصى ·

وبعد مضي سنة ، يعتلي الحسيـن عـرش الاردن وهو لمَّا يبلغ السابعة عشرة من العمر · انه لن ينسى أبدا الجسد الدامي لهـذا الشيخ الذي كان يجله ويوقره ، انـه لن ينسى أبدا الحركـة التـي صدرت عنه لتغطية جثة الملك الشهيد بردائه الملطخ بالدماء · وهو لن ينسى أيضا هذه الرصاصة التي أطلقها القاتـل والتـي ارتدّت عن بزتـه العسكريـة ·

منذ ذلك اليوم ، هذا الرجل الذي كان العالم أجمع يسميه الملك الشاب الشجاع ، قـد تغلب عـلى عشرات الاعتداءات والمؤامرات والتمرد والفتن والازمات · وقد كان في الوقت ذاتـه موضع تقديـر واعزاز وتكريم واحترام كل اولئك الذين عرفوه معرفة جيدة ·· منذ ما ينوف على العشرين عاما والحسين قد كرّس حياتـه برمتها ، وحياة أسرته لقضية شعبه وللسلم في الشرق الاوسط ، رافضا دوما التدخلات التـي لا مبـرر لهـا ، ومعارضا للارهـاب والاغتيالات ، وداعيا الى الاعتدال والاتزان ، الى الحوار والتشاور والتداول ·

لقد أتيح لي ، طوال العشرين عامـا الاخيرة ، مقابلـة ومحادثة عدد كبير مـن رؤساء الدول ورجـال السياسة ذوي المواقف والآفاق والآراء والمعتقدات المتباينـة ، من رأسماليـين ، واشتراكييـن ، وملكيين ، وأحرار ، ومسلمين ، ويهود ، ومسيحيين ·

وقد كان الحسين ، ملـك المملكـة الاردنية الهاشمية ، أكثرهم جاذبية ، وأعظمهم سحرا ، وأشدهم تأثيرا على النفس والعقل · فذكـاؤه ، وحماستـه الدافقـة وصفاء سريرتـه ، وطهـارة قلبـه وخلوص نيتـه ، وصراحته ، وتواضعه الجم ، كـل ذلك جعـل منه شخصية فذة · فشدة تدينه وعمق ايمانه، جعلاه يرجو لكل شخص

أن يعبد ربه بخشوع وتقوى حسب الشعائر الدينية التي ينتمي اليها . وشدة تسامحه ، جعله يعفو عن الاخطاء ، حتى الخطيرة منها ، بحيث أعاد الى رفاق صباه الذين تآمروا عليه في الخمسينيات ، كرامتهم ، ومنحهم ثقته من جديد . وتعطشه الى الحرية ، جعله لا يدير ظهره لشعوب أوربا الشرقية وللاقطار التي اختارت طريقا أكثر ميلا الى اليسار ، كما أن صداقته المخلصة لرجال مختلفين ، في نظرهم الى الامور ، كشاه ايران والرئيس السادات أو الملك الحسن الثاني ملك المغرب ، جعلته يحاول الاحتفاظ بعلاقات جيدة ، رغم مختلف الصعاب والمعوقات ، مع بعض الدول العربية التقدمية وزعمائها ، مع أنهم لما يهادنوه أو يسايروه منذ اعتلائه العرش .

لقد عرف جلالته تشرتشل ، وأيزنهاور ، وكندي ، وجونسون ، ودي غول ، وخروتشوف ، وعبد الناصر ، ونهرو . وهؤلاء جميعهم قد انتقلوا الى العالم الآخر . واجتمع مرات عدة مع ايدن ، وماكميلان ، وهيث ، ونيكسون . وهؤلاء قد انسحبوا من الحياة العامة ، يقول الحسين بأن :« اتصالي بكل فرد من هؤلاء قد زادني ثراء وغنى معنويا . لقد تعلمت من كل شخص منهم ، شيئا ما . وهذا في نظري أمر جوهري . انه شتان بين همرشولد ، وفيصل ، بينَ أوثانت وبومبيدو ، ومع ذلكَ ، فان كلا منهم قد سحرني ، ومِلكَ عليّ نفسي » .

انَ حياة الحسينَ وحياة الهاشميين ، جزء من كفاح الاسلام من أجلَ الحرية . كفاح ضد الامبراطورية العثمانية ، كفاح ضد الامبراطورية البريطانية الجبارة ، وأخيرا كفاح ضد الغزاة الصهاينة .

يقول الحسين : « لقد دفن جدي الاكبر في القدس ، ومات جدي على مرأى مني في القدس أيضا . وانني أنتسب الى الجيل الرابع من أولئك الذين ناضلوا في سبيل الحرية والاسترداد الكامل

لترابنا الوطني . وسأواصل النضال لهذه الغاية حتى اخر قطرة من دمي » .

لقد تغيرت بشكل مأساوي حياة جلالته كمسئول عن سلامة التراب الوطني لبلاده ، في هذه الاشهر القليلة الماضية ، منذ مؤتمر القمة المعقود في الرباط في تشرين الاول (اكتوبر) من عام ١٩٧٤ ، لقد أصيب بطعنة في الظهر من قبل أولئك الذين يسميهم اصدقاءه. فقد حملوه على التخلي عن المطالبة بالاراضي الواقعة غربي نهر الاردن ، بما في ذلك القدس . فنزل عند ارادتهم . ويقول الحسين : « لقد قبلت بذلك لان العالم العربي وعشرين دولة عربية قد طلبت مني ذلك . » .

ولسوف يحكم التاريخ فيما بعد حول ما اذا كان هذا الحل هو الحل الامثل ، الحل الوحيد . لقد عمل أفراد أسرته باخلاص وبأستمرار لخير الشعب الفلسطيني وحماية حقوقه القومية المشروعة . واليوم كما يقول الحسين : « لا فائدة ترجى من التشبث بماض انتهى أمره . ولا أهمية لمشاعري الشخصية ، لان ما أصبو اليه كان وسيبقى ، مساعدة اخواني على استرداد وطنهم المفقود » بعد أن انفصل عضو حيّ من جسم المملكة الاردنية الهاشمية ، وهو الضفة الغربية ، انطلق الحسين من الصفر ، وعلى أسس جديدة ، فقرر مساندة منظمة التحرير الفلسطينية بدون تحفظ . بوصفها الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني .

يقول الحسين : « ان مهنتي كملك ، ليست سهلة هيّنة . وانني لارجو أن تؤمن بذلك . » . فهو ينهض منذ الساعة السادسة صباحا . ويعتكف في مكتبه في قصر بسمان . ثم يستقبل كل يوم مساعديه الاقربين ، والوزراء وقواد الجيش والسفراء . والحسين ليس له ساعة محددة لتناول الطعام ، حتى أنه أحيانا لا يجد الوقت لتناول أي شيء ، ويختتم يومه في الساعة العاشرة أو الحادية عشرة ليلا . وهو لا يكاد يجد متسعا من الوقت يخصصه للحياة

العائلية ٠ فاذا غادر جلالته مكتبه الخاص ، يكون قد ذهب الى أحد المعسكرات ، أو احدى الثكنات العسكرية أو زار أحد الميادين الخاصة بالمدرعات والدبابات او احد المدرجات للاجتماع برجاله من الطيارين ٠ ومن النادر أن يقاسم رجاله المخلصين من سكان البادية طعامهم ، وهو أمر يحس من جرائه بالاسف الشديد ٠

عندما هوجم الحسن الثاني ملك المغرب بالرشاشات وهو على متن طائرته البوينغ ، بعد مضي سنة على مؤامرة الصخيرات وبينما كان العالم بأسره يتساءل عن مصير الملكية الشريفية ، كان هنالك رجل واحد فقط قد طار لنجدة صديقه ، وجاء الى الرباط لمساعدته على التغلب على هذه المحنة ٠ أما هذا الرجل فقد كان الحسين٠ ان هذا الموقف منبثق من طبيعة الملك الشاب الذي تسرّب الشيب الى رأس جلالته بمرور السنين ٠

سيبلغ الحسين الاربعين من العمر في الخريف القادم (١) ٠ ترى هل يخشى الموت ؟ يقول جلالة الحسين : « انني لا اخشاه اطلاقا ، لانني رأيته وجها لوجه مرات عدة ٠ انني لا أخشى الا الله وحده ٠ » ولعله يخشى أيضا ألا يستطيع انجاز مهمته التي ما زالت بعيدة المنال ، ألا وهي أن يجعل من الاردن في عام ١٩٨٥ ، دولة تتيح لها مواردها المستخرجة من باطن الارض ، كالبوتاس والفوسفات ، وربما البترول ، ألوفاء بحاجاتها بنفسها ٠

ان حياة الحسين ماهي الا مرحلة ٠ انها فترة انتقال في تاريخ الاردن ٠ يقول جلالته : « انني أبذل كل ما في وسعى لكي تجد الاجيال القادمة ظروفا حياتية أفضل من ظروفنا ٠ » ٠ انه يفكر بلا انقطاع بالغد ، وبالغد الذي يليه انه يفكر بأردن أعوام الثمانين يقول الحسين : « أرجو أن نغدو قدوة لسائر الاقطار الاخرى في هذه المنطقة ٠ » ٠

(١) ظهر الكتاب الملكي في صيف عام ١٩٧٥

طوال هذه السنين من حكمه الملكي ، حاول الحسين ازالة الحواجز التي تفصله عن شعبه ، ليتسنى له مساعدته خير مساعدة على التقدم ٠ ولقد قطعت مراحل مختلفة في هذا السبيل ٠ بعضها تم بصعوبة فائقة ، وبعضها الاخر بصورة مأساوية٠ يقول الحسين: « ولكن ما زال أمامنا طريق طويل واجب الاجتياز ٠ طريق مليء بالعقبات ٠ ولسوف أكون الى جانب شعبي لمساعدته على تذليلها ٠

والحسين مؤمن بالقضاء والقدر ، ككل مسلم ٠ فهو في كل لحظة يسلّم أمره الى الله ، آملا بفضل الله العلي القدير ، أن يتمكّن من مواصلة مسيرته على طريق التقدم والحرية ، « قبل أن يدعوني الله الى جواره ٠ » ٠ وفي هذا اليوم فقط أكون قد ربحت رهاني ٠

فريدون صاحب جم

مهنتي كملك

يا صاحب الجلالة ، الناس لا يعرفون الا القليل عن أسرتكم وطفولتكم ويقال بأنكم كنتم من الفقراء ، وأن مورد رزق والدكم كان محدودا ٠

كانت طفولتي بسيطة وجد سعيدة ٠ وكنت دوما شديدا التعلق بوالدي ٠ أما والدتي الملكة زين التي بقيت دوما الى جانبي والتي تعيش في الوقت الحاضر ، في عمان ٠ فامرأة تثير الاعجاب ٠ انها ليست جميلة فحسب ، بل هي أيضا موفورة الذكاء ٠ وكانت حكمتها وشجاعتها ونصائحها ذات تأثير حاسم بالنسبة الي ٠

لم تكن أسرتنا في الواقع تعيش في بحبوحة ، وهذا أقل ما يمكن قوله ، ولا نبالغ اذا قلنا بأننا كنا فقراء ٠ في عام ١٩٥٠ ، عندما كان والدي وليا للعهد ، كان يتقاضى من الدولة راتبا مقداره ألف دينار ، وقبل ذلك ، في الاربعينات ، كان الراتب أقل بكثير ٠ وبالطبع لم نكن نملك ثروة شخصية ٠

واليك قصة تصف لك مدى فقرنا ٠ بعد سنة من مجيئي الى هذه الدنيا ، ولدت للاسرة طفلة صغيرة، الا أنها ماتت بعد شهرين من ولادتها ، من جراء البرد القارص في عمان ٠ فقد قضى عليها مرض ذات الرئة ، لاننا كنا لا نملك من الموارد ما يسمح بتدفئة بيتنا الصغير ٠

واني لاذكر رحلة قمنا بها بعد بضع سنين لزيارة ابن عمي فيصل في بغداد ، فتعلقت نفسي بدب ضخم من القطيفة ، ولم أكن أرغب في الانفصال عنه بأي ثمن ، ولكن في لحظة العودة الى عمان ، اضطررت مع ذلك الى التسليم بتركه لابن عمي ٠ ولقد تمزق قلبي من جراء ذلك ، وفي اليوم التالي ، اشترت لي أمي دبا مماثلا بعد أن باعت آخر حلية كانت لها ٠

لقد كان تشجيعها طوال عمري ، يشد من عزيمتي من خلال الازمات والفترات العصيبة ٠ ومن المؤكد أنه لولا تضحية أمي واخلاصها وصبرها لما كان في مقدور أبي أن يحكم بلادنا حتى خلال الفترة القصيرة التي دام فيها حكمه ٠ ولو أن أبي الذي كان يعرف امي الى جانبه ، لم يتدخل بعزم وتصميم بعد اغتيال جـدي في تموز (يوليو) من عام ١٩٥١ ، لكان من المحتمل أن يكون تاريخ الاردن اليوم مختلفا عما هو عليه الان ٠

عندما كنت صبيا صغيرا ، كنا نقيم جميعا في دارة متواضعة تتألف من خمس حجرات مع غرفة استحمام واحدة تحيط بها قطعة أرض صغيرة في جبل عمان ، أحد تلال العاصمة السبعة ، لقد كان ابن عمي فيصل ملك العراق يوحي الي بانطباع أنه يعيش في عالم غني ثري ٠ وانني لاذكر زيارة أخرى قمت بها الى بغداد عندما كان لي من العمر عشر سنين ٠ فقدم لي فيصل ، بمثابة هدية الوداع ، دراجة متألقة متلألئة ، وقد كان لدي شعور بأنني لن أمتلك أبدا في حياتي شيئا أجمل منها ٠ وطوال سنة كاملة بقيت الدراجة محتفظة بالجمال واللمعان اللذين كانت عليهما في اليوم الاول ٠ وكنت في الصباح والمساء ، أدلكها وألمعها وأجعلها تضيء وتشع ٠

وفي أحد الايام جاءتني أمي وقالت لي بلطف : « انني أعرف بأنني سوف أشق عليك ، ولكن وضعنا المالي يبعث على الهم والقلق ، فلكي نستطيع الخلاص من هذه الحال ، لا بد لنا من بيع بعض المتاع الذي لدينا ، فهل يضايقك يا بني العزيز أن نبيع دراجتك ؟ » ٠

ولقد جاهدت نفسي لاحتباس دموعي ٠ انهم يستطيعون بيع كل شيء ولكن ليس دراجتي !

« وقالت لي أمي من باب التسرية عني وتعزيتي ، انك تعرف بأن عليك أن تواجه وتتغلب على الكثير من خيبة الامل ، كن قويا ،

فسيأتي يوم تنسى فيه الدراجة ، وتقود أجمل السيارات » ٠

لقد قدت أجمل السيارات فيما بعد ، ولكنني لم أنس أبدا هذه الدراجة فقد بيعت في اليوم التالي بخمسة دنانير ٠

ليس الفقر عيبا ٠ ولقد أثبت لي مستوى معيشتنا المتواضع ، انني أستطيع أن أحيا حياة أبسط من الحياة التي عشتها فيما بعد ، وعلمني أيضا أن أقدر قيمة المال الى الحد الذي أصبحت فيه الآن أشعر بمتعة كبرى في منح العطايا للمعوزين ٠

وعلى الرغم من فقرنا ، فقد كانت حياتنا سعيدة نسبيا ٠ فقد اختلفت الى سبع مدارس متباينة سواء في عمان أو في الاسكندرية وقد كنت دوما أشعر بفرح شديد في مصادقة الصبيان الآخرين ، وأن أعامل تماما مثل الاخرين ٠ ولكن لئن صادقت عددا كبيرا من هؤلاء فان القليل منهم قد أصبحوا من الخلان الاوفياء الحقيقيين ٠

ولعل ذلك يعود الى انني أغير مدرستي باستمرار ٠ وكأن قوى متعارضة تتجابه فيما بينها بالنسبة لتعليمي ٠ فما أكاد أسجل في مدرسة حتى يجيء جدي صاحب السلطة التي نعلمها ونعترف بها جميعا ، فيقرر أنني أحتاج الى دروس خاصة في التربية الدينية ، الامر الذي يعيدني الى البيت لكي أتلقى هذه الدروس على انفراد وعندئذ يأتي دور أبي ليقرر تغيير المؤسسة ٠٠٠ وأخيرا نجحت في أن أسجل نفسي في كلية فيكتوريا بالاسكندرية ، وهي مؤسسة تمزج التعليم باللغتين العربية والانكليزية ، وبذلك فتح أمامي عالم جديد ، عالم لم أكن أعرفه قط ، مع ما فيه من رياضة ككرة القدم والكريكت ، ومن قراءة ، ومن مصاحبة حقيقية للرفاق ٠ وما زلت أذكر تماما حتى اليوم ، المهجع الكبير الذي كنت أتقاسمه مع ثلاثين من الفتيان الاخرين ورذاذ الماء المثلج الذي كنت أستحم به كل صباح ، واللباس المدرسي المصنوع من نسيج الصوف الخفيف ، وقميص الرياضة الخاص بالكلية ٠ وانني لأرى نفسي أيضا كيف كنت جالسا على حافة سريري ، بعد ظهر أحد الايام ، أحاول

جهدي ادخال خيط في ثقب ابرة لترقيع قميص الرياضة الذي كنت قد مزقته • وأخيرا نجحت في ذلك لانني كنت أعرف أن والدي" كانا لا يملكان ما يتيح لي شراء قميص اخر •

كان جدي يساعدنا ماليا لتسديد الاقساط المدرسية لان أبوي" ما كانا ليستطيعان ذلك لوحدهما • وربما يبدو هذا غريبا ، ولكن لا تنسوا أن والدي كان يتلقى راتبا سنويا متواضعا • ولما كان عددنا في البيت كبيرا ، وكان يحمل لقب ولي العهد ، فلم تكن الحياة هينة بالنسبة اليه •

لقد كان جدي بصفته ملكا ، يتلقّى تعويضا من الدولة يكاد لا يفي بالضرورات التي كان يستوجبها مركزه ، ومع ذلك فقد كان يتوصل الى تدبير أموره ، مع تقديم مساعدة لنا ودفع أقساطي المدرسية • فيما يتعلق بالنقود السائلة ، فقد كنا غالبا في ضيق ، الامر الذي كان يضعني في موقف غريب • فقد كنت أختلف الى مدرسة ممتازة في حين أن نقود الجيب التي تردني كانت مضحكة حقا •

كل هذا عاد علي بخير كثير وذلك بلا شك من جراء العادة التي اكتسبتها في وقت مبكر وهي أن أكون مقترا جدا ، مما جعلني فيما بعد أراقب مالية بلادي بعين نقادة •

ان السنتين اللتين أمضيتهما في كلية فيكتوريا تحسب بين أجمل سني عمري • فقد كنت أتلقى تعليما طبيعيا تماما ، وأمارس الالعاب الرياضية في الوقت نفسه • وكنت أتابع دروسا بالعربية وبالتعليم الديني • وأصبحت من أمهر اللاعبين بالسيف مما أثار فرح جدي الذي كان يتابع علاماتي المدرسية باهتمام • وخلال الفصل الاخير في الاسكندرية ، فزت بمدالية في لعب السيف، وكان سجل علاماتي جيدا تماما ، فبلغ سرور جدي بذلك حدا كبيرا حمله على رفع درجتي العسكرية الفخرية الى رتبة رئيس •

في نهاية هاتين السنتين ، عندما بلغت من العمر بين الخامسة عشرة والسادسة عشرة ، ازداد جدي تعلّقا بي ، فأصبحت أكثر قربا اليه ولا سيما خلال الاجازات الكبرى : وقد كان يعتبر أن الاجازات هي المناسبة المنشودة لمضاعفة الجهود ••

لقد كان رجلا شديدا وعادلا • ولقد وصفه السير آلك كيركبرايد، الوزير الانكليزي في شرقي الاردن بأنه « عاهل ذو عينين تشعان فطنة ، وعقل يتوقد ذكاء » • فقد كان رجلا من البادية • ربي" بين القبائل البدوية المحاربة • وكان يشعر حتى اخر يوم من حياته بأنه طليعة النضال من أجل الاستقلال العربي طوال عشر سنين ولكن النصر الكامل قد سلب منه بما يخالف الحق والعدل ، فهو لم يكن جنديا فحسب ، بل كان ديبلوماسيا عليما خبيرا الى أقصى الحدود ، وكان أديبا كبيرا ينشد القصائد الشعرية طوال ساعات، وكان الى هذا شاعرا هو نفسه كما كان لاعبا ماهرا في الشطرنج • كان شيخا ذا مناقب مذهلة تثير الاعجاب • وكان حاد الطبع اوتوقراطيا في الغالب • أحال شرقي الاردن الى بلاد سعيدة يحلو العيش فيها •

أما والدي المأسوف عليه الذي أضحى الملك طلال فيما بعد ، فقد كان مختلفا تماما عنه • اذ كان أكثر الناس لطفا وأخلقهم بالمحبة والوداد • كان طيبا كريما كثير السحر والجاذبية • عندما كنا أطفالا ، كنا نجلس في مقابلته ونصغي اليه وهو يبتكر لنا القصص المدهشة • وهكذا كانت أسرتنا الصغيرة متحدة القلب الى أقصى حد • وكان الحب الذي ينبعث منها ذا أهمية بالغة بالنسبة الينا •

كان والدي بالغ الاستقامة • فلم أصادف في حياتي رجلا واحدا لا يحبه • ولكن المرض الذي كان يعاني منه قد أعاقه لسوء الحظ عن الاستمرار في ادارة شئون الملك بحكمة • ومع ذلك فقد نجح ، على الرغم من قصر فترة حكمه ،في تحسين العلاقات التي كانت متوترة بين الاردن والعربية السعودية ، ومصر • لقد كان الواضع الرئيسي

ادستورنا ومع ذلك فلا بد لي من القول بأن العلاقة بين والدي وجدي لم تكن جيدة · فقد كان الرجلان متباعدين من حيث النظرة الى الحياة والسن · والواقع أن جدي لم يتبين على الوجه الصحيح الى أي مدى كان والدي مريضا : كان يرفض هذا المرض ، فقد كان الملك الشيخ من وفرة الصحة ومتانة البنيان الى الحد الذي جعله لا يتمكن من تفهم معنى المرض والمكابدة والمعاناة · أما نحن فقد كنا نعرف ذلك ونحيط والدنا بالكثير من العناية والرعاية والحب · في حين أن جدي كان يعيش الى حد ما ، في بطولات الماضي ، وكان يرى الاشياء على وجه آخر · وهذا ما أصابه بأشد خيبة أمل مرارة في حياته ·

واني لاذكر حادثة ترددت طويلا في روايتها لانها كانت شخصية واليكها فهي بليغة الدلالة :

في أحد الايام ، اغتيل رياض الصلح ، وهو شخصية سياسية لبنانية كانت في زيارة الاردن · وقد وقع الحادث في يوم الاثنين الذي سبق مقتل جدي · قتل ضيفنا في سيارة جدي وكان المرافق العسكري لجدي في صحبته · وعلمت النبأ بعد الظهر ، فأسرعت الى القصر · فوجدت الملك عبد الاه غاضبا غضبا لم أعرف له مثيلا من قبل · لقد كان يرى أن من غير المعقول أن يقتل ضيف في الاردن · وكان غضبه يزداد كلما اتضحت التفاصيل · ثم دخل الحجرة مرافقه العسكري الذي كان قد نجا من الموت ، فألقى عليه جدي نظرة احتقار وخاطبه قائلا : « كيف تجرؤ أن تبقى حيا ؟ »
وقد كان على عمي الامير نايف ، وهو أخ لاب لوالدي ، كان عليه أن يكون الى جانب الملك ، ولكنه كان غائبا في هذه اللحظة العصيبة · وصرخ بي جدي قائلا : « أين عمك ؟ اذهب وابحث عنه وأحضره ! » ·
فاندفعت الى الخارج · ومضت لحظات لم يكن عمي خلالها قد عثر بعد عليه · وكان الناس يقبلون مسرعين في أعداد متزايدة · والتفت جدي فجأة وقال : « لقد اختفى ! أين ذهب ؟ » · فذهبت

من جديد لابحث عنه · وأخيرا هدأت العاصفة وبقيت وحدي مع الملك · فنظر الي بوجه يعلوه الاصفرار من الحزن والالم · ثم وضع يده على جبيني قائلا في حشرجة ، وكأنه يتوجه بالحديث الى الالهة : « هذا اليوم هو أكثر أيام حياتي ايلاما وشدة ! ابن مريض أتحمل عبأه ، والآخر في أوج الازمة يجد الوسيلة للاختفاء ! » ·

وبقليل من الرجوع بالفكر الى الوراء لتبين الامور بوضوح فهمت الان لماذا وكيف أصبح جدي كلما تقدمت به السن وأصبح أكثر تسامحا ، فاضت نفسه محبة لي وعطفا علي · ربما لانني قد غدوت في نظره الابن الذي كان يتوق أن يكون له ·

وعندما تولى بنفسه أمر تثقيفي لا سيما خلال العطل الصيفية الاخيرة أصبح صلبا لا يلين · فقد كان ينهض دوما عند مطلع الفجر ، وهي عادة غدت بالنسبة الي فيما بعد مفيدة جدا بحيث أنني كنت أجد نفسي ناهضا في غالب الاحيان في حوالي الساعة السادسة صباحا فأعمد الى الاغتسال بسرعة في بيتنا الصغير ، وما أن تحين الساعة السادسة والنصف حتى أكون في الطريق الى القصر · وهناك كان كل شيء جاهزا · فقد كان ثمة غرفة تستخدم كقاعة تدريس · أما استاذي فقد كان دوما ينحّى عن مهمته لان جدي نفسه هو الذي كان يبدأ في القاء الدروس · فقد كان يفتح كتابا في اللغة العربية ، أو مجموعة من النصوص الدينية ويقول: « يا بني سنبدأ اليوم بهذه الصفحة » · ثم يلقي الى الاستاذ بنظرة تعوزها حرارة المودة ويقول له : « تأكد من أن الامير قد حفظ دروسه جيدا » ·

بعد ساعتين من الدراسة يأتي جدي بنفسه ليأخذني أو أذهب للالتحاق به في مكتبه · فيكون قد سبق له انجاز الجزء الاساسي من عمله والامل يداعب خياله في أن أكون قد فعلت مثله · كان جيد الاطلاع على برنامجي الدراسي الى الحد الذي لم أحاول أبدا أن أخدعه ···

وذات يوم ، بينما كنت أتابع درسا في اللغة العربية مع أستاذ كان قد اختاره بنفسه ، دخل فجأة الى حجرة الدراسة وبدأ يلقي علي أسئلة • ولقد خيبت أجوبتي أمله الى الحد الذي جعله يفحص الاستاذ نفسه •••

كنا أحيانا نتقاسم فطورا متواضعا في الساعة الثامنة والنصف• أما قائمة الطعام فكانت تتألف من القهوة البدوية المعطرة بقليل من حب الهال أو من الشاي بالنعناع مع الخبز المرقوق، بلا زبدة ولا مربى • وكان جدي يقول بأن المرء يعمل بصورة أفضل عندما تكون معدته شبه خاوية •

وغالبا ما كان يشرفني بالقيام بعمل مترجم له في مكتبه في القصر لانه كان يفهم الانكليزية ولكنه لم يكن يتكلمها • لقد كنت أحب هذا العمل ، ولكن كان علي أن أكون محترسا حذرا ، فهو لا يتكلم الانكليزية حقا ، ولكن خلال اللقاءات الدبلوماسية كان أكثر من مرة ينحي باللائمة على المترجمين لتغييرهم لمعنى كلمة واحدة • وكان يتمتع بحاسة ادراك غريبة للكلمة الوحيدة التي جرى تشويه معناها • وغالبا جدا ما كنت مترجمه فلم يوجه الي ملاحظة اطلاقا• وفي معظم الاوقات كنت أعود الى القصر قبل صلاة المغرب ثم نتعشى معا • وكنت أصغي اليه أثناء تناول الطعام وهو يتكلم عن مهام الملك التي تنطوي على المخاطر، أو أنني كنت أشهد مجالسه مع الوجهاء • وكنت أنظر اليه وهو يملي مذكراته ورسائله أو وهو يلعب الشطرنج حتى ساعة متأخرة من الليل ، وعندئذ كان يقول لي وهو يرى عيني نصف مغلقتين من النعاس : « عد الى البيت واسترح حتى الصباح »•

كان يأذن لي بمرافقته أينما ذهب • وهو الذي علمني أن أفهم أفكار شعبي وتعقد العالم العربي • كما أنه هو الذي علمني التزامات المنصب الملكي وكيف يمكن مواجهة الخصم بنجاح ••• ولقد علمني بشكل خاص أن أعظم واجبات الملك ، هو أن يخدم دوما • وأذكر أيضا أساليبه غير المألوفة في افحام من يثيرون

غضبه • واليك مثلا بين أمثال عديدة :

بينما كان يتناول طعام العشاء مع أحد الوبلوماسيين ، دار الحديث حول العربية السعودية التي كان ملكها غالبا على خلاف مع جدي • فسأله الدبوماسي عما اذا كان لا يعتقد بأن من المستحسن لمصلحة القضية العربية أن تجري تسوية لما بينهما من خصومة • فسأله جدي : « ماذا بلغت من العمر ؟

فأجابه : خمسا وأربعين سنة يا مولاي •

فقال له : هل أستطيع أن أسألك عن عمرك عندما قامت الثورة العربية الكبرى ؟

فرد عايه : أعتقد بأن عمري كان آنذاك تسع سنين تقريبا يا مولاي • واصفر وجه الدبلوماسي اصفرارا ملحوظا •••
« انك لم تبلغ من العمر تسع سنين عندما كنت أقود جيش الشرق الذي حرر العرب • واليوم تطمع في أن تلقي عليّ درسا في الاخلاص للقضية العربية ! » •

لقد كان رجلا مدهشا فقد كان يتمتع بكثير من المواهب الخفية • ففي صباح أحد الايام كنت أنوي استشارته في أحد الامور ، فذهبت الى قصره في موعد أبكر من المعتاد ، في نحو الساعة السابعة • وكان ما يزال في سريره ، الا أنه كان مستيقظا • فأدهشني أن أرى أدوات علمية معدة لتجاربه في الفيزياء والكيمياء • وكان على الحائط مكتبة مدهشة ملأى بالكتب العلمية •

كان لديه احساس عجيب بالدعابة والفكاهة والظرف • وكان يتعاطى السعوط دائما ، وفي أحد الايام نسي علبة السعوط • وعند ما جئته بها جعلت أتفحصها بالفضول الطبيعي الذي يتصف به الاولاد ، فنظر الي وقال : كأ نذلك يهمك » • فلم أجبه • فقال لي : « عليك بالتجربة » ، وقدم لي قليلا منه • ولما كنت لا أعرف أن

المسحوق كان قويا جدا ، فقد استنشقت كل محتويات العلبة · عندها جعلت أعطس دون توقف مدة ساعة بينما كان جدي يقهقه ضاحكا · وهذا كان كافيا بالنسبة لي فلم أتذوق قط هذا النوع من الاشياء ·

ومن المؤكد أنني لم أكن أخشاه ، لانني كنت أحبه وأحترمه ، ولكن علي أن أعترف بأنني كنت أفعل بعض الاشياء خفية عنه · فمع أنني لم أبلغ سوى الخامسة عشرة ، فقد كنت أتدبر أمري لتعلم قيادة السيارات بأخذ بعض الدروس فيها أثناء ساعات فراغي · وما كنت لاعرف اذا كان جدي على علم بذلك أم لا ، الا أنني أميل الى الاعتقاد بأنه كان يتجاهل الامر تجاهلا ·· وكنت أخشى أن أطلعه على ذلك مخافة معارضته · وهو لم يكتشف سري رسميا الا قبل وقت قصير من وفاته · فقد جئته مرة في السيارة لتناول طعام العشاء ، وكنت أتهيأ للاستئذان بالانصراف بأن أوجه اليه دوما تحية المساء في القصر دون أن يرافقني قط الى سطح الدرج · وخرجت وقفزت الى داخل السيارة · وما كدت أدير المحرك حتى أقبل الملك · فتصلبت في مكاني قليلا ، ثم نزلت من السيارة لملاقاته · فقال لي : « أرى أنك تعود الى البيت »· فأجبته متلعثما نعم يا مولاي ·

فقال : حسن اذهب على مهل وكن حذرا ·

وكان هذا كل شيء · ثم عدت الى البيت · وما كدت أصل حتى كان جرس الهاتف يقرع · وكان جدي على الخط · فقال لي : « لقد كنت أرغب فقط في أن أتأكد من وصولك سالما · ليلة سعيدة » ·

هذا هو اذن الرجل الذي علمني الشيء الكثير والذي كان يحبني حبا شديدا والذي أدين له بأكثر مما أستطيع أن أقوله · انه هو الذي قال لي في أحد الايام :

« تذكر يا بني : ان أهم شيء في الحياة هو أن يكون لدى المرء العزم والتصميم على العمل وأن يكون مستعدا لان يعطي خير ما

في نفسه على الرغم من العوائق ومهما كانت الصعوبات · وعندها فقط تستطيع أن تعيش مطمئن النفس مع الله ومع ضميرك » ·

لقد كان عمري ستة عشر عاما ، وكنت على عتبة حياة جديدة · وكان عليّ آنئذ أن أضع موضع التنفيذ جميع المبادىء التي لقنني اياها ، ولكن اذا كان صحيحا أنه قد أثر فيّ تأثيرا عميقا فقد علمني موته في الواقع ما هو أساسي وجوهري ·

فالاقطار العربية تختلف عن البلاد الاخرى والحياة فيها لا قيمة لها كما أن الموت فيها قليل الاهمية · وبمقتل جدي أصابني القهر والالم شخصيا لاول مرة · وكان هذا اليوم الرهيب مليئا بالدروس والعبر حتى ولو لم أفهمها في الحال · فقد تعلمت أولا أن الموت قدر لا مرد له · فعندما يموت المرء فانه يموت لان ذلك هي ارادة الله · وبذلك اكتسبت هذه الراحة النفسية التي لا ينالها الا الذين لا يخشون الموت · وفي الوقت نفسه ، فان الذي يؤمن بالقضاء والقدر عليه أن يعطي خير ما في نفسه خلال الفترة التي تدوم فيها حياته لا سيما وأن هذه الحياة يمكن أن تسلب منه بنفس السرعة التي سلبت فيها حياة جدي · أي خلال لحظة وهي اللحظة التي استغرقتها رؤية دخان مسدس القاتل وهي تتلاشى في الحرارة اللافحة لصيف في القدس ·

وهذه المعتقدات قد ساعدتني مساعدة كبيرة على احتمال فقدان جدي ، كما أنها أسدت الي خدمة جلى في التغلب على الازمات والمخاطر ·

ومما لا شك فيه أن موته قد أتاح لي أن أوضح مفهومي للحياة · وهنالك شيء آخر تعلمته · فاذا كانت الحياة لا قيمة لها تقريبا فان نصيب الانسان من هذه القيمة أقل · ولسوف لن أنسى الخداع الانساني كما بدا لي في هذا اليوم ، فان موقف ونذالة اولئك الذين كانوا يزعمون أنهم أصدقاء جدي ، قد أثرا في نفسي تأثيرا عميقا

الى الحد الذي لم يكن لدي سوى رغبـة واحدة : أن لا أغـدو ملكـا للاردن ، لذلك تلقيت بارتياح نبأ أن والـدي الذي كان يعيش فـي سويسرا ، قد بدا عليه التحسن. وعند عودته كنت أرجو أن أتمكن من الرجوع الى كلية فيكتوريا بعيدا عـن التعطش الـى السلطـة والطمع اللذين انطلقا من عقالهما بعـد وفـاة الملك عبـد اللـه . فالسياسيون ، كالطيـور الجارحة ، كانوا يتقاتلون لاحـراز بعض الفتات من السلطة ، وبعض الطامعين مـن الاقارب ، لـم يكونوا ينتظرون سوى قراءة الوصية . وكان بعض الناس يشكّون في أن والدي قد تعافى بمقدار كاف ليرتقي العرش . وبعضهم كان يأمل أن لا يستطيع تولي الملك لانهم كانوا يشتهون الملـك لانفسهم ، وكنت أنظر بحزن وأنا عاجـز عن اتيان أي فعـل ، كيف كـان « أصدقاء » جدي العجيبون يتناسون اخلاصهم دون أي تفكير في مصلحة البلاد . لقد رأيت البنيان الذي أنشأه الملك تتزعزع أركانه لان أقرباءه كانوا عاجزين ، ولان ضعفهم سهل تدخل الانتهازيين . وهذا كان يعني انهيار الاردن الصغير .

لقد أثر اغتيال جدكم تأثيرا كبيرا على تطور شخصيتكم . ولقد كان أيضا حدثا تاريخيا هاما في تاريخ الاردن . في أيـة ظروف وقع هـذا الاغتيـال ؟

كان ذلك في يوم الجمعة العشرين من تموز (يوليو) عام ١٩٥١ . كان الحر شديدا وكان هذا هو اليوم الثاني من اقامتنا في القدس . في هذا اليوم وفي المسجد الاقصى بالقرب من قبـة الصخرة ، أحالت هذه المأساة القاسية المريرة الفتى ذا الستة عشر ربيعا الذي كنته الـى رجـــل .

كان الجو ثقيلا طوال سائر أيام الاسبوع ، وكانت نهاية الحرب الاولى العربية الاسرائيلية عام ١٩٤٨ ، بين أمور أخرى ، قد تركت العالم العربي متلاشي النفس ، ساخطا ، غاضبا .

كان التوتر يتعاظم ويتسرب الى كل مكان كالغيوم المسمومة .

فيوم الاثنين السابق ، كان اغتيال السياسي اللبناني الكبير رياض الصلح قد ألهب العواطف والاهواء. لم يكن لمصرعه حقا أية علاقة بجريمة القتل التي تلتـه . ولكن اغتياله حـدث في الاردن ، فتأثرت له البلاد تأثرا عميقا ، حتـى أن الوجوه في الشوارع كانت مقطبة . ومـا كان الناس يكفون عـن الصمت ، الا ليندفعوا الـى الصراخ والمناقشات الحادة التي كانت تنذر بقرب حدوث أزمة .

كانت هذه هي المرة الاولى التي عرف فيها الاردن اهانة كهذه ، وبديهي أنها كانت أمرا تافها بالقياس الـى الازمات التي ذللتها وسيطرت عليها منذ ذلك الحين ، ولكنها كانت أولى هذه الازمات . لم يكن غضب الشعب موجها ضد رجل أو حزب ، وانمـا ضد هـذه القوة الخفية التي حطمت المجرى الهادىء للحياة .

كان السكون والهدوء يخيمان على الاردن عندما كنت صبيا ، وكانت الحياة فيه ناعمة رخية . أما شعبه فكان يكدح بعزيمة لا تعرف الكلال . كان يعبد الله ويمتثل لاحكام القوانين ولا يبتغي الا العيش بسلام وضمان مكان له في الجنة ، عندما اغتيل فجأة زائر رفيع الشأن ، .. عندنا ، زائر كان يتمتع بضيافتنا . وبعد ذلك ببضعة أيام ... قتل الملك نفسه .

لقد فكرت دوما بأن مصر كان لها نصيب من المسئولية في اغتياله ، لان جدي كان له فيها كثير من الاعداء . لم يمض الا وقت قصير على مغادرتي المدرسة في الاسكندرية ، عندما بدأت الحملة ضد جدي . لقد كانت مؤامرة ترمي الى تفكيك أجزاء الاردن أما المصريون أنفسهم فلا شأن لهم بذلك . فقد عشت بينهم وأنا أعرفهم . في ذلك الحين كانت الفروقات بين الطبقات عظيمة . وكان الهدوء الغريب للشعب ، ينبىء بالانفجار . كان يبدو أن المصريين راضين بحكم أي كان . ولكن ذلك لم يكن الا من قبيل المظاهر . لقد كانوا سريعي التأثر بما كان يوحى اليهم ، وقليلي الاطلاع على أحوال العالم العربي . ولكن المعارضة الداخلية كانت تتزايد . فقد كان من غير الممكن الابقاء على هذا الشعب تحت رحمة الجوع وسياسة التجهيل ، كما كان يفعل الحكام المصريون المتسلطون القساة ازاء الفلاحين قبل ثورة عام ١٩٥٢ ، فأدرك أصحاب السلطة دلائل الخطر ، فلجأوا الى الاسلوب القديم في تقديم كبش الفداء ، فكان الاردن أنسب ما يحقق هذه الغاية . لقد تلقت بلادي ، أثناء الحرب ضد اسرائيل ، أكبر الضربات . اذ كانت محل الانتقادات من كل نوع ، على الرغم من أن جدي قد نبه شعبه الى كل ماسوفيحدث قبل ذلك بوقت طويل . لم يكن وعيه السياسي غير عادي ، ولكن قدرته على التنبؤ وكلفه بالحقيقة اجتذبا اليه طائفة لا بأس بها من الاعداء .

في الوقت الذي كنا نتكلم فيه عن الرحلة الى القدس ، كان احساسنا الداخلي بما سوف يحدث قويا الى الحد الذي جعل جدي

نفسه يبدو كأنه يتنبأ بالكارثة وهو الرجل الذي لا يفزع ولا يقلق بسهولة . وانني لاذكر كيف تناقشت معه طويلا قبل ثلاثة أيام من ذهابنا الى المدينة المقدسة . ودون أن أفهم السبب ، قال لي جدي فجأة بصوته العذب :

« أرجو أن تعرف يا ولدي ، أن عليك في يوم ما ، أن تتحمل مسئوليات جسام . وانني لاعتمد عليك أن تصنع المستحيل لكي لا تضيع جهودي سدى . انني اعتمد عليك في الاستمرار في خدمة شعبي » .

انني أذكر جيدا هذه اللحظة . فجدي الذي كان بدويا بقلبه كان شديد الحب للبادية الى الحد الذي كان ينصب الخيام في حدائق قصره ، ويقضي فيها جزءا كبيرا من وقته . وكان في الامسيات المعتدلة الطقس يجلس متكئا على الوسائد الحريرية يحيط به أصدقاؤه الذين يفدون لزيارته . وفي احدى الخيام ، وأنا جالس بالقرب منه كما كان يحدث لي غالبا ، وعدته وعدا رسميا بتحقيق أمنيته . لقد بذلت له هذا الوعد وأنا أعرف تمام المعرفة ما أقدمت عليه ، وأتوق الى الوفاء بوعدي واحترامه . ولكني لم أكن أتخيل لحظة واحدة أن الامور سوف تتسارع بهذا الشكل .

كان الملك عبد الله ، وهو في التاسعة والستين ، يتمتع بصحة جيدة . وكان والدي أيضا يظهر دلائل مشجعة على قرب شفائه . فكان لا بد من انتظار وقت طويل قبل أن يرتقي والدي العرش . أما بالنسبة الي ، فقد كان الامر أبعد منالا .

وما كادت تمضي أيام ثلاثة على ذلك حتى كنت أجثو أمام جثة جدي في الوقت الذي كان أصدقاؤه يهربون في كل اتجاه . وبعد مضي سنة أصبحت ملك الاردن . وانني اليوم لاتمنى أن يكون الوعد الذي قطعته له قد أنعش فؤاده بالقدر الذي شدد من تصميمي على الرضاء بارادة الله وخدمة شعب الاردن ما وسعني ذلك .

لقد وقعت أحداث عديدة خلال هذا الاسبوع الفاجع . ففي صباح الاربعاء ، عشية رحيلنا الى القدس ، التمس سفير الولايات المتحدة مقابلة الملك .

« قال يا صاحب الجلالة ، هل أستطيع أن أتوسل اليكم بأن لا تذهبوا الى القدس . اذ يبدو أن هنالك مؤامرة للاعتداء على حياتكم انني لارجوكم يا مولاي أن تعدّلوا من برامجكم » .
فنظر اليه جدي وهو مستغرق في التفكير . ثم قال له :

« أشكركم لتحذيري . حتى ولو صح ما ذكرتموه ، فلسوف أذهب على كل حال لان حياتي ملك لشعبي ومكاني هو بالقرب منه . ولسوف أموت اذا كانت هذه هي مشيئة الله » .

في يوم الاربعاء أنهينا استعدادات السفر . ولم يكن مفترضا أن أقوم بالرحلة الى القدس . ولكن في المساء بعث الي الملك يطلبني وخاطبني قائلا : « انك تعلم بأنني طلبت الى الكثير من الناس مرافقتي غدا الى القدس ، ولكن الغريب أن معظمهم لا يرغبون في الذهاب ، فكأنهم يخشون شيئا . انني لم أسمع في حياتي أعذارا بهذه التفاهة » . ونظر الي لحظة ثم أضاف « هل تريد أن تأتي معي يا ولدي ؟ » فقلت له : سأكون سعيدا بذلك فحياتي ليست شيئا يا مولاي ، بالقياس الى حياتك .

ربما كانت اللهجة مسرحية ، ولكن الكلمات كانت تصدر من أعماق أعماق قلبي . فنظر اليّ بوقار ، ولكنه لم يضف شيئا . كانت الدموع تترقرق في عينيه ... ذهبنا اذن الى القدس معا . وقد بدأ نهار الجمعة باكرا جدا ، لانه كان قد وعد بزيارة بعض الاصدقاء في نابلس ، قبل أن يتوجه الى القدس للصلاة . فتناولنا فطورا صباحيا نسبيا ، لان النهار سيكون طويلا . ونظر الي جدي لحظة ، ثم طرح علي سؤالا لم يكن على الاقل متوقعا :

« لماذا لم تلبس البزة العسكرية ؟ » .

لم يكن لدي أي داع لارتداء الزي العسكري . فالملك الذي كان ذوقه بسيطا جدا لم يسبق له أبدا أن طلب مني تغيير ملابسي (كان لا يحب ارتداء لباس المراسم والاحتفالات في يوم مخصص للصلاة) يضاف الى ذلك أنني لم أكن أملك سوى بذلة عسكرية واحدة . وقد أرتديتها في اليوم السابق بمناسبة تقديم سرب الطيارين الاول في القوات الجوية الاردنية . ولما كنت أريد تنظيفها ، فقد بعثت بها الى عمان مع ملابس أخرى شخصية قبل تناول طعام الفطور .

وأمرني جدي قائلا : « عليك بارتداء البزة العسكرية » .

فأسرعت اذن بارسال ساع لاستعادة الرداء بأسرع وقت ممكن . وغيرت ملابسي بعد قليل من أجل زيارة نابلس التي لم تستغرق وقتا طويلا . ولما كنا متقدمين في الوقت على البرنامج المحدد ، فقد استقبل جدي بعض الوجهاء المحليين .

كان بين الزوار الجنرال كوك الذي كان يسمى وقتئذ كوك باشا ، وهو قائد الفرقة الجديد في الجيش العربي . لم يكن قد مضى على وصوله الى الاردن الا وقت قليل . ولقد قبلت بسرور طلب الملك أن أقوم بدور المترجم بينهما ، لا سيما عندما قال له :

«انني فخور بحفيدي وغدا سوف أقلده شعار المرافق العسكري»

قليل اولئك الذين كانوا يعرفون أن غدا بالنسبة الى جدي سوف لن يأتي أبدا . كان هناك رجل يعرف ذلك . ولقد كنت الى جانب جدي عندما وصل خاضعا متواضعا يلتمس المقابلة . كان اسمه الدكتور موسى عبد الله الحسيني . كان من أقرباء المفتي ومن خريجي جامعات المانيا الغربية . لقد خرّ راكعا أمام الملك ثم أعرب له ، وعيناه تحدقان في عينيه ، عن ولائه ، متمنيا له طول العمر والسعادة .

وبعد ساعتين كان الملك قد قتل . أما الحسيني ، فقد كان تورطه في هذا الاغتيال من الخطورة بحيث تم اعدامه .

كانت حياتي دوما مرادفة للعزلة • وقد ساءلت نفسي مرارا منذ يوم الجمعـة الدمويـة هذه ، عمـا كانت تخفي هـذه الابتسامات المعسولة ، وهذه الانحناءات ، وهذه المجاهرة الحارة بالولاء • واني لاتساءل اليوم عما اذا كان جدي لم يتحسس باقتراب الخطر منه • كان الناس جميعا على الرحب والسعة في بيتـه في القدس • وقبل قليل من انطلاقنا نحو المسجد وصل جماعة مـن الاصحاب فكلمهم جدي عن اولئك الذين رفضوا مرافقته بعبارات كان فيها من معاني التنبؤ بالغيب ما كان سيجعلني لا أنقلها أبدا لـو لم يكن يوجـد الكثير من الشهود عليها •

قال : « لقد خافوا » • وأضاف : « ان الحياة والموت بالنسبة اليّ ليس لهما الا أهمية قليلة • واذا كان لا بـد من أن أموت ، فانـي أفضل أن أقتلَ برصاصة في الرأس • فهو أسرع أنواع الموت » •

وعندما نظر أحدهـم الـى الساعـة ، فنهض جـدي لان وقـت الانطلاق كان قـد حـان •

جلس أحدنا بجانب الاخر • وانطلقنا باتجـاه المسجـد • كانت كل التدابير الامنيـة قد اتخذت • وكـانت تحرس الطريـق قوات مجهزة بكامل أسلحتها • كان القلق باديـا علـى الوجوه • ومـا أن دخلنا المدينة القديمة ، حتى ترجلنا متجهيـن الى المسجد • كـان الحرس العسكري مـن كثـرة العدد الـى الحد الذي جعلنـي أسأل ضابطا : « ما الذي يجري ؟ هل يتعلق الامر بمسيرة جنائزية ؟ » •

كنت أسير وراء جدي باتجاه خفيف نحـو اليمين • لقـد تبادل بعض الكلمات في الطريق • ثم انتصب باب المسجد أمامنا تماما

قدم حرس الشرف التحية العسكرية •

وعندما دخل جدي المسجد استدار نحو قائد الحرس وسأله عمـا اذا كان لا يعتقد بأن المراسم العسكريـة غيـر مناسبة فـي مكان مقـدس •

وتقدم نحو المسجد ، وما كاد يخطو بضع خطوات ، حتى ظهـر رجل وراء الباب الكبير الـى اليمين : لم يكـن في حالـة طبيعية • وكان يمسك بسلاح • وقبل أن يستطيع أحد أن يبدي أية مقاومة ، أطلق النار • لم يره جدي أبدا • وكان على بعد مترين من القاتل • فأصيب برأسه ، فانهار وقد انتشرت عمامتـه علـى الارض • لم أتبين فورا ما قد حدث خلال لحظة كانت تبدو دهـرا كامـلا ، بقي القاتل جامدا غير قادر على الحركة •

الى جانب قدميّ ، كـان شكل أبيض مسجـى علـى الارض • وبقيت لا أفهم أبدا • وفجأة استدار الرجل وفرّ هاربا • فانطلقت في أثره في داخل المسجد • وفي الوقت الذي انطلق مسرعا ، رأيت من طرف عيني كل أصدقاء جدي يهربون في كـل اتجاه • انني ما زلت أراهم ، هؤلاء الكبراء وأعيان الدولة وهم يخفون وجوههم ويفرون كأنهم العجائز المذعورات • ان هذه الصورة سوف تبقـى محفورة الى الابد في ذاكرتي أكثر مـن صورة القاتل ، لانها الى حـد كبير البرهان الاكيد الدائم على ضعف الولاء السياسي وسرعة زواله •

كل ذلك حدث في جـزء من الثانية • وكـان القاتل يجـري في خط متعرج دون أن يعرف في أي اتجاه يفر • وكانت طلقـات الرصاص تلعلع في كل مكان داخل المسجد • وفجأة التفت ، بعد أن حوصر في زاوية ، فاستشففت وجهه وفمه الأدرد الخالي من الاسنان وكانت عيناه تلمعان والسلاح ما زال في يـده اليمنى عندما رأيتـه يسدده نحوي وقد أصبحت بما يشبـه مفعول التنويـم المغناطيسي ، لقـد حدثت الامور بسرعة : رأيت الدخـان وانطلقت الرصاصة فترنحت وقـد تزعزعت أركاني مـن جراء صدمـة كبـرى أصابت صدري • فتساءلت عما « اذا كان ذلك هـو الموت » • وانتظرت ولكـن لـم يحدث شيء لقـد حدثت معجـزة • فقـد ضربـت الرصاصة أحـد أوسمتي ثم ارتدت • لقد سلمت مـن الاذى بفضل جدي ولا شك ، لان البزة العسكريةَ قد أنقذت حياتي •

عندما سقط القاتـل بدوره كـان مستمـرا في اطـلاق النـار •••

فاستدرت عندها نحو جثة الملك ٠ لقد كنت مصابا بدوار في الرأس
عندما جثوت الى جانبها ولكن كنت بشكل خاص غاضبا مغتاظا ٠
فلم أفكر الا بشيء واحد وهو أن هؤلاء الرجال الذين أحبهم جدي
ورفع مقاماتهم أو ساعدهم ، قد هربوا ٠ وفككت أزرار ثوبه
بينما كان الطبيب يفحصه ٠ وكنت أرجو من صميم القلب أن يكون
ما زال ثمة أمل ٠ ولكن كان كل شيء قد انتهى ٠ فأعدنا تغطيته
بثوبه واستعملنا أحد البسط كمحفة لنقله الى المستشفى ٠ وكنت
أرغب في البقاء بالقرب منه ولكن الطبيب أقنعني بلطف بالعدول
عن ذلك ، ثم حقنني بابرة لتجديد نشاطي كما قال ٠ وبقيت لا
أفهم أبدا ماذا حدث الى أن حانت لحظة الذهاب الى المطار٠ عندها
فجأة أحسست بنفسي وحيدا ، وحيدا تماما !

انتحيت طوال الرحلة مكانا منعزلا بعض الشيء٠ في هذه اللحظة
التي اتصفت بالارتباك والتشوش اللذين لا حد لهما ، لم يكن
ليستطيع أحد أن يسرّي عني أو يشدد من عزيمتي أو يقوي من
معنوياتي ٠ أبدا لا أحد كان في مقدوره أن يفعل ذلك ٠٠٠ ولقد عمد
بعضهم من باب اللياقة المحضة الى الاعراب لي عن تعاطفهم
ومشاركتهم لي في مشاعري ٠

وقفت وحيدا على مدرّج المطار أتحسر بشدة على غياب والدي
الذي كان يتلقى العلاج في سويسرا ٠ لقد كان ذلك أول درس لي في
الشعور بالعزلة ٠

وقد كنت أحس أيضا بانحطاط شديد في القوى ٠ وعندما أفكر في
الحياة التي عشتها منذ هذا اليوم أدرك أن الثمن الذي كان علي
أن أدفعه لم يكن العمل الدائب الموصول الذي أحبه ولا متاعب
الصحة التي لاحقتني ، ولكنه ثمن أشد فداحة وأشق احتمالا ٠ لقد
كنت طوال مدة حياتي محاطا بطائفة لا حصر لها من الناس ، كنا
نتكلم معا ونضحك معا ، ولكن على مدار هذه السنين وفي قرارة
نفسي كنت وحيدا كالغريق ٠

لقد وقفت على مدرّج المطار وأنا ما أزال تائه الفكر من جراء
سرعة تتابع الاحداث ، عندما اقترب مني رجل يرتدي الزي
العسكري لسلاح الطيران ٠ كان وجهه صارما تكسوه الغضون
والتجاعيد وكان ذا أسنان قوية وشعر أحمر ٠ قال لي باستحياء ،
وبلهجة اسكتلندية ظاهرة :

« هل تريدون أن تأتوا معي يا مولاي ، فلسوف نقوم بالرحلة
معا ؟ » وقادني أمام طائرة ذات محركين من طراز دوف ، ودعاني
لان آخذ مكاني الى جانبه ٠٠ ثم أدار المحرك وأقلعنا الى عمان ٠

هذا الرجل هو في الواقع الرائد جوك دالجليش من ضباط السلاح
الجوي الملكي البريطاني ٠ ولم أتصور في هذا اليوم الذي طويت
فيه احدى صفحات التاريخ ، أن دالجليش سوف يعلمني قيادة
الطائرات بعد سنتين ، وأنه بعد ذلك بسبع سنين كان علينا جوك
وأنا وفي نفس الطائرة ، أن نقاتل دفاعا عن حياتنا ، طائرات
الميج السورية التابعة لعبد الناصر التي كانت تهاجمنا ٠

وفي اليوم التالي حملت سلاحا لاول مرة في حياتي ٠

لقد مات جدي في مدينته العزيزة القدس ٠ « أجمل مدن الدنيا »
كما كان يحلو له أن يقول ٠ لقد كان حبه الاول للحجاز الذي ولد فيه
وهو مساحة صحراوية تقع في شمالي اليمن تتوسطها مكة المكرمة ،
مهد الاسلام ، ومن الحجاز بدأ جدي مسيرته نحو الشمال في عهد
الثورة العربية الكبرى ٠

ثم مرت الايام واستقر في الشمال ، وحمل حكمه السلام
والاستقلال لما يسمى في يومنا هذا الاردن ٠ ونما حبه للقدس اذ
كان رجلا متدينا شديدا الورع والتقوى ٠ فهو لا يدخل أبدا أية
مدينة قبل أن يستعلم عن معناها الروحي ٠ ولكن القدس كانت
شيئا آخر : فالاماكن المقدسة فيها والاسوار القديمة والمآذن
المتعالية وأشجار الزيتون في الجسمانية ، والاسواق الضيقة التي

تحيط بدرب الالام كانت هي أيضا مهد الامل والايمان ٠ فعندما تشرق الشمس ، ويبترد الهواء فيها ، تغدو مدينة فريدة في نوعها ٠

والاردن أيضا بلاد جميلة تمتد فيها الصحاري الى ما لا نهاية ، ويسرح فيها البدو ٠ ولكن الجبال الواقعة في شمالها مغطاة بالغابات الخضراء حيث يجري نهر الاردن ، فهي أراضي خصبة صيفا وشتاء ٠ ان بلادي ذات جمال يستحوذ على العقل ، وتشع فيها بصمات قوية من معاني الخلود ٠ انها آخر ما تبقى من عالم الامس بما وسمت به من آثار تمثل ما كان قديما يشكل احدى الامبراطوريات العظمى ٠ انني أعبد كل شبر من الارض فيها ٠ وأحب عمان حيث ولدت في ١٤ تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٣٥ ، عمان التي شاهدتها تنمو بمضي السنين ٠ وانني لأشعر دوما بنفسي تفيض بالاعجاب والافتتان كلما عاودت مشاهدة مدينة البتراء القديمة ذات المعبر الضيق الذي كان يمكّن اثني عشر رجلا من النبطيين ، من مقاومة جيش بأكمله كما انني أحس بمشاعر الارتياح والدعة كلما وجدت نفسي تحت الخيام الرمادية لقبائل البادية ٠

لقد ارتقى العرش جلالة والدكم الملك طلال ، وأصبحتم تبعا لذلك وليا للعهد ٠٠٠٠

لقد رغب جدي في أن ألتحق بكلية هارو ، ولكنني أقنعته قبل وفاته بوقت قليل بان كلية فيكتوريا أكثر ملاءمة لي ٠ فقد كنت أشعر بطيب الاقامة في الاسكندرية التي أمضيت سنتين فيها ٠ ولقد قبل جدي بوجهة نظري ٠ ولكن استشهاده غيَّر الكثير من الامور ٠ غدا سفري الى مصر غير ذي موضوع بعد أن أصبحت وليا للعهد ، نظرا لموقفها العدائي وللتوتر المتزايد الذي كان قائما آنئذ بين بلدينا ٠ وهكذا كنت مضطرا أن أعدّل من مشروعاتي ٠

استمر والدي في الاقامة في أوروبا ، وما لم يعد الى الاردن لتقلد مسئولياته الجديدة كملك ، فقد كان من غير المستطاع بالنسبة الي أن أغادر البلاد ٠كانت التعليقات لا تتوقف والدسائس تحاك وقد عاد خالي الشريف ناصر من العراق حيث كان يقيم ، ومع ابن عمي الشريف زيد ، شكلنا نحن الثلاثة فريقا صغيرا ٠ وقمنا بزيارة كافة أرجاء البلاد ٠ وتحدثنا مع الآلاف من الناس ٠ وكنا نقضي الليل غالبا في البادية ٠ فكان ما أقدمنا عليه تجربة تستحق الاهتمام ٠

وأخيرا عاد والدي الى عمان وأصبح لزاما علي أن أسافر الى انكلترا للالتحاق بالمدرسة الجديدة التي كنت لا أعرف فيها أحدا باستثناء ابن عمي فيصل ٠ كان الطلاب يمارسون فيها لعبة الرجبي بدل كرة القدم ٠ وقد بدت لي اللغة الانكليزية فيها صعبة الاستيعاب ٠

كانت هارو المؤسسة العلمية المختارة ٠ ولا بد لي من الاعتراف بأنني كنت فيها غير سعيد في البداية ٠ ولم يكن ذلك عائدا تماما

الى خطأ شخصي مني فقد كان نطقي للغة الانكليزية أسوأ مما كنت أعتقد • اذ بعد سنتين قضيتهما في المدرسة الانكليزية في مصر وجدت هذه اللغة في هارو مختلفة تماما • كان التحدث بالانكليزية في الاسكندرية غنائيا وبطيئا ، أما في هارو فقد كان التحدث يجري بسرعة فائقة • وفي المرة الاولى التي رغب فيها الطلاب في توجيه الكلام الي لم أفهم نصف الكلمات التي قيلت •

وفي الصف كان الوضع أسوأ • فالصعوبات كانت من الشدة الى الحد الذي لم أتمكن فيه من حفظ دروسي على الوجه الصحيح • كانت اللغة العربية في الاسكندرية هي المادة الرئيسية ، أما الان فقد كان علي أن أركز جهدي على اللغة الانكليزية • في هارو كان التاريخ والادب الانكليزي المادتين الاكثر أهمية • ولقد استنفدت كل ما لدي من طاقة لأتمكن من الفهم والحفظ • اذ كان لا بد لي من بلوغ الغاية •

ولقد وجدت مشقة كبيرة من الناحية النفسية في التكيف مع هذا النوع من الحياة • اذ انفتح أمامي عالم جديد بتقاليده وعاداته وأنظمته • ما أعظم الفارق بين هارو وكلية فيكتوريا ! لقد كان علي أن أعيد تعلم كل شيء • فقد كنت كالحديث العهد بالجندية • ولكن هل يستطيع المرء أن يكون جنديا في السادسة عشرة من العمر ؟ • ومن الغريب أنني كنت أنضج وأرشد من رفاقي • فالتربية التي نشأت عليها ، والعالم الذي تدرجت حياتي فيه قد جعلا مني رجلا بين أولاد • وربما كان هذا هو السبب الذي من أجله لم أقبل فورا بين أصدقائي الجدد • على الاقل هذا ما أحسست به ويخيل الي أنهم اعتبروني تلميذا مثيرا للفضول والاستغراب فقد كنت دوما قابعا في زاويتي مع ابن عمي ، في حالة من انقباض الصدر بعض الشيء • كنا نحن الاثنان الوحيدين اللذين لم يطلق عليهما ألقاب • ذلك لان فتيان المدارس الخاصة في بريطانيا يراعون منتهى الدقة فيما يختص بشئون البروتوكول ، أكثر منا نحن نزلاء القصر في عمان • وبدلا أن ينادوني باسمي ، حسين

فقط ، كانوا يفضاون غالبا ألا يكلموني على الاطلاق •

حاولت أن أندمج بهم ، أن أقيم علاقات شخصية معهم ، أن أكون مستريح النفس منشرح الصدر حقا • أثناء تناول الطعام كنت أبحث عن ابتسامة ودية بين العديد من الوجوه التي كانت تحيط بي • وحاولت أن أفهم ما يمكن أن يباعد بيننا • كانت علائم الثقة بالنفس تفيض بها وجوههم وكان لكل منهم حلقة من الاصدقاء خاصة به ، وقد وجدتهم في الواقع يتكلفون التباهي ومجاراة الافانين الشائعة بعض الشيء • اقتصرت أحاديثي معهم طوال أسابيع طويلة على كلمتي (صباح الخير) و (مساء الخير) وقد كنت أستشعر بسعادة بالغة عندما كانوا يرتضون الرد علي •

حتى الطعام كان مختلفا ، ومع ذلك فقد كان أفضل مما يقدم في المدارس الاخرى • ولكنني افتقدت الاطعمة الاردنية وكذلك الشاي الاصلي والقهوة الاصلية • فقد كانت بريطانيا العظمى آنئذ خاضعة لنظام التقنين ، وكان لا بد من البطاقات للحصول على الحلوى ، ولم يكن من حقنا أن ننال الا بيضة واحدة في الاسبوع • وقد اعتدت على ذلك شيئا فشيئا ، وأصبحت أتذوق الطريقة الانكليزية في طهو الطعام ، مهما بدا ذلك غريبا • وكنت أقدر المواعيد الدقيقة المنتظمة في تقديم الوجبات ، بدءا بالفطور ، ثم بالوجبة الخفيفة في الساعة الحادية عشرة ، ثم بطعام الغداء ، فالشاي ، وطعام العشاء • وجاء يوم لم يعد الدراق مقننا ، فتراكض عليه الناس جميعا • ومنذ ذلك الوقت أصبحت كلما أكل الدراق ، أتذكر العلب المحفوظة منه التي كنت آخذها الى غرفتي لآكلها في المساء •

ورويدا رويدا بدأت الامور تتطور دون أن أشعر بها • فتارة كنت أخلو الى نفسي ، وتارة كنت أجد نفسي بين طائفة من الاصدقاء • وجعلت أمارس الالعاب الرياضية بازدياد مستمر وكذلك لعبة الرجبي التي اكتشفتها بعد بضعة أسابيع •

وانني لأذكر الفرح الذي غمرني في اليوم الذي قام فيه فتى بقذف الكرة الي وهو يصيح : « هيا يا حسين لقد حان دورك » ٠

لقد كان لي غرفة صغيرة أسوة بجميع الطلاب ٠ وعلى الحائط حفرت الاحرف الاولى من اسمي ٠ كانت حجرة غريبة ذات أغرب سرير عرفته فهو مصنوع من الحبال والقماش لكي يدمج في الحائط ، الامر الذي كان يمكنني من التصرف بكامل الغرفة خصيصا للعمل فحسب ٠ وكان عندي كبقية رفاقي ، مقعد وخزانة للثياب وطاولة صغيرة ٠ كان هنالك فارق واحد : وهو بساط صغير جئت به من الاردن ٠

كنت أنهض كل صباح في الساعة السابعة فأستحم برذاذ من الماء البارد ، الذي لا أستحسنه بنوع خاص ، ثم أرتب غرفتي وأصبغ حذائي وأتأكد من أن بنطالي مكوي (كنت أضعه كل مساء تحت الفراش) ٠ وكنت أحب النظام دون أن أكون ذا ميل مفرط في أي شيء ٠ فألمع حذائي وأجد متعة في انجاز عملي باتقان مطلق ٠ وانني أعتقد بأنني كنت هنالك أعيش بصورة لاشعورية حياة كنت دوما أصبو اليها كرجل مستقل يقود سفينته على طريقته الخاصة ٠ انني أحب المنافسة حبا شديدا لا سيما عندما تكون النتيجة متعلقة بي ٠ وبالاضافة الى البرنامج المدرسي فقد تسجلت في الصف الخاص باللغة العربية وكنت أيضا أمارس رياضة المبارزة بالسيف لان جدي قد شجعني على المضي في ممارسة هذه الرياضة ٠

ولكن الذي كنت أستحسنه فوق كل شيء في هارو ، فهو الحياة خارج المدرسة ٠ فقد أهداني صديق لوالدي سيارة من طراز روفر ذات لون أزرق سماوي ٠ لقد تعلمت قيادة السيارات في عمان كما سبق لي أن ذكرت لك ، ولكنني كنت أقود سيارات الآخرين ٠ أما الآن على الاقل فلي سيارتي الخاصة ٠ وكان أول شيء فعلته هو التقدم للفحص للحصول على اجازة قيادة ٠ قد يكون هذا مضحكا

ولكنني لا أستطيع اجراء الفحص في عمان لعدم وجود من يستطيع تحمل مسئولية ذلك ٠ لهذا كان لا بد من أن أذهب الى انكلترا لتقديم فحص الاجازة التي تمكنني من قيادة سيارة في عمان ٠ وعندما عدت الى الاردن فيما بعد بصفتي ملكا كان لدي اجازة قيادة بريطانية ٠

لم أحصل على اذن بايواء سيارتي في المدرسة ٠ وكان النظام يقضي بذلك ، فقام سفير الاردن بايجاد مأوى لسيارتي بالقرب من هارو في سدبوري على مسافة كيلو متر ونصف من المدرسة ٠

وهناك التقيت بموريس رينور الذي يعمل في الاردن منذ ذلك الحين ٠ كانت السيارة غرام حياته الاكبر ٠ فقام بيننا تعاطف فوري ٠ وبالطبع لم تكن الحياة في هارو مجرد قيادة سيارات جميلة ، أو أكل الدراق المحفوظ في علب ! فقد كنا نشق على أنفسنا في العمل ٠ أما ما كنت أستحسنه فوق كل شيء ، فقد كان النظام ٠ فعلى الرغم من صرامته ، كان الفتى ابن الستة عشر عاما يتمتع بحرية واسعة وببعض الامتيازات ، ولكن لا أحد كان يسيء استخدام ذلك ٠ انني جد ميال الى هذا النمط من التربية الذي يمكّن الطلاب من أن يفرضوا على أنفسهم نظامهم الخاص والذي يتيح لهم الفرصة لسلوك مسلك الكبار البالغين ٠ فالطالب الذي يعمل بشكل جدي في هارو والذي يسجل نجاحا ملحوظا ، يستطيع أن يتمتع بأوقات فراغه كما يرغب ويشتهي ٠ وانني لأرجو أن تؤمن بأنني كنت أعرف كيف أستعمل الاوقات التي أكون فيها حرا ٠

وعلى مدار الاشهر ، كنت أستقبل عددا متزايدا من الزوار ٠ وكان معظمهم من الدبلوماسيين ٠ فقد كنت الوارث للعرش ٠ كما أن جمعا كبيرا من أعضاء الحكومة الاردنية قد جاء لزيارتي كلما كان أي منهم في رحلة الى انكلترا ٠ فكنت بذلك مطلعا على أبسط التطورات التي كانت تطرأ على حالة والدي الصحية ٠ وكنت في

البداية كبير الامل في تحسن صحته ٠

ولكن كان علي بسرعة أن أقلص من أماني الطموحة ٠ فقد كانت التحسنات الطفيفة في صحته تتلوها نكسات خطيرة ٠ وكان هنالك انطباع مبهم يحملني على الشعور بأن مهاما جساما سوف تدعوني الى بلادي في وقت أبكر مما هو متوقع ٠ وانتهت (مهنتي كطالب) لتفسح المكان لمهنة أخرى تتناسب بصعوبة مع واقع كوني ما زلت قاصرا : ألا وهي مهنتي كملك للاردن ٠ لأنه ، كما سبق لي أن ذكرت لك ، ليس ثمة مشكلة بالنسبة الي من هذه الناحية ٠ فلأن أكون ملكا هو مهنة كغيرها شريطة أن يحب المرء عمله وأن يكرس نفسه بكليته له ويقفها عليه مع سائر التضحيات التي يمكن أن يتطلبها هذا المنصب ٠

لقد فكرتم آنئذ بأن حكم جلالة والدكم سيطول ٠٠٠

في سن الحادية والاربعين ، كان والدي قد منح بلاده كل ما يملك ٠ فقد ولد في مكة المكرمة ، وأكمل علومه في ساند هيرست ثم التحق بالجيش العربي الاردني كضابط احتياط ٠ تقلد منصب قاض في محكمة العشائر بعض الوقت ، وتولى مرة أعمال نائب الملك أثناء غياب جدي ٠ ما أعظم سعادتنا لو كانت حالة والدي الصحية قد أتاحت له أن يحكم مدة أطول ٠ ولكن علامات خفية كانت تقلقني قلقا شديدا ٠ ولقد استدعتني أسرتي في أحد الايام للانضمام اليها ، ولم يكن الامر يتعلق سوى بصحة والدي ، وكنت أعرف أنه اذا ما وقع له أي مكروه ، فلسوف أضطر الى العودة ٠ وكنت أخشى هذه اللحظة ٠ لقد كنت أحب أسرتي وأحب بلادي ، ولكن كان لدي انطباع بأنني ما زلت غير قادر على تحمل مسئوليات حكم الاردن وخدمة شعبي ٠

يضاف الى ذلك أن تصرفات عدد كبير من الاشخاص الذين شاهدتهم يوم وفاة جدي قد أصابتني بخيبة أمل شديدة ٠ فقد كنت أرغب في حياة طبيعية قبل فوات الاوان ٠

انتهت السنة الدراسية في هارو ، وعلى الرغم من أنني استمتعت بها كثيرا فقد كنت في حاجة ماسة الى الاجازة ٠

فذهبت فورا الى لوزان وأقمت في فندق بوريفاج على ضفاف بحيرة ليمان حيث وجدت والدتي التي كانت تتعالج وكذلك أخوي وشقيقتي ٠ كانت الايام الاولى بهيجة رغيدة ، وكان صيف عام ١٩٥٢ جميلا لطيفا وهادئا في هذا الركن الصغير من سويسرا التي يخضع فيها كل شيء لنظام دقيق والتي كنت فيها على أحسن حال من الراحة والدعة ٠

وفي صباح الثاني عشر من آب (أغسطس) ، ذهبت والدتي وجميع أفراد الاسرة للقيام ببعض المشتريات في ساحة القديس فرانسوا . كنت وحدي في غرفتي أمتع ناظري بمشاهدة الاوز الطائر على البحيرة وكانت تسعى نحو الميناء سفينة بيضاء اللون . قرع الباب ، فاذا بخادم فتى يقدم لي مظروفا موضوعا على صينية من الفضة . لم أكن في حاجة لفتحه لكي أفهم أن (هارو) لم تعد بعد الان بالنسبة اليّ الا ذكرى . لقد كان يكفي أن ألقي نظرة على المظروف . فقد كان موجها الى « حضرة صاحب الجلالة الملك حسين » . للمرة الاولى في حياتي أنادى « بصاحب الجلالة » كجدي ... ولم أكن قد بلغت السابعة عشر عاما .

ماذا كان أول رد فعل لكم ؟

لا شيء . لقد بقيت هادئا جدا .

كانت الساعة قد بلغت التاسعة . ولم يكن الحر قد غلف المدينة بعد . فضضت الغلاف وأنا أتنهد . كانت الرسالة صادرة من رئيس الوزراء . وبأسلوب دبلوماسي نموذجي ، وبلهجة تتسم بالفتور والادب ، أبلغني أنه يأسف لاعلامي أن والدي قد تنازل عن العرش وأنني قد غدوت منذ ذلك الحين ملكا للاردن . وأن القرار الذي أنبأني به قد أقره مجلسا النواب والاعيان وأن عودتي قد غدت مرجوة وفي أقرب فرصة . كانت هذه هي اللحظة التي كنت أخشاها إن أصبح أبدا طالبا بعد الآن . فهل أتمكن يوما من أن أعيش حياة طبيعية وأن أكوّن لنفسي حياتي الخاصة ؟

لقد كافح والدي بشجاعة للتغلب على مرضه ليس لمصلحته فحسب ، ولكن بشكل خاص لانه يعرف أن بلاده في حاجة اليه . ولقد انتقل خيالي في بضع لحظات الى آلاف الكيلومترات نحو الشرق حيث كان والدي يناضل بعزيمة اليائس لاتمام مهمته على خير وجه في عمان ، العاصمة التي تختلف كثيرا عن سويسرا التي أقيم فيها ، العاصمة السمراء بدلا من أن تكون خضراء ، العاصمة الثاوية على الجبال مع غبار شوارعها ، وجموعها ذوي الازياء المتباينة الالوان . لقد تخيلت بسهولة الاضطراب الذي كان سائدا في قصر بسمان . وفجأة فهمت بأنه لا حق لي بأن أتحسر على نفسي في الوقت الذي كان والدي يعاني من العذاب . ومن الصعب على المرء أن يتفهم من بعيد الوقائع المحزنة وكآبة الاحداث التي مرت بالامس . ولم أعرف ما جرى فعلا في الحادي عشر من آب ، الا فيما بعد . لقد كنت مقتنعا ، وكنا نعرف ذلك جميعا ، بأن حالة والدي الصحية لا تمكنه من الحكم مدة أطول . فالمرض عنده قد

اشتد طوال السنة الماضية ، ولكن والدتي وأنا ، على الرغم من ذلك ، كنا نأمل في شفاء يتحقق بأعجوبة · كانت شعبيته عظيمة جدا · ولكنه قبل أن يعتلي العرش ، حينما كان يعلم أن مستقبله غامض الملامح · بعث ببرقية مؤثرة الى رئيس الوزراء قال له فيها بشكل خاص :

« انني أعود الى بلادي لاضع نفسي باخلاص تحت تصرفكم » ·

في صباح الحادي عشر من آب (أغسطس) عقد مجلسا النواب والاعيان جلسة سرية استغرقت عشر ساعات · وكان الملك في القصر · وقد أعلن رئيس الوزراء السيد توفيق أبو الهدى في هذه الجلسة ، بوقار الرجل الذي يشعر بخطورة الموقف ، أن والدي لم يعد في مقدوره ممارسة سلطاته الدستورية ·

« بالطبع انه ليشق على نفسي كثيرا أن أقول ذلك ، ولكنني أخشى أن لا يشفى جلالته من مرضه في موعد قريب » ·

ثم عرض على أعضاء المجلس تقريرا طبيا عن حالة والدي الصحية ، أعده قبل شهرين طبيبان أجنبيان ثم تقارير أخرى كتبها ثلاثة أطباء أردنيون ·

يتضمن دستورنا مادة تنص على أنه في حالة عدم تمكن الملك من الحكم لاسباب مرضية ، يحق لمجلس الوزراء دعوة البرلمان الى الاجتماع · فاذا ثبت المرض وعدم الاهلية فللبرلمان الحق في أن يخلع الملك وأن ينقل امتيازاته الملكية الى وريثه · وهذا ما حدث · فقد اتخذ القرار ، اذ قضى تصويت أقرته الاكثرية بوضع حد لحكم والدي · وهكذا بعد اقامة قصيرة دامت بضعة أشهر في هارو · غدوت ملكا للاردن ·

ولما كانت حداثة سني لا تمكنني من ممارسة سلطاتي الدستورية فقد شكل مجلس وصاية من ثلاثة أشخاص خلال فترة غيابي ·

كان علي اذن أن أعود الى عمان على جناح السرعة ·

وضعت المظروف في جيبي ، وبعد بضع دقائق ، كنت في ساحة القديس فرانسوا في قلب المدينة · فوجدت والدتي بعد بضع لحظات ·

قلت لها : « لقد استلمت هذه البرقية » · وسلمتها اليها · فوضعت ذراعها على كتفي دون أن تتفوه بشيء ، وعدنا الى الفندق · جلست وراء مكتب من طراز لويس السادس عشر ، أخط رسالة لرئيس الوزراء أعلمه فيها بأنني سوف أعود فورا الى الاردن ، وأنني سوف يسعدني ويشرفني أن أخدم بلادي والقضية العربية · وبعد بضعة أيام كنا قد أعددنا حقائبنا ورجعنا الى عمان ·

كانت عودتي الى الاردن بالطائرة · وكان الجو حارا بعد ظهر هذا اليوم · قدم لاستقبالي جمع غفير من الشخصيات · استعرضت حرس الشرف ثم صافحت حوالي العشرين من أعيان البلاد وكبرائها · وكان بينهم كلوب باشا · قائد الجيش العربي الاردني · لقد أحدث لي هذا الاستقبال الرسمي الودي الحار صدمة نفسية بمراسيمه الاحتفالية « لقد فكرت بأنني الان وقد أصبحت ملكا ، فلسوف لن يقترب الناس مني أبدا بدون هذه المراسم » · وغادرنا المطار الذي كان تحت المراقبة الشديدة · واتخذت السيارة وجهتها نحو عمان · ومنذ أن اجتزنا الضواحي ، صدمت أيضا وأنا أدخل المدينة · فقد شكلت قوات الجيش العربي حاجزا على طول الشوارع · وفجأة وجدت نفسي وسط جمهور يتأجج حماسة وهو يصيح ويغني ويصرخ : « عاش الحسين » « مرحبا بالحسين » · دون أن يكترث الا قليلا بالمراسم وبالمقتضيات الدبلوماسية · حتى أن بعضهم حاول ايقاف السيارة بالصعود على مراقيها الجانبية · ولما عجزت قوات الجيش عن احتواء الجمهور ، انضمت الى هذه الجموع الحاشدة المبتهجة : كان الاستقبال خياليا بضخامته وحرارته · لقد كانت أوربا وسويسرا الهادئة بعيدتين جدا عن

هذه البيوت الحجرية وعن هذه البوادي التي لا نهاية لها ٠ لقد كنت في الطائرة أشعر بأنني وحيد مكدود القوى منخفض المعنويات ٠ ولكن مخاوفي جميعها قد تلاشت وأنا في طريقي الى القصر ٠ لقد سحرني هذا الجمهور وشدد من عزيمتي استقباله المؤثر ٠ وفي هذا اليوم أدركت أن الشعب لم يكن يعرب عن حماسته وفرحته فحسب ، وانما كان يرغب بشكل خاص أن يفصح عن مشاعر الود والتعاطف ، وأن يجزل مظاهر التشجيع لملك شاب في السابعة عشرة من العمر ٠ لقد كانت تجربة تلفت النظر بغرابتها وطرافتها ، تجربة ممزوجة بالفرح والانفعال النفسي البهيج ٠

كان رئيس الوزراء الى جانبي هادئا غير منفعل ٠ ولقد قلت له قبل أن نبلغ القصر :

« لا يستطيع المرء أن يحظى بهذا الاستقبال دون أن يعاهد نفسه ويعاهد الله على أن يبذل خير ما في نفسه لكي يستأهل هذه الثقة وهذا الايمان ٠ وانني لآمل أن يدرك هؤلاء الرجال وهؤلاء النساء انني سوف أنجز ما تعهدت به » ٠

لقد أرهقتني رحلتي جسميا ونفسيا ٠ في هذه الليلة استسلمت للنوم كرجل غمرته السعادة ٠ وفي صباح اليوم التالي نهضت موفور النشاط والقوة ومصمما على مواجهة أي عائق بحزم وعزم وفعالية ٠

لم أكن أعرف المهام التي ستوكل الي لانه كان علي أن أبلغ الثامنة عشرة من العمر ليتسنى لي ممارسة سلطاتي الدستورية ٠ والى أن يحين ذلك الوقت كان مجلس الوصاية ينوب عني في هذا الامر ٠ فقررت أن أنتهز هذه الفرصة لأستزيد من الاطلاع على أمور شعبي وأستكمل السيطرة على الصعوبات الفنية لحياتي الجديدة ٠

فقمت برحلة استغرقت ثلاثة أسابيع لأستوفي التعرف على

رعاياي٠ فزرت أهم المدن والقرى وقابلت آلاف الاردنيين ، وذهبت سواء بالطائرة أو بالسيارة ، الى أقصى أنحاء البلاد ٠ لقد كان أمرا يبعث على الفرح والابتهاج أن أرى مدى الاخلاص الذي كان يكنه الشعب لي ٠ ولقد حضرت مرة حفلة غداء قدم فيه المنسف في أحد مضارب البدو ٠ كان هنالك مئات من الرجال والنساء يرقصون ويغنون ويطلقون الرصاص في الهواء ابتهاجا ٠ وقد حملوني على مشاركتهم في احتفالهم ٠ ووقفت أمام بيوت الشعر السمراء التي كانت تبرز من الصحراء ، وقلت في نفسي عندها بأن البلاد سوف تكون بخير ما وجد في الاردن أمثال هؤلاء الرجال ٠

انتهت هذه الرحلة الممتازة وياللاسف ٠ ماذا أصنع ؟ انني رجل يشعر بالتعب ولا يتأثر به ٠ انني لا أستطيع تحمل البطالة والتفرغ ٠ وهكذا سنحت لي فرصة لتحقيق حلم قديم ٠

في صباح أحد الايام زارني خالي الشريف ناصر ورئيس الوزراء بدأنا نتحدث عن العادي من الامور ٠ وأحسست أنهما يرغبان في مفاتحتي بأمر جدي ٠ قدم لنا الخدم الشاي بالنعناع والتفت خالي عندئذ ، وهو رجل محبوب لطيف المعشر نبيه ذو فطانة وقال لي :

« هل تعتقدون يا صاحب الجلالة أنكم اذا ما بقيتم في القصر ، ستستفيدون من وقتكم فائدة أكثر ؟ » ٠

فأجبته : هل لديك اقتراح تعرضه علي ٠

فرد قائلا : بالتأكيد ٠ وانني أعرف بأن والدكم سوف يقدر اقتراحي حق قدره وكذلك جدكم نفسه فقد كان سيتمناه لو بقي على قيد الحياة ٠

وأدركت فجأة اقتراح خالي وقلبي يثب طربا ٠ فقلت له : انك تريد أن تتحدث عن ساند هيرست ٠

فقال لي مؤكدا : نعم ان أباكم قد دخل هذه الاكاديمية وانني

أذكر قوله بأن ساند هيرست أحسن مدرسة حربية في العالم وخير مكان يختاره الرجل ليتعلم مهنته كملك » ٠

وتذكرت عندها الكلمات التي قالها لي والدي قبـل ذلك ببضـع سنين ، عندما كنت ألعب بجنود من الرصاص أمامه ٠

« لا يستطيع المرء القيادة وادارة الامور الا بالنظام ٠ ولا يوجـد مكان في العالم يحسن تعليم ذلك أفضل من ساند هيرست » ٠

وهكذا سنحت لي فرصة فريدة استثنائية ! انني أود أن أعطي خير ما في نفسي وأرغب في أن أتقدم أمام شعبي وأنـا واثق تمـام الثقة بنفسي وأن أرتقي العرش مستوفيا لافضل الصفات والشروط الممكنة ٠ لقد كنت ملكا حقا ولكنني كنت أبغي أيضا تمديد فترة شباب ، يفر مني ، بضع سنين أخرى ٠ ان هذه الشهور القليلة في ساند هيرست ستكون بمثابة فسحة من الوقت أو راحة وقتية قبل عقد العمل الطويل الامد الذي سوف أوقعه مع الاردن عندمـا أبلـغ الثامنـة عشرة مـن العمـر ٠

اتصل كل من رئيس الوزراء والجنرال كلـوب بوزيـر الدفـاع البريطاني للتصريح لـي بمتابعـة تدريب خاص عاجل لمدة ستة أشهـر ٠ وهكذا بعـد شهر مـن استلامي ابرقيـة فنـدق بوريفاج استبدلت لقبي كملك بآخر، هو التلميذ الضابط حسين بالاكاديمية الملكيـة العسكريـة في سانـد هيرست ٠ كـان ذلـك في ١٩ أيلـول (سبتمبر) من عام ١٩٥٢ ، وقـد ألحقت بسريـة انكيرمان أولـد كوليدج غرفـة رقـم ١٠٩ ٠

بماذا عادت عليكم اقامتكم في أشهـر أكاديمية عسكريـة بريطانيـة ؟ ٠

كانت ساند هيرست بلا أدنى شك تجربة غير عاديـة لأسباب شتى فقد ساهم هـذا الفصل الدراسي القصير الامد الى حـد كبير مساهمة فعالة في تكويني الفكري واعدادي الشخصي كرجل ٠ لقـد كانت هارو وساند هيرست تجربتين متباينتين تماما ٠ كنت فـي الاولى أعتبر فتى ٠ أما في الثانية فقد عوملت كرجل ٠ لقد عهد الي بمسئوليات ٠ وكانوا يستطيعون الاعتماد علي ٠ صحيح أنه كـان لا بد من العمل الدائب الموصول وكان على المرء أن يبذل من نفسه ما استطاع بدون حساب ولكـن دروسي كانت تستهـوي النفس ٠ فنحن العرب من جنس يحب الاحتكاك بواقع الحياة القاسي، ويحب بذل الجهد واستنفاد ما في الوسع ٠ لذلك كنت كعربـي أحب هذه الحياة كتلميذ ضابط ، وكـان يستهويني هـذا النظـام العسكري والجو الدراسي في ساند هيرست ٠

في اليوم الاول ، رحب بي القائد وقدم لـي بيانا سريعا بتقاليد المدرسة ، وتمنى لي أن أتمكن من استخلاص خير نفع وأحسنه ، ثم أحدّ النظر في عيني وقال لي :

« أود أن أمنحكـم امكانيـة الاختيار ٠ ان سانـد هيرست مكان شاق قاس جدا فالرجال الذين يفدون اليها مجبرون على أن يشتدوا في العمل وأن يبذلوا ما في وسعهم من جهد ، أكثر من أي مكان آخر ٠ فالحياة فيها شاقة متعبة ٠ فهي تتطلب احتياطيا هائـلا من القوة وكثيرا من ضبط النفس ٠ فهل تعتقدون أنكم قادرون على احتمال هذه الشروط أم أنكم تفضلون اختيار معاملة تفضيلية ؟ » ٠

وأضـاف :

« انكم اذا ما اخترتم البرنامـج الذي يتطلب المزيد مـن المشقة والتعب ، فلسوف تعاملون مثل التلاميذ الاخرين » ٠

وبديهي أنني اخترت الحل الاصعب لانني كنت مصمما على أن أستخلص منه أعظم الفوائد ٠ ان مهنتي سوف أتعلمها هكذا ، عن أشـق طريــق وأقسـاه ».

ان برنامجي العاجل قد جعلني أقوم بمناورات ومسيرات تزيد عما هو مقرر عادة ٠ وقد اشتركت في حمـلات ليلية ، وفي تدريبات علـى استعمال الاسلحة الحديثـة ٠ وبذلت كل مـا في وسعي لفهم الاساسي من العلم العسكري ٠

بعد شهرين من دخولي الاكاديمية ، استدعاني القائد من جديد فأقلقني هذا الاستدعاء لانني كنت راضيا عن عملي وعن النتائج التي حققتها والتي أعتقد أنها كانت على الاقل مرضية ٠ وتساءلت عما يمكن أن أكون قد فعلته لكي أقابلـه للمرة الثانية ، وهو حدث نادر جدا في حياة طالب في ساند هيرست ٠

فتقدمت اذن اليه وأنـا متوتـر الاعصاب بعض الشيء ٠ وهـذا طبيعي ٠ وحييته باحترام ٠ فنظر الي بضع لحظات دون أن يتفوه بكلمة ، ثم قال لي فجأة :

« يا حسين ، انني جد راض عـن عملك ، ولقـد تتبعت تطورك الدراسي ٠ وانني أعتقد أن الوقت قد حان لترفيع درجتك ، فاذا ما واظبت بهذا الشكـل فلسوف تجري ترقيتك الى رتبة ضابـط بعد شهريـن ٠ استمـر » ٠

ضاعفت من جهودي ، لانني لم أنس أن رفاقي اذا كـان عليهم أن يصبحوا ضباطا أو حتى جنرالات ، فـان قدري قـد هيأني لان أصبح بعد قليل قائدا أعلى لسائر القوات المسلحة في بلادي ٠ لذلك فان من واجبي أن أطلع على كل الموضوعات العسكرية لكـي أحوز

دون (تأثير) ضباط الجيش العربي الاردني علي بسهولة ٠

لقد كنت أعرف أيضا أن النظام العسكري في ساند هيرست لم يكن شيئا بالقياس الى النظام الذاتي الذي يتوجب علي اكتسابه اذا ما أردت فيما بعد أن أستقر فوق عرشي ٠

ولعل المظهر الذي تجدر ملاحظته في أكاديمية كساند هيرست ، هو أنه اذا كان النظام فيهـا دقيقا وصارما والعمـل شاقا ، فـان الخدمة فيها عندما تنتهـي ، تتلاشـى معهـا الهمـوم والمشاغل جميعــا ٠

عندمـا يعرف موعـد الاجازات ، يكـون لدينـا فتـرة فراغ لعدة ساعات وكانـت بعض اجازاتـي محض وهميـة ، لانهـم كانـوا يعرضون علي خلالها امكانية التخصص في موضوعات أخرى ٠ ومن حين الى آخر ، كانت النتيجة غير متوقعـة ٠ مثـلا اتصالي الاول بمحكمة جنايات ٠٠٠٠

كان الكثير مـن الوقار يخيم علـى هـذه الجلسـة التي تابعتها باهتمام بالغ على يسار قاض صارم عابس ، في أولد بيلي ٠ كان يلتفت الي بلطف من وقت الى آخر ، ليشرح لي النقطة التي كانت تبدو معقدة ٠ وكانت الامور تسير بصورة عادية ، ثم اشتد الجو في الجلسة حدة ، خاصة لان القضيـة التي كنـا نبحثها كانت مؤثرة بشكل خاص ٠ وساد صمت عميق ٠ وكان جميع الحضور ينتظرون قرار المحكمة ٠ وفجـأة رن في القاعـة صوت مخنـوق لجرس ساعة ذات منبّـه ٠

انني ما زلت أتصور وجه القاضي ٠ كان أحمر من الارتباك تحت شعره المستعار ، وقد رفـع المحامون أعينا تنم عـن استهوال مـا حدث ثـم رشقوني بنظرة بـاردة ، فقلت متلعثمـا بعض كلمـات الاعتذار للقاضي وأنا أحاول ايقاف ساعتي التي كانت احدى أجمل ما أملك من متاع ٠ ثم بعد عودة الهدوء ، نظرت خلسة الى ساعتي

التي كنت أضبطها على موعد النهوض من النوم · كانت تشير الى الحادية عشرة والنصف · وما من شك في أن بعض الطلاب الذين كانوا يعرفون بأن علي أن أذهب الى محكمة الجنايات ، قد لعبوا معي هذه اللعبة الماكرة ، بينما كنت أستحم · وطافت في ذهني باستمرار فكرة الاخذ بالثأر · وحانت الفرصة بعد فترة وجيزة ·

يملك كل تلميذ في ساند هيرست دراجة لتسهيل تنقلاته من مكان دراسته الى آخر ·، وكان علي يومئذ أن أشهد محاضرة حول العلوم العسكرية ، عندما لاحظت أن اطار دراجتي مفرغ الهواء · لا ريب أن أحدا قد فعل ذلك ، الامر الذي حملني على الذهاب الى المدرج راكضا · فبلغته متأخرا ·

حاولت بعد انتهاء المحاضرة أن أكتشف المذنب ولكن دون جدوى فانتظرت حتى أقبل الليل ، ثم خرجت من غرفتي سرا على أطراف أصابع رجلي ، وتحت جنح الظلام ، أفرغت اطارات عشر دراجات من هوائها ، بعد أن احتطت لدراجتي ، فأودعتها وراء غرفة الحراسة · ولعلهم شكوا في أمري · ولكن أحدا منهم لا يملك أي برهان ·

لقد وقع علي قصاص الحجز مرة واحدة ، فاستطعت أن أتدبر الامر لرفع القصاص ، بأن اعترفت بخطيئة لم أرتكبها !

وقعت الحادثة في يوم جمعة ليلا · كنت غائبا عن ساند هيرست لانني كنت أحتفل بعيد ميلادي ، وأمضيت الليلة في لندن · كان ذلك في نهاية الدورة ، وكان الطلاب يحتفلون بهذا الحدث ، بالتظاهر بخوض معركة · حرك طالب ، اما عرضا ، أو متعمدا ، جهاز انذار الحرائق ، فأثار ذلك فوضى لا توصف · فقد وصل رجال الاطفاء خلال بضع دقائق الى مكان الحادث · كانوا على استعداد للعمل وهم يعتمرون الخوذات ويلبسون الجزمات · ولم ينقص سوى النار ! كان ذلك أكبر فضيحة عرفتها ساند هيرست

منذ مدة طويلة · وكان القائد شاحب اللون من الغضب · عدت اذن في ساعة متأخرة من الليل بعد أن وقعت على ورقة الوصول · كان رجال الاطفاء قد انصرفوا وكانت ساند هيرست مستسلمة للرقاد · كل شيء كان يبدو طبيعيا · لم يكن لدي أي شعور مسبق بما كان ينتظرنا ·

بدأ العرض العسكري الصباحي ، تلاه طعام الافطار ، ثم الدروس الاولى · كل ذلك حدث على التوالي · وكان الجو متوترا في يوم السبت هذا · كان على غالبيتنا أن تذهب في اجازة · وقد أعد كل فرد منا مشروعاته الخاصة · عند الظهر فسدت الامور · فقد أنبئنا بأن القائد سوف يستعرض طلاب المدرسة في الساعة الواحدة بعد الظهر · كان وجهه صارما · وعندها وجه الينا هذا السؤال :

« على من حرك جهاز الانذار أن يتقدم خطوة الى الامام » ·

ولكن كلماته استقبلت بالصمت · لم يتحرك أحد · فانتظر قليلا كان يبدو أن الغضب قد استبد به ، ولكنه كان يحاول أن يتمالك نفسه ، ثم عاود القول :

« على من حرك جهاز الانذار أن يتقدم خطوة الى الامام » ·
ولكن الجواب لم يأت · عندئذ قال :

« حسن · تلغى جميع الاجازات · انكم محتجزون في المبنى هذا المساء الى أن يكشف المذنب نفسه · انصرفوا أيها السادة » ·

لم يعرف المذنب أبدا · ولم يدل أحد على نفسه · فكرت بأن هذا الموقف ظالم بالنسبة لامثالي من الطلاب الذين كانوا غائبين عن الكلية أثناء وقوع الحادث ·، ولا يمكن في أية حال أن يعتبروا مسئولين ·

في صباح الاحد كنامازلنا ننتظر · وعندما أقبلت فترة بعد

الظهر كان من البديهي أن أحدا سوف لن يكشف عن نفسه ٠ فقررت ٠ أنه لابد من العمل ٠ فالتمست مقابلة من القائد ٠ ولبست أجمل بزاتي العسكرية ٠ واستقبلني القائد بعد فترة قصيرة ٠ دخلت الغرفة وأغلقت الباب وحييته أجمل تحية وقلت :

« طاب يومكم يا سيدي القائد » ٠

فأجابني : « طاب يومك ٠ ماذا حدث يا حسين ؟ » ٠
فأطلقت من فمي عبارة : هو أنا ٠
ـ هو أنت ماذا ، عم تتكلم ؟
ـ لقد قرعت جرس الانذار يا سيدي القائد ٠
ـ ماذا تريد أن تقول ؟
ـ فكررت بالحاح ، بأنني أنا المذنب، أنا الذي حرك جهاز الانذار ٠

ـ هل أستطيع أن أسألك يا حسين كيف استطعت تحريك جهاز الانذار بينما كنت غائبا عن ساند هيرست ؟

ـ فأجبته « هذا ما كنت أبغي ايضاحه يا سيدي ٠ هناك عدد آخر من الطلاب الذين كانوا غائبين مثلي أثناء وقوع الحادث » ٠

ولقد خشيت برهة أن يحمل ما فعلته على محمل سيء ، ولكنه تبين لحسن الحظ ، الجانب الهزلي المزاحي من الامر ٠

لقد آتى (اعترافي) ثماره ٠ كان ذلك نصرا لكل الطلاب الذين كانوا غائبين والذين ألغيت عقوبتهم ٠

كانت لي أسبابي الخاصة لمغادرة الكلية ٠ فقد كان علي يومئذ أن أجرب سيارة جديدة من طراز (أوستن مارتن) على طريق السباق في جودوود ٠ لقد غدت سيارتي الجديدة شعبية جدا في ساند هيرست لا سيما عند الذهاب في اجازة آخر الاسبوع حيث كانت تستخدم بمثابة سيارة ركوب لزملائي الطلاب ٠

كيف أمضيتم شهوركم الاخيرة في ساند هيرست ؟

طوال أسابيع ، كنت أخشى اللحظة التي أعين فيها عريف خفر وهذا يعني أنه خلال فترة أسبوعين كان علي أن أنهض من فراشي في الخامسة صباحا وأن أعد قائمة المرضى ، وأن أجمع البريد وأوزعه ، وأفتح المكاتب الخ ٠٠٠ ولا سيما أن أكون جاهزا في أية لحظة خلال النهار لمجابهة أية مشكلة ٠

ولعل من يمن الطالع أن الخدمة لم تدم طويلا ٠ فقد نبئت في مساء أول يوم من مصدر غير رسمي أن العرض الصباحي قد ألغي بالنسبة لليوم التالي ٠ وبذلك يستطيع الطلاب اذن أن يتصرفوا بساعة اضافية ، جميعهم ، ما عدا الحسين ، اذ كان علي أن أنهض فعلا في الساعة الخامسة صباحا ٠

لم يخبرني أحد رسميا بهذا التغيير ، وكجندي صالح مثالي ، لا يجوز لي أن أطيع الا التعليمات الرسمية ٠ في الساعة السادسة وأربعين دقيقة ، أنهيت عملي المكتبي ٠ وكان علي أن أوقظ سريتي ٠ فذهبت اذن الى المهجع ٠ وجعلت أذرع الاروقة وأنا أصيح وأدق الارض برجلي : « الساعة السادسة وخمس وأربعون دقيقة ، انهضوا يا أفراد سرية انكرمان ٠ لقد حان الوقت ٠ دعوا الاسرة جميعا » ٠

استقبلتني موجة من الشتائم ، ولكنني تجاهلتها بوقار ورزانة وواصلت اصدار تعليماتي بصوت عال ، حتى الساعة السابعة وعشر دقائق ، الا أن موجة الشتائم تحولت الى طوفان من التجاديف والكفر ، تلاه زخات من المقذوفات المختلفة ! ٠ طأطأت رأسي لتفاديها وتراجعت نحو الباب ٠ لم يوقظ صوتي الضخم القوي سريتي فحسب ، بل السرية المقيمة في الطابق الاسفل

والنقيب خفر فيها الـذي استدعاني بعـد تناول طعام الفطـور ، ورشقني بنظرة ببرودة الثلج ثـم قال لي بلهجـة ساخرة : « يـا حسين ، من الواضح أنك قد أوفيت على الغاية في قيامك بالواجبات التي عهدت اليك ، فلم تعـد في حاجة الـى تعلم أي شيء كعريـف خفر بعد من الآن الى نشاطاتك العادية » ٠

لم أعد أحتاج الى النهوض في الساعة الخامسة صباحا ٠ لقـد أفادتني اقامتي في ساند هيرست فائدة كبرى ، فتعلمت خلال هذه الاشهر القليلة طائفة من الامور ، لا سيما استخدام الدراجة النارية التي كانت منذ عهد بعيد شائعة في انكلترا ٠ ومع ذلك فقد قـدت دراجة نارية في أحوال جوية سيئة قبل انتهاء الدورة وقبيل العرض العسكري ببضعـة أيـام ٠ اذ كنت أحـاول القيام باجتياز منعطف بسرعة فائقـة ٠ فزلقت الدراجـة ومـرت فـوق جسمـي ٠ حاولت النهوض وأنا أشعر بألم شديد في ذراعي الايسر ٠ ولم أجرؤ علـى البوح بذلك خشية أن أسجل في قائمة المرضى فأحرم مـن امكانية المشاركة في العرض العسكري الختامي ٠ في نهاية الفصل الدراسي تفاقم الالم ٠ وفي صباح اليوم المحـدد للعرض العسكـري اتضحت حالتي للنقيب خفر فقـال لـي :

« يا حسين انك لن تستطيـع الصمـود وأنت في هـذه الحالـة ٠ سأحمل اليك شيئا يعيد اليك نشاطك ٠ انه مزيج خاص سوف لـن أقول لك ما هو ، ولكنني كفيل بأنه سيجعلك تتحمل المشقة أثنـاء العرض العسكري » ٠

ولقد احتملتها حقا ، ولكن ذراعـي ساءت حالها أكثـر مما كنت أعتقــد ٠

بعد أن غادرت ساند هيرست ، قمت بجولـة في انكلتـرا وويلـز واسكتلندا بصحبة خالي الشريف ناصر ، ولكن الالم أصبح لا يطاق كلما أوغلنا في الطريـق فاستدعيت طبيبـا ٠ وتبيـن أننـي كنت

مصابا بأنفجار في الاوعية الدموية ٠ فوضع ذراعي في الجص فورا ٠

« قال لي الطبيب : سوف تبقـى ذراعـك في الجص مـدة شهـر كامل » ٠ كانت ذراعي تضايقني جدا وهي معصوبـة هكذا ٠ لقـد عملت بهمة لا تعرف الكلل طـوال ستة أشهـر ٠ وكنت تواقـا الى الانتفاع باجازتي الى أقصى الحدود ٠ لذلك ، بعد ساعة ، أمسكت بمقص وساعدني خالي على خلع ضماد الجص ٠

وهكذا انتهت « مرحلة ساند هيرست من حياتي » ٠

عندئذ بدأت فعلا حياتكم كملك ...

نعم كان لي من العمر سبعة عشر عاما ونصف في الثاني من أيار عام ١٩٥٣ عندما بدأت ممارسة سلطاتي الدستورية . وفي اليوم نفسه في بغداد، باشر ابن عمي فيصل ولايته الملكية أيضا . عندما أقسمت اليمين أمام مجلس الامة ، كان قد انقضى عام على تنازل والدي عن العرش .

كانت يومئذ تتدلى الاعلام من النوافذ في أهم شوارع عمان حيث أقيمت أقواس النصر ، من القصر حتى مجلس الامة . في الصباح الباكر من هذا اليوم ، كان آلاف الناس يملأون الطرقات بانتظار مروري .

استيقظت في وقت مبكر . ومكثت بضع لحظات في السرير . كانت تراودني رغبة في أن أبقى وحيدا مع أفكاري . كان هذا أهم يوم في حياتي : كان سيعهد اليّ بمسئولية قيادة بلادي وخدمتها . لقد ساءلت نفسي عما اذا كنت أختلف اليوم عني بالامس . « فكرت أنني بالامس كنت لا أستطيع أن أقرر في أي شيء مهما كان . وأصبح عليّ منذ الآن ، أن أتخذ أخطر المقررات وأوثقها صلة بحياة الاردن ومصيره » .

لم أتناول الا القليل من الطعام لشدة توتر أعصابي . كان لديّ لباس عسكري جديد خيط بقماش ثقيل أبيض اللون للصيف ، وأزرق مائل الى السواد للشتاء . وعلى كتفي ثبتت حاملات رتب ذهبية . في الساعة التاسعة كنت مستعدا . بعد نصف ساعة غادرت قصر بسمان متوجها الى مجلس الامة . كان الحرس يتألف من كوكبة من فرسان الحرس الملكي ومن مجموعة من راكبي الدراجات النارية المسلحين .

كانت السيارة تسير ببطء وهي محاطة بالجماهير المبتهجة . وكان الجيش يحتوي بصعوبة هذه الامواج البشرية . وكنت أعرف أن عليّ أن أبدي الكثير من ضبط النفس . ولكن لا بد لي من الاعتراف بأن الانفعال والتأثر كانا يعتصران حنجرتي . وأخيرا بلغنا مجلس الامة .

كان الجميع هناك : رئيس الوزراء ومجلس الوصاية وأعضاء الوزارة كانوا جالسين على يساري . وأخي الذي يليني في العمر ، وخالي وكبار الضباط كانوا جالسين على يميني . أعرب رئيس الوزراء ورئيس مجلس الاعيان عن تمنياتهما لي بولاية ملكية سعيدة مزدهرة . ونهضت بعدئذ لأقسم اليمين التالية : « أقسم بالله بأن أحافظ على الدستور وأن أخلص للأمة » . وانني أعتقد بأنني لم أحنث أبدا بهذا اليمين .

بعد أن أقسمت يمين الولاء ، أطلقت المدافع مائة طلقة وطلقة ، ايذانا للشعب بارتقائي العرش . ثم ذهبت الى المسجد للصلاة ، وتوجهت الى ضريح جدي فانحنيت أمامه وقرأت الفاتحة على روحه ، وقمت بعدئذ بزيارة والدتي ، فقبلتني وأعربت لي عن شديد اعتزازها وبالغ فخرها بولدها . وأسرّت لي بما تعلقه علي من آمال ، ثم أضافت :

« لا تنس أبدا هذا اليوم يا ولدي . تذكر عند مجابهة الصعوبات التي سوف لن تتأخر عن الظهور ، كيف أن الشعب الاردني قد كشف لك عن مدى ولائه وحبه وثقته . فعليك أن لا تسمح بأن تدير رأسك المسئوليات والسلطة . سدد الله خطاك يا ولدي » .

وما كان ذلك سوى أول مظاهر تعلق شعبي بشخصي . بعد مرور بضعة أيام استقبلت من جديد في ميدان الطيران بعمان ، بالتشجيع الحار . كان حوالي مائة الف شخص قد اجتمعوا في هذا اليوم لمشاهدة العرض العسكري لاكثر من خمسة آلاف جندي من الجيش

العربي • وبينمـا كنت أستعرض الجنود ، لم أستطـع أن أتمالك نفسي ، من ملاحظة التفاوت بين مـا يجري هنا ، ومـا عرفـت في ساند هيرست ، ومن التنبه الى التناقض المؤثـر بين القديــم والحديث : مدافع الميدان والمدرعات كانت تسير في تشكيلة متقنـة وهي تتبع كتيبة حرس الباديـة التي تمتطي الجمـال • وفي نهاية الاحتفال ، صرحت معلنا على الملأ لأول مرة ما سيكون عليـه الخط الموجه لحكمي : « ان الاردن لعلى قناعـة تامة بالاخـوّة التـي تربط بين شعوب الامـة العربيـة العظيمة • وان الاردن ليس الا جزءا من الامة العربية والجيش العربـي الاردني مـا هـو الا أحـد الجيوش العربيــة » •

كيف تكيَّفتم مع مسئولياتكم الجديدة ؟

يتدخل الروتين كثيرا في عمل الملك • فمنذ مطلـع حكمي ، كنت أذهب في كل صباح الى مكتبي في قصر بسمـان ، كأي عامل آخر ، فلا أغادر القصر الا بعد اتمام عملي •

أما نشاطاتي فمتنوعة للغاية • اذ أخصص جزءا كبيرا من وقتي لاستقبال الناس من جميع الطبقات • وفي فترات منتظمـة يزورني رؤساء العشائر • الجميـع يلاقون مني كـل ترحيب • أمـا الاعمال الروتينية فمن اختصاص رئيس الديوان الذي يقوم بـدور الوسيط بينـي وبيـن الحكومـة •

أما بالنسبـة لطلبات المقابلـة فـان رئيس التشريفـات يتولى عملية الاختيار بينها • ولكن منذ أن أصبح مكتبه مجاورا لمكتبي ، غدا بامكان أيّ كـان أن يدخل الـى القصر لالتماس المقابلـة ، أو الاتصال هاتفيـا لهـذه الغايـة •

على كل حال عندما ترفض المقابلـة ، يكون السبب الوحيد في ذلك ، هو أن برنامجي اليومي يكون مثقلا بأعباء العمل ، الى الحد الذي لا أعرف فيه من أين أبدأ •

يبدأ نهاري عموما في الساعة الثامنة والنصف صباحا ، وينتهي نادرا قبل الثامنة مساء • أستقبل بأنتظام رئيس الوزراء ورئيس التشريفات واثنين أو ثلاثة من الوزراء • والسفراء المعتمدين وكبار قواد الجيش والطيران وأساتـذة الجامعـة وأعضاء مجلس الامة • وغالبا جدا ما أتحدث بايجاز مع عدة زوار • وعليّ أن أوشح الكتب بتوقيعي أو أن أدرس الوثائـق المعروضـة عليّ • وعندمـا أغادر مكتبي يكون الوقـت متأخـرا •

لقد كتب الكثير من السخافات حول البذخ والترف المزعومين في قصور العالم العربي ولا سيما حول قصري بالذات • ولا بد من تصحيح هذا الخطأ ، ورد الامور الى نصابها • ذلك لان معظمنا من سلالات بدوية معروفة بالفقر • اننا نعيش عيشة جد بسيطة • وانني لا أملك ثروة شخصية ولسوف لن أمتلك هذه الثروة أبدا •

ان القصر الملكي ليس ملكا شخصيا لي بالطبع • أنه من ممتلكات الحكومة ، وهذا ما يفسر كون طرازه مجردا من الطابع الشخصي • وتقيم الاسرة المالكة في ثلاثة قصور • شيّد القصر الاول جدي عندما وفد الى الاردن للمرة الاولى • ويسمى رغدان • كما أن جدي هو الذي بدأ في انشاء قصر بسمان الذي أعيش فيه الآن • ولكنه لم يسكنه أبدا • أما بقية أفراد أسرتي ، فيقيمون في قصر زهران • وهذه المساكن صغيرة وبسيطة ، ولا تقارن في أية حال بالقصور الموجودة في أوروبا •

كيف يستطيع ملك أن يكون قريبا من شعبه ؟

خلال السنين الاولى من ولايتي احتملت الكثير من المتاعب والمصاعب في سبيل التقرب من شعبي وفهمه • لقد كنت شابا صغير السن ، وكان مستشاريّ راغبين في تنظيم أسلوب حياتي • وكان ذلك عكس ما كنت أبغي وأتمنى •

كيف أستطيع أن أكون ملكا صالحا خيّرا مثاليا ، اذا كنت لا أعرف رعاياي جيدا • لقد كنت من أجل مقابلتهم والاجتماع بهم في عجلة من أمري • لا سيما الرعايا الذين اتخذوا من البادية مسكنا ومقاما • فحياتهم كانت مختلفة تماما • لقد كنت ملكهم ، وبالقرب منهم كنت أشعر بأنني لست وحيدا لانهم يعتبرونني كأنني واحد منهم • ما كنت في نظرهم سوى « الحسين » ، بلا مراسم ولا تشريفات ، ولكن تقاليد بدوية صميمة تقوم على ثلاثة مبادىء هي معاني الشرف والشجاعة والضيافة • فرجل الشرف هو الذي يتمسك بشدة بقوانين الضيافة • فكل ما تملك مُلك لضيوفك ، وحتى عدوك الذي يبلغ مضارب عشيرتك يغدو من حقه أن يحتصل على الماء والخبز •

لقد كانوا أثناء زياراتي لهم ، يشرفونني بالرقص والغناء من أجلي • وكلما ورد اسمي في أغنية ، كانوا يحيونني باطلاق الرصاص في الهواء • ثم أجلس فتقدم اليّ القهوة ، ويرتجل زعيم العشيرة خطبة الترحيب التقليدية ، وهذا ما كان يعتبر من مظاهر الادب • وعندما تُبسط موائد الطعام ما كان يحق لاي فرد في العشيرة وحتى لزعيمها أن يتناول الطعام ، ما دام الضيوف لم يفرغوا من طعامهم • انني أحب هذه الحياة التي تغاير وقار البلاط وانني لأتعاطف تعاطفا شديدا مع حاجات العشائر البدوية • فعلى الرغم من أنها تعيش في العوز والاملاق ، فان على المرء أن يبذل

أقصى ما في وسعه ليتمكن من اكتشاف ما هم في حاجة اليه ، لان كبرياءهم وعزة أنفسهم تمنعانهم من طلب العون • ومن الطبيعي وهم يرونني بينهم أن يعرض علي أفراد العشيرة شكاواهم • ولكن رغباتهم ومطالبهم هي من التواضع والبساطة والقناعة الى الحد الذي يجعلني أستجيب اليها حالا • أحدهم في حاجة الى العمل، وآخر الى المعالجة الطبية ، وهم جميعا يفتقرون الى المدارس والمستشفيات والى تزويدهم بالماء • انني أحب هذه البساطة التي يتوجهون بها اليّ ، فهي تعني انهم يعتبرونني زعيمهم ورئيسهم وقائدهم •

لقد حاولت بنجاح أن أوطن القبائل البدوية ، وأن أضع حداً لحياة الارتحال والانتقال التي يحيونها ، وهم يبحثون عن الماء والكلأ • وقد قمت من تلقاء نفسي باعداد وتنفيذ برنامج مساعدة ومعونة يؤمن لهم مساكن عصرية حديثة ومياها جارية طوال السنة ، وهذا هو أساسي في بلادنا •

هذه الاشهر الاولى من الحكم لم تكن هيّنة ليّنة • فقد كنت أتعلم مهنتي كملك بممارسة العملية شخصيا • من أي وجه يجب أن تؤخذ الامور ، وبأية طريقة تنبغي معالجتها • في الثامنة عشرة من العمر ، تنقصك الخبرة عموما ، يضاف الى ذلك أن المرء عندما يكون ملكاً ، فان من النادر أن يكون رأي الآخرين فيه موضوعيا •

ولكن أحيانا ، حتى بالنسبة لملك ، فان مصدر التشجيع قد يكون غير متوقع • فقد زرت يوما قرية صغيرة هوجمت من قبل اسرائيل • وأمضيت الليل فيها • كان القمر في قبة السماء وكنت أقوم بنزهة قصيرة بمعزل عن الآخرين لاستنشق هواء الليل البارد المنعش ، فسمعت أصواتا هامسة تنبعث من خيمة • عندها بلغت مسامعي جملة واضحة ، فاستولى عليّ شعور قوي بالاعتزاز والامتنان عندما قال بدوي لا أعرفه :

« لو كان الملك عبد الله حيا لكان فخورا بحفيده » •

ومع ذلك كنت أعرف أن أبناء البادية لا يشكلون سوى جزء من شعبي • وكنت أود معرفة رأي أبناء الحضر • انني لم أدع فرصة تفوتني للاختلاط بسكان المدن وكنت في المدرسة أشعر بأن الطبقات المتوسطة تجتذبني • وكنت أرغب في مزيد من المعرفة بأحوالها وسأروي لك هذه القصة التي سوف تستمتع بها بالتأكيد ولكنها تشير الى مقدار حبي للاستطلاع وميلي الى استكناه الامور في ذلك الوقت •

بينما كنت في احدى الليالي وحيدا في القصر ، انتويت أن أتنكر لكي أتجوّل بحرية بين السكان • ولكن كيف السبيل الى تحقيق خطتي ؟ وبديهي أنني ما كنت لأستطيع اطلاع حاشيتي على نيتي ، خشية أن أثير قلقا في غير محله • فخطر لي أن أتنكر بلباس سائق سيارة تكسي • وكان الحي الاكثر دلالة ، يقع بين عمان والزرقاء ، وهي منطقة عسكرية على بعد حوالي ثلاثين كيلو مترا من العاصمة ، ولكن بالنظر الى أن الليالي باردة في الصيف من جراء ارتفاع المكان ، فقد تدثرت بمعطف وأخفيت رأسي ووجهي بلثام (شماغ) فبدوت في شكل لا يمكّن أحداً اطلاقا من التعرف عليّ وعلى كل حال ، كل امرىء يستطيع أن يجعل من نفسه سائق سيارة أجرة • طوال ليلتين متتاليتين كنت أغادر القصر في الساعة الثامنة مساء وأنا أقود سيارة فورد قديمة خضراء اللون وذات رقم عمومي • وكنت أعود في حوالي منتصف الليل متجنبا رقابة الحرس الذين كانوا يعتقدون بأنني كنت أطالع في مكتبي • طوال ليلتين كنت أقود سيارتي التاكسي على طريق الزرقاء فتعلمت أموراً لا حدّ لها • انه لعجيب حقا مدى ما يستطيع الناس أن يقولوه في سيارة تاكسي ، الامر الذي يحمل على الاعتقاد بأنهم لا يعيرون انتباها لوجود السائق •

لقد كنت دوما أحب التحدث الى الناس الذين ينتسبون الى مختلف الطبقات الاجتماعية والذين لا يعرفونني • وانني لأذكر مرة كيف أنني كنت متجها نحو مدينة جرش فصادفت بدويا يحمل

كيسا ثقيلا من الخضار فأومأ الي · فتوقفت وهو يتصور أنني سائق تكسي · بعد أن وافق على الاجرة ، صعد الى السيارة فسألته عندئذ عما اذا كان الموسم جيدا في هذه السنة وبماذا يبشر المحصول ؟

فأجاب : « بفضل الله والملك الموسم رائع » ·

وسألته : ما رأيك في الملك حسين ؟ لقد سمعت الناس كثيرا ما تتحدث عنه ·· أي نوع من الرجال ؟ هل هو ملك صالح ؟

فأجاب : انه بعد الله رائدنا ومرشدنا الاكبر · أنه يحمينا

ويمنحنا كل معونة نحتاجها · اننا نحبه كثيرا ·
قلت : انني لست متأكدا تماما مما تقول ·

فغضب البدوي وصاح في : « اذا ما تجرّأت أن تتفوه بمثل هذه الأكاذيب على مليكي ، فلسوف أضربك ··· حتى يسيل دمك » ·

لحسن الطالع ، في هذه اللحظة كان الحرس الذين كنت قد تعمدت التنائي عنهم ، والذين كانوا يجدّون في أثري منذ نصف ساعة ، قد أدركوا سيارتي · وهكذا نجوت من مأزق حرج !

خلال السنين الاولى من ولايتي قمت برحلات عديدة الى الخارج · وبذلت المستحيل لاقامة أحسن العلاقات الممكنة مع الشعوب العربية الشقيقة · فزرت بشكل خاص المملكة العربية السعودية لمقابلة الملك بن سعود · كان ذلك قبل وفاته بقليل · ولما كان مريضا لا يستطيع المشي · فلكي يتمشى في أروقة قصره التي لا نهاية لها ، كان لا بد له من مقعد متحرك ·

جاء يوما لزيارتي في أحد القصور التي كنت أقيم فيها ، في مقعده المتحرك ، وبرز فجأة خادم يدفع أمامه مقعدا متحركا آخر · ثم يتفوه أحد بكلمة · كان يدفع المقعد المتحرك نحوي بلباقة وأدب

فقلت « هل أستطيع أن أعرف ماذا يجري اذا سمحتم ؟ » · فقال أحدهم : « هذا لجلالتكم » ·

قلت : «أشكركم بالغ الشكر · ولكنني أفضل أن ألبث واقفا وأن أسير قليلا · ثم أدركت فجأة المقصود من ذلك · فالبروتوكول يستلزم من الملك أن لا يمكث واقفا بينما يكون محدثه جالسا ·

كان علي أن أجلس على المقعد · فجلست اذن وسرت بجانب الملك · وكنت وقتئذ أفضّل ألا تقع عيناي على النظرات الباسمة لمرافقيّ العسكريين ·

مضت الاشهر والسنون هادئة ، ملأى بالجهد والكد والعناء · تعلمت خلالها الكثير من الاتصال بشعبي ومخالطته · أما التوتر مع اسرائيل فلم يتوقف بل غدت الصدامات وحوادث العنف أكثر خطورة منذ عام ١٩٥٥ ·

وأما ما تعلّق بحياتي الخاصة ، فقد جرى حدث هام : في التاسع عشر من نيسان (ابريل) ١٩٥٥ تزوجت الشريفة دينا عبد الحميد وهي ابنة عم لي بعيدة القرابة ، من السلالة الهاشمية المقيمة في القاهرة · كانت جدّ ذكية ومتخرجة من جامعة كامبردج وتكبرني ببضع سنين · في البداية كنت شديد التفاؤل لفكرة انشاء أسرة · وفي السنة التالية عندما وُلدت ابنتي عالية ، كنت أسعد الناس في بلادي ·

ولسوء الحظ مُني هذا الزواج بالفشل الذريع · وعلى الرغم مما بذلته من جهود ، وعلى الرغم مما استنفدناه معا من وُسع ، فقد اتخذنا القرار بانفصالنا · كان الوضع غير قابل للاستمرار · فأصبح من المرغوب فيه أن نضع حدا له · لقد كانت لحظة صعبة الاجتياز · وقد أثار طلاقي الكثير من النقد · وهكذا بعد ثمانية عشر شهرا من زواجنا ، رحلت عني وذهبت للاقامة في القاهرة ·

هل في هذه الفترة بدأت هوايتكم للطيران ؟

لقد كنت دوما مولعا بالطيران ، عندما كنت صغيرا ومقيما في عمان ، كنت مشغوفا بهوايتين : التصوير الفوتوغرافي والطائرات كان لديّ منها جميع النماذج المصغرة : أحدث أنواع الطائرات المطاردة ، والقاذفات ، وسائر نماذج طائرات الركاب • وعندما كان يحل المساء في بيتنا في جبل عمان ، كنت ألصقها في مجموعة (ألبوم) • ومع ذلك فانني اذا ما كنت مولعا بالطيران ، فليس ذلك يعود بالطبع الى حبي للسرعة أو الى أن الميكانيك يثير اهتمامي ، بل لأن للطيران بالنسبة اليّ معنى أكثر عمقا •

كنت عندما أصعد الى الطائرة ، تتلاشى سائر همومي • فاذا ما حلقت في الجو تبدّدت من ذهني مشاغل العرش ومشقات العمل التي تلازمه • لانني أكون عندئذ وحدي •

عندما أقلع بالطائرة ،أتنفّس الصعداء شكرانا وعرفانا وأشعر بأنني سيّد مصيري • ان جمال الطيران عالياً في السماء ، يرمز دائما بالنسبة الي الى صورة الحرية •

على الارض تكون مهامي عديدة ،• انني باخلاص وصدق أجد بعضها شديدة الرتابة مملة • لقد كنت دوما أتولى أشق المسئوليات والمهام وأثقلها عبئا • وفي أوقات الازمات كنت أعمل حتى أثناء الليل • منذ بلوغي الثامنة عشرة وأنا أستشعر الحاجة الملحة الى الانفلات من حقائق العالم الواقعية ولو لفترة ساعة • فكان الطيران وسيلة الخلاص والسلامة •

كنت أبغي أن أمارس مهنتي على طريقتي الخاصة وأن أعيش الحياة التي أرغبها • لقد دقّت الساعة مبكّرة بالنسبة الي • فقد أصبت بخيبة أمل عميقة عندما اضطررت لأن أتحمّل مسئولياتي

كملك وأنا حديث السن معدوم الخبرة • لقد حاولت أن أثقّف نفسي الى أقصى الحدود ، بالتعلّم يوما بعد يوم وسنة بعد سنة ، أسس المهنة وقواعدها • عندما تقع على عاتق المرء مسئوليات جسام ، فليس أخطر عليه من الاعتقاد بأنه قد أصبح في غير حاجة الى التعلّم • ويوم أن كنت حديث السن ، كنت دائما أرغب في أن أنفرد بتدبير أموري بنفسي • فالانغماس في العمل لاكتساب التجارب هو دوما مصدر للقوة • هذا ما عاد عليّ من ممارسة قيادة الطائرات لان الذي يهم الطيار ، بالتحليل النهائي ، هو مهارته في الخروج منها • وكلما قدت طائرة شعرت بأنني أنجزت عملا مهما •

ان لشغفي بالطيران سببا آخر • فقد كنت مقتنعا بأن عجز الاردن عن الدفاع عن نفسه ناتج عن السياسة التي كانت سائدة آنذاك • كان لدينا جيش ممتاز ، أفضل جيش في العالم العربي • ولكن كنا لا نملك أي غطاء جوي • كان الجيش العربي الاردني يحمينا على الارض في حين أنه في حالة هجوم جوي ، كنا مرغمين على اللجوء الى مساعدة القوات الجوية الملكية البريطانية • لم أكن راغبا في أن يضطر الاردن الى الاعتماد على أية معونة خارجية لا يمكن ضمان استمرارها • كانت اسرائيل تشكل تهديدا دائما مستمرا • فلم يكن من الحكمة بالنسبة الينا اذن أن نكون تحت رحمة معونة تأتينا من بلد آخر حتى ولو كان البلد صديقا لنا • وهي حكمة يعزز الاسس التي تقوم عليها ، معرفتنا بأن سياسة أي بلد تتغيّر في الغالب دون أن نطلع على الاسباب التي حملت على ذلك •

لقد حاول جدي الملك عبد الله ، أن يبدل من هذا الوضع الشاذ بانشاء أول نواة لقوة جوية صغيرة • ولقد باءت بالفشل كل محاولاته لتعزيز هذه القوة • فالطائرات القديمة التي اشتريناها لم تعد صالحة للخدمة • وعندما اعتليت العرش كانت الحكومة قد بدأت تفكر في بيع الطائرات الهرمة التي بقيت لنا •

كنا معروفين في الاردن بامتلاكنا لأفضل جيش ، ولكن كان علينا

أن نشجع الشباب الذين يرغبون في أن يصبحوا طيارين • وعندما كانوا يريدون الالتحاق بالجيش كانوا يدخلونه ويستبدلون بجيادهم أو جمالهم سيارات اللاندروفر والمدافع الرشاشة • فكنت آمل أنهم اذا ما غدوا طيارين سيتبعهم آخرون • وكنت في ذلك محقا •

وانني لأذكر هذا اليوم من عام ١٩٥٣ الذي كان حاسما في القرار الذي اتخذته بأن اصبح طيارا • كانت القوات الجوية الاردنية المساحة بقيادة العقيد دالجليش وهو نفس الرجل الذي قادني بطائرته الى عمان في اليوم الذي اغتيل فيه جدي • لقد أطلعته أكثر من مرة على نيتي في تعلّم الطيران ، وكان قد سبق لي السفر الى جانبه في غرفة قيادة الطائرة • وفي أحد الايام استدعيته وقلت له :

انه سوف ينتابني المرض لكثرة مكوثي منعزلا في مكتبي يجب أن تعلمني الطيران •

دهش دالجليش من أقوالي ومن الحزم الذي أبديته •

ـ قال لي : ولكن يا صاحب الجلالة سيكون الناس جميعا ضدكم فيما تريدون •

ـ فأجبته :أعرف ذلك ولكن هذا لن يضايقني • سوف نرد على كل اعتراض وسوف أصبح طيارا •

طوال عشرة أو خمسة عشر يوما حاولت أسرتي وحاول أصدقائي أنفسهم والوزراء أن يحملوني على العدول عن قراري • فكنت أشرح لهم وأكرر الشرح بأنه لا خطر عليّ البتة من قيادة الطائرة وكنت أعاود القول بقناعة تامة وايمان عميق بأن ساعة الموت اذا ما حانت فلا مفر منها لأن الله يكون هكذا قد أراد •

وأخيرا تغلبت على المعارضة وبدأت التدريب • لم يوضّح لي أحد بعد ، بأنه لا يحق لي أن أطير وحدي • كنت أستطيع أن أطير برفقة طيار ولكن لا أحد كان يجيز لي أن أطير وحيدا •

في اليوم الاول كان العقيد قد خطط لجولة فوق عمان في طائرة صغيرة من طراز اوستر ١٠ ولست ادري اذا كان قد رمى من وراء ذلك الى حملي على التخلي عما اعتزمته • ولكنه على كل حال قدم لي شرحا كاملا عن امكانات طائرة الاوستر ذات الطاقة المحدودة • وهذا لم يمنع دالجليش من أن يقوم بحركات بهلوانية عليها جعلتني اقضي ساعة من أعنف واشد ما عرفته في حياتي • كانت الحركات الدائرية الرأسية للطائرة وحركات الالتفاف حول محورها الطولاني تتلاحق على نسق متسارع حتى أنه أوقف المحرك عدة مرات والطائرة في الجو ! • وعندما هبطنا على الارض أحسست بالمرض فجأة ، كانت هي المرة الاولى والوحيدة التي أصبت فيها بالغثيان • ولقد حاول عبثا من جديد ان يتسبب في اصابتي به ، فقلت له : انك لن تستطيع ذلك بعد الآن • أيها العقيد •

ثم عدت الى القصر وانتظرت الدرس الآتي • وفي اليوم التالي كنت قد نسيت آلام اليوم السابق • ولما كنت مصمما على تجنب ألم الغثيان ، فقد أمضيت كل فترة بعد الظهر في البحث في عمان عن أفضل علاج لذلك • ولقد اعتدت أن أنشط جسمي بتعاطي حبوب خاصة لاتمكن من تقدير انجازات دالجليش الجوية حق قدرها •

أمضيت شهري حزيران (يونيو) وتموز (يوليو) على مدرج المطار بمعدّل خمسة أيام في الاسبوع • وقد قال لي العقيد بأنني موهوب موهبة خاصة ، وهو رأي لم أشاركه فيه على كل حال • يعتقد الناس أنه يمكن للمرء أن يصبح طيارا معترفا به وان ذلك في متناول الجميع • أما أنا فلم أؤمن بذلك البتة • بل بذلت كل ما في وسعي للاعتياد على الاجهزة الفنية للطائرة ولكن ليس بدون صعوبة اذ ليس من السهل القيام بحركات بعدد هذه الاجهزة في نفس الوقت • وفي البداية كانت حالتي الجسمية تقلقني كثيرا ، لان ركوب الطائرة لم يخفف بل زاد من التهاب الجيوب الانفية المزمن الذي أصبت به منذ الحداثة •

أمضيت عشر ساعات طيران على طائرة الاوستر الصغيرة هذه قبل أن أجرب طائرة من محركين أكبر حجما وأكثر راحة من طراز دوف ٠ وبدأت بتحقيق بعض الهبوط الممتاز على الارض وكان بعضه الآخر أقل جودة ٠ فقلقت من جراء ذلك ٠

قال لي دالجليش : لا تبالي يا صاحب الجلالة ٠ فان أفضل وسيلة لاتقان الهبوط هو أن تخطىء في بعض المرات ٠

بعد مرور شهر كنت قادرا على الطيران لوحدي ٠ ولكنني ما كنت لأعلم أنهم يحظرون علي الطيران منفردا ٠ ومع ذلك في الدرس الثالث على طائرة الدوف نهض دالجليش من مقعده وقال لي فجأة : حسن يا صاحب الجلالة ستتولون بأنفسكم الهبوط بالطائرة ، ثم غادر غرفة القيادة وقد أغلق الباب بشدة وراءه !

لم أكن واثقا من نفسي ٠ ولكنني تمكنت من ايصال الطائرة أرضا ٠ وأعتقد بأنني فعلت ذلك جيدا ٠ وعلى الرغم من هذا الانجاز قال لي العقيد بأن لديه تعليمات محددة وأنه محظر علي أن أطير وحيدا ٠ بلغ بي اضطراب النفس عندئذ حداً حال بيني وبين الغضب ، فعدت الى القصر منهوك القوى ٠ انه أمر يبعث على السخرية ٠ فكأنهم يحظرون علي قيادة سيارة بسرعة مائة كيلو متر في الساعة بدون سائق الى جانبي ٠ ومن البديهي أنني لا أستطيع الالحاح في هذا الشأن لانه اذا ما وقعت مصيبة ، فستعتبر القوات الجوية مسئولة عن حدوثها ٠

فقررت عندها بأن العمل بالنسبة الي قد حان ٠ كانت الطائرة التي أقودها موضوعة تحت المراقبة الدائمة ٠ يضاف الى ذلك أن الجميع ، من الميكانيكيين الى ضباط برج المراقبة ، كانوا مطلعين على الحظر الذي فرض علي ٠ فانتظرت بصبر وأناة اللحظة المواتية ٠ وأخيرا سنحت الفرصة ٠

وصلت بعد ظهر أحد الايام الى مدرج المطار ٠ كانت هنالك

طائرة أخفقت في الهبوط وانقلبت ٠ لم يكن الحادث خطيرا ٠ ولكن الناس كانوا جد منشغلين بالامر حتى أنهم لم يلتفتوا الي ولم يكن بجانب طائرة الدوف أحد ٠ فاندفعت الى داخلها على أطراف أصابع رجلي وأدرت المحرك ٠ وصحت بالمهندس الذي هرع باتجاه الطائرة بأنني سوف آخذ الطيار المساعد في نهاية المدرج ٠

كان ذلك كافيا له ٠ وببضع دقائق كنت قد ارتفعت في الجو ٠ وتواجد الجميع في برج المراقبة لمتابعةتحر كاتي ، وكنت في غاية الابتهاج ٠ تجولت فوق العاصمة ٠ وجعلت أمتّع النظر من غرفة القيادة في المدينة التي أحببتها ٠ لم يتسرب الخوف الى قلبي ٠ ولربما كنت أقل اضطرابا وقلقا من أولئك الذين تجمعوا في برج المراقبة ٠ مكثت بعض الوقت أيضا في الجو ثم عدت الى الارض بعد أن حققت هبوطا في غاية الاتقان ٠ وهكذا حدث ما لم يكن متوقعا : لم تعد هنالك معارضة على ممارستي للطيران ٠ ومنذئذ طرت وحدي خلال آلاف الساعات ٠

بدأت فيما بعد بقيادة طائرات نفاثة ٠ وفي عام ١٩٥٨ قدت أول طائرة هليكوبتر وقررت أن أهبط بها وراء القصر ، ليس من باب تأمين السهولة واليسر فحسب ولكن لانني كنت أريد في أية لحظة أن يكون في مقدوري الذهاب الى أي مكان في البلاد دون سابق ابلاغ لأحد ٠ فالهليكوبتر هو الجهاز المثالي من أجل التنقل بسهولة وسرية ٠ ولما كنت أود أن لا أكون مرتبطا في تنقلاتي بأحد من الطيارين فقد أخذت دروسا من جديد ٠ وبعد ساعتين ونصف من التدريب ، كنت ، أستطيع قيادة الهليكوبتر ٠

لقد أغنى نفسي الى حد بعيد قيام روح الألفة بين الطيارين وغياب المراسم والكلفة بينهم انهم عالم خاص قائم بذاته لا أستطيع الاستغناء عنه ٠ انه يسحرني ويبعث النشوة في قلبي ٠ واليوم بعد عشرين سنة ، أشعر بنفس الانفعال كاليوم الاول ، عندما أصعد الى الطائرة النفاثة ، انه نفس الانفعال حقا ٠

الشرق الاوسط ، السلم ، الحرب ، متى سمعتم بهذه الكلمات للمرة الاولى ؟

منذ الابد • وانني أعتقد بأن هذه الكلمات موجودة منذ أن أصبح العالم عالما • في وقت مبكر جدا ، عندما اعتليت العرش ، انغمست في دسائس الشرق الاوسط • ولما نشبت الاضطرابات في منطقتنا أدرك العالم الغربي بصعوبة أسبابها الجوهرية • عندما تطرح قضيّة معقدة في العالم العربي ينحي الغرب بالائمة اما على الشيوعية أو على الفلسطينيين ، أو يعمد بكل بساطة الى تحميل (كل العرب) مسئوليتها دون تحفظ أو استقصاء ، بدلا من أن يتفهم أن قوى متعارضة متناقضة تتجابه وتتصارع في بلادنا •

ربما كنا نحن مسئولين جزئيا عن هذا الخلط والالتباس وهذا النقص في الاعلام • ولكن ما لا يقل صحة عن ذلك ، هو هذا العدد المدهش من الكتب الرديئة التي أنتجها الغرب عن البلاد العربية • ولم يتوصل سوى نفر قليل من المؤلفين الغربيين الى كتابة مؤلفات متوازنة ذكية ومعقولة • فالصحافة مغرضة ويجري تزويدها باعلام سيء وغير صحيح • فاذا ما أردنا أن نتفهم أسباب بعض الاضطرابات والضغائن والاحقاد العميقة التي تولدت ، توجّب علينا أن نعرف خفايا بعض القضايا • وانني أعتزم أن أصف أسسها وأتقصى أغوارها وأشرح بايجاز الاحداث التي قادت العالم العربي الى الحد الذي بلغه وأحاول أن ألقي ضوءاً قليلا على المستقبل •

يقول مثل عربي بأن السلام وليد التفاهم وليس الاتفاق • وعلى ذلك فانه لا بد ، لمصلحة السلام ، من اقامة تفاهم بين الامم • فالعرب كشعب ، يتطلعون الى نفس الغاية ، أما كأمم فانهم يسلكون طرقا مختلفة لبلوغ أهدافهم •

انني لا ألمّح الى علاقاتنا مع أقطار العالم الحر ، لأن لنا علاقات مختلفة مع العالم الشيوعي الذي لا تتوفر فيه حرية الفكر والعمل • اذ أن الحملات الحاقدة المسعورة التي يوجهها ضد الشعب تحرمه من أي حق في الطموح الفردي الا اذا كان طموحا في أن يكون عبدا للدولة • وهي تحرمه من أي حق في الطموح القومي الا اذا كان طموحا في أن يكون خاضعا لسيطرة دولة أجنبية •

هذا هو السبب الذي من أجله ينبغي علينا أن نحسن فهم بعضنا بعضا • فالشيوعية لا تصبح فتاكة الا بالتفريق بين الشعوب والامم ، وهي لا تنفذ الا من خلال الثغرات التي تحدثها الظروف الداخلية التعيسة • وهي تنمي وتشحذ التناقضات والخلافات بين الامم • وهذه الانواع من التاكتيك تعرض الامم الضعيفة للدمار • وفي فترة الازمات تكون قدرتها على مواجهة الخطر معلقة على حجمها وكذلك على بعدها عن الامم القوية الحرة • فالتفهم المسبق للمشكلة يمكّن من تفادي الازمة ، في حين أن الادراك المتأخر للخطر يعوق العمل الفعّال المجدي كما أثبت لنا ذلك الماضي في أغلب الاحيان •

ونحن في الاردن نعرف ذلك جيدا ، لاننا باستمرار استطعنا الافلات من الدمار في اخر لحظة • فالشعور بالعزلة وعدم تفهم الآخرين يؤثر تأثيرا عميقا على طاقة وقوة ومعنويات العديد من الامم الصغيرة التي تشكل طليعة الحرية في العالم •

ان الدول الكبرى تفهم جيدا أهميتنا الاستراتيجية ، ولكنها لا تفهم دائما طموحاتنا القومية • في حين أن هذا التفهم جوهري ، رعاية للمصلحة المشتركة للعالم الحر •

لقد عقدت المملكة الاردنية الهاشمية العزم بصلابة على أداء واجباتها نحو العالم الحر وعلى تبرير وجودها • ان الاردن الذي عرف التفرقة لهو الآن أمة متحدة تمام الاتحاد بفضل الوطنية العربية ولا سيما القومية العربية • ان الطبيعة الحقيقية للقومية

العربية مشوهة أحيانا من قبل العرب أنفسهم ، أو من قبل الذين تهدد مصالحهم هذه القومية ، لهذا أخطأت الدول الغربية القوية في الماضي وخاصة فرانسا وبريطانيا العظمى في حق هذه القومية ولا سيما في الخمسينيات وأتت أفعالا تناقض مصالحها ذاتها ٠

ان القومية العربية تعمل في اتجاه رغد العيش ٠ وهي تقرّب العرب عندما تسودهم التفرقة ، وتقودهم نحو مزيد من الترابط والالتحام على الرغم من التغييرات غير المتوقعة لحكامهم أو لانظمتهم السياسية ٠

لقد ولدت القومية العربية في الوقت الذي كان فيه العالم المتمدّن غارقا في عصر الجهل والظلام فساهمت القومية العربية مساهمة كبرى في تقدم الانسانية ٠ لقد عاشت الحضارات العربية فترة طويلة من الزمن مفصولة عن بقية العالم في اليمن وفي مكة المكرمة وفي سورية والعراق ولكن تاريخ هذه الاقطار لم يبدأ فعلا الا في عام ٦١١ بعد الميلاد عند ظهور الاسلام ٠ كان التأثير المعنوي للعقيدة الجديدة كبيرا ولكن نفوذها السياسي ارتكز على المبدأ الاساسي الداعي الى المساواة بين الناس دون مراعاة لاجناسهم ٠ وهذا هو أول مبدأ للاسلام ٠

ونحن نعبّر عن هذا المثل الاعلى بعبارة (التقوى) التي تشمل روح التسامح وحب الخالق والاعمال الخيرة الصالحة والاحساس الحاد العميق بالعدالة ٠ وبايجاز ان أخلاق الاسلام تعتمد على المبادىء نفسها التي تحكم العالم الحر ٠

هذه المفاهيم الازلية الخالدة قد أتاحت للعرب أن ينشئوا امبراطورية كانت تمتد من شبه جزيرة ايبريا الى الصين وكانت تضم أجناسا وحضارات مختلفة في نفس الحركة الخلاقة مع احترام خير ما لها من تقاليد ٠ فنشط العلم والطب والفن والفلسفة بفضلها ٠ ان هذا الاسهام من جانب الاسلام قد طبع التاريخ

المعاصر أيضا بطابعه ٠ هذا هو ركن القومية العربية في عصرنا الحالي ٠

ولكن لسوء الحظ دمر المغول الغزاة ، الامبراطورية العربية بعد أن نخر أسسها التناحر والتنازع والتصارع ٠ وفي الوقت الذي كانت فيه أوربا تتعرّف على عهد جديد وأعني به عصر النهضة كانت الامة العربية قد غرقت في لجّة الظلام والجهل ٠ ولكن على الرغم من أربعمائة عام من السيطرة العثمانية فان شعور العزة والكرامة عندها بقي نابضا بالحياة ٠

بعد أن غزا نابليون الشرق الاوسط بدأ العرب يخضعون لتأثير القومية الاوروبية والنزعة الاستعمارية ٠ وفي بداية هذا القرن شرعت حركة أثارها رجال حزب تركيا الفتاة في تحويل الامبراطورية العثمانية الى امبراطورية محض تركية ، العرب فيها ليسوا شركاء وانما شعوب مستعبدة ٠

ولكي يستأصل الاتراك المعارضة العربية شنقوا الزعماء العرب في كل من بيروت ودمشق عام ١٩١٦ ٠ هذا الحدث أيقظ العالم العربي بصورة نهائية فثار العرب واستولوا على مكة واختاروا الاسرة الهاشمية لتزعم ثورتهم وقيادتها ٠

انهـا أسرتكـم ٠٠٠

نعم الهاشميون أحفاد الرسول ، وهم لذلك يتمتعون بالتكريم والتعظيم في العالم الاسلامي قاطبة ٠ وعندما تحالف الاتراك مع الالمان خلال الحرب العالمية الاولى ، حث زعماء الاقطار التي تسمى اليوم العراق وسورية ولبنان والاردن ، حثوا على العمل ، والد جدي الشريف حسين الذي كان آنئذ رأس الاسرة الهاشميـة ٠ فاتصل أبناؤه بالحلفاء وعقد اتفاق يعـرف باسم (رسائل الحسيـن مكماهون) يرمي الى اشعال نار ثورة عربية عامة ضد الاتراك ٠ اعترف الانكليز بالحسين زعيما لشعبه ، بدافع من حرصهم على مصالح الحلفاء ، ووعدوا بتأييد قيام أمة عربية حرة ٠

بدأت الثورة العربية في حزيران عام ١٩١٦ في ظل القيادة العليا للشريف حسين٠ وكان أبناؤه الثلاثة علي وعبد الله وفيصل قوادها

بالاتفاق مع القوات البريطانية التي كان يقودها الجنرال اللنبي زحفت القوات العربيـة الى شمال مكة وبلغت حلـب عام ١٩١٨ وهكذا تحقق حلم التحرير القديم ٠ وفي الوقت نفسه أنجز العرب ما كانوا يتوقون اليه من المساهمـة في هزيمة الالمان والاتـراك ، وفي النصر الذي أحرزه الحلفاء في آسيا الغربية ٠
ماذا حدث بعدئذ بيننا وبين الحلفاء ؟ الجواب على هذا السؤال

مهم لانه يتضمن التفسير العميق لما يشعر بـه العالم العربي ازاء الغرب من ارتياب وعدم ثقة ٠ انها حقا صفحة مـن التاريخ يود الغرب أن يطويها ٠ ولكنني أعتقد بوجوب العكوف على هـذه الفترة التي تمتد من عام ١٩١٨ وهو تاريخ النصر الذي أحرزناه الى عام ١٩٤٨ عندما بلغت المأساة الفلسطينية أوجها ٠

وهذه الفتـرة تفسر أيضا التخلـف الاقتصادي لبعض المناطـق

والنجاح النسبي للشيوعية في العالم العربي والحقد الذي تلا انشاء دولة اسرائيل والاحداث المحزنة المشئومة في الجزائر في الخمسينيات أما النتيجة المباشرة لهذا كلـه فهي أن العالـم العربـي والقومية العربية أعتبرا من قبـل الرأي العام الغربي بمثابـة قوى معاديـة سلبية وغامضة مشوشة ٠

كل ذلك ما كان ليحدث لو أن الحلفاء تصرفوا على خلاف ما فعلوا منذ الحرب العالمية الاولى ٠ لقد كان يعوز زعماءهم بعد النظـر ووضـوح الرؤيـة ٠

بعد توقيع معاهدة الصلح عام ١٩١٩ نشرت وثيقتان كنـا نجهل وجودهما ـ الاولى هي اتفاقيات سايكس بيكو الموقعة عـام ١٩١٦ بين انكلتـرا وفرنسا والتـي كرست تقسيـم الشرق الاوسط الـى منطقتـي نفوذ ٠ وبايجاز وضعت سوريـة ولبنان تحت الحمايـة الفرنسيـة ، وأدخـل ما تبقى مـن الشرق الاوسط في فلك الحكم البريطانـي ٠

أما الوثيقة الثانية فهي تصريح بلفور الذي أشار فيـه الانكليز الى « أنهم يؤيدون انشاء « دولة قومية يهودية » في فلسطيـن ٠ هاتان الوثيقتان تمت صياغتهما بعد انقضاء ما يقرب من بضعة أشهر على مراسلات الحسيـن مكماهون التي وعد فيهـا الحلفاء بمساندة انشاء أمة عربية متحدة كبرى ٠

كانت اتفاقيات سايكس بيكو وتصريح بلفور وما نتج عن ذلك من أعمال ، وصمة خزي وعار لحقت بالاقطار الغربية كما أثـارت خيبة أمل عميقة عند الشعوب العربية اذ بدلا مـن أن تعرف آسيا العربية الاستقلال ، قسّمت الى محميات فرنسية وبريطانية ثم بغير علم من العرب ، وعـد اليهود بفلسطين التـي كانت عربية بنسبـة (٩٤) بالمائـة ٠ وكانت النتيجـة النهائيـة هـي انشاء اسرائيل بما يخالف مخالفة صريحة مبادىء سيادة الشعوب ٠ وقد نفي الملك حسين الاول بالقوة الجبرية مدة ستة أعوام لمعارضتـه

المطلقة لفكرة التنازل ولو عن شبر واحد من الارض العربية في فلسطين · وفي سورية زحف الجيش الفرنسي على دمشق وأرغم الملك فيصل الاول على مغادرة البلاد · وفي العراق كان الموقف متوترا بنفس النسبة · فقد نشبت ثورة أرغمت الانكليز على التدخل وعملت على ارتقاء الملك فيصل نفسه عرش العراق في بغداد ·

أما الحسين أبو جدي فقد أرسل على عجل ولده الآخر عبد الله ، وعهد اليه بمهمة ايقاف تقدم الفرنسيين نحو دمشق · فغادر المدينة المنورة في أواخر تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٩٢٠ · وبعد مسيرة شهر وصل الى معان في الاردن في الحادي والعشرين من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢٠ · لقد احتاج الى سبعة وعشرين يوما في القطار لاجتياز مئات الكيلو مترات التي تفصل بين المدينتين من جراء النقص في الوقود ولان الخط الحديدي كان منسوفا في عدة مواضع · وفي الوقت الذي وصل فيه الى الاردن ، كان الجيش الفرنسي قد دمر المملكة العربية في سورية · وفي ٢٠ آذار (مارس) ١٩٢١ عقد تشرتشل الذي كان وقتئذ وزيرا للمستعمرات ، مؤتمرا في القدس مع جدي · وعلى اثر هذا الاجتماع وضعت شرقي الاردن تحت الحماية البريطانية ، ونودي بجدي الملك عبد الله أميرا عليها · وفي الحادي والعشرين من شهر نيسان (ابريل) تألفت أول حكومة في شرقي الاردن ·

كيف كانت شرقي الاردن في هذه الحقبة ؟

كانت بلدا صغيرا يبلغ عدد سكانه ثلاثمائة وخمسين ألف نسمة أما تضاريسها التي بعضها جبلي وبعضها الآخر صحراوي ، فلا تشتمل سوى على قطاع ضيق من التربة الخصبة تمتد على طول حدودها الغربية على ضفاف نهر الاردن · ولم يضم جدي جنوب الاردن وتحصل البلاد تبعا لذلك على منفذ بحري في العقبة الا في عام ١٩٢٤ · لم يكن في البلاد سوى قليل من المدارس · أما الشرطة فغير موجودة عمليا · ومعظم غابات البلاد قد أبادها الاستخدام لحاجات الخط الحديدي الحجازي · ولكن جاذبية جدي الملك عبد الله كانت من القوة الى الحد الذي حمل الآلاف على الانضمام اليه · كان البدو يحبونه كأبيهم · أما السوريون في الشمال الذين حطمهم ضم الفرنسيين لبلادهم ، فقد طلبوا منه العون والمساعدة · أقام بلاطه في عمان التي كانت آنئذ قرية يبلغ تعداد سكانها ثلاثة آلاف نسمة ·

عندما نشبت الحرب العالمية الثانية انضمت شرقي الاردن فورا الى بريطانيا ولعب الجيش العربي الاردني دورا هاما في الشرق الاوسط ولا سيما في تحرير دمشق من نير حكومة فيشي ·

في أيار (مايو ـ من عام ١٩٤٦ ألغيت الحماية وأنشئت المملكة الاردنية الهاشمية المستقلة · وقد حكم جدي ، الذي أصبح الملك عبد الله ، بحكمة ، وعمل بلا انقطاع على ايجاد حل للقضية الفلسطينية ·

بعد حرب فلسطين انضم الى الاردن بموافقة الشعب الفلسطيني ، الجزء من فلسطين الذي أنقذته القوات الاردنية · وفي الواقع ، عندما ارتقيت العرش ، كان عدد السكان قد ازداد

فبلغ مليونا ونصف مليون ٠

وقد كان من المحتوم أن لا يؤدي انشاء اسرائيل انطلاقا من السياسة الصهيونية التوسعية الا الى الظلم والخطر والكارثة ٠ فيجب أن يدرك العالم أنه لا يمكن قيام سلم حقيقي دائم في الشرق الاوسط ما لم يعمل على ايجاد حل للمأساة الفلسطينية ٠

فالامم التي تعتبر وجود دولة عبرية قد أصبح أمرا واقعا تنسى أن العلاقات التي أتاحت لليهود وللعرب أن يتعايشوا خلال قرون في جو من الاخوّة والتسامح ، قد دمرتها أفكار الصهيونية وأفعالها ان هذه الصداقة وهذا التفاهم لا يمكن أن يبعثا الى الوجود مرة أخرى ما دامت الصهيونية تشكل جوهر سياسة اسرائيل ٠ أما النتيجة ، فهي انقسام العالم العربي ٠ وأحد المظاهر التعيسة لهذا الوضع هو الصورة المشوهة الكاريكاتورية التي تعرض للعالم عن حقيقة القومية العربية ٠

ان هذه القومية تستوجب من الاردني أن يكون عربيا قبل أن يكون أردنيا ، وأن يكون العراقي عربيا أولا قبل أن يكون عراقيا الخ ٠ ذلك أن من واجبنا كعرب أن نتفاهم على القضايا الرئيسية وأن نقضي على الخلافات القائمة بيننا ٠ ان الذنب لا يقع على عاتق الشعب العربي ، اذا كنا اليوم مرغمين على أن نعاني من ذيول المأساة الفلسطينية ، واذا كنا قبل عشرين عاما ، عاجزين عن مد يد العون للاشقاء الجزائريين أو اذا كنا اليوم غير قادرين على أن نتعاون ، سواء خلال العدوان الاسرائيلي في عام ١٩٦٧ أو عام ١٩٧٣ ٠

ولكن الذنب لا يقع بكامله على الغرب : فاذا كنا ضحايا المبدأ المشهور (فرق تسد) فان القضايا العربية قد عولجت على العموم بطريقة غير مسئولة من قبل الحكام العرب أنفسهم ٠

لقد جاء وقت كنا نستطيع فيه أن نتحد ولو روحيا ضد

الامبريالية ، ولكننا لم ننجح في التكتل ضد عدوّينا الاكثر خطورة وهما الشيوعية والصهيونية ٠

ومع ذلك فانني أعتقد بأننا سائرون على النهج الصحيح للتغلب على مصاعبنا ٠

ان المحاولات الوحيدة التي تستحق الاهتمام والالتفات من أجل الوحدة العربية قد جاءت من الاردن ٠ فجدي الملك عبد الله قد اقترح في عهده ، اما انشاء (سورية الكبرى) التي كان يمكن أن تشمل سورية ولبنان والاردن وفلسطين ، أو الهلال الخصيب الذي يضم الدول الاربع نفسها بالاضافة الى العراق ، أو مجرد اتحاد بين سورية والاردن ٠

وقد دمّر جهود جدي تكتيك الفرنسيين والانكليز الذين كانوا يرون ضمان سلامة مصالحهم في انتهاج سياسة تفرقة العرب ٠ وأدى مصرع ابن عمي فيصل وجميع أسرته ، أثناء ثورة تموز (يوليو) عام ١٩٥٨ في العراق ، الى تحطيم الاتحاد بين الاردن والعراق ٠

أما الجامعة العربية التي ظهرت قبل أكثر من ربع قرن ، فتبدو خطوة الى الامام نحو عالم عربي تقدمي ٠ ولكن على المستويات العليا حطّم بعض العرب الذين لا يدركون مسئوليتهم ، هذه الآمال الكبيرة ، فغدت الجامعة العربية خلال فترة من الزمن ، دمية يسحب خيوطها الطامعون الذين لا يبالون الا بمصالحهم ٠

لقد شبّه جدي الجامعة العربية في مذكراته « بالكيس الذي يحتوي على سبعة رؤوس – وهي الدول العربية السبع التي كانت تتألف منها الجامعة العربية وقتئذ – مربوطة بأشرطة تمثل السيطرة الاجنبية والجهل العربي ٠ ان مخلوقا كهذا ، يستطيع التنفس ولكنه يختنق عندما يحاول التحرك » ٠

ومع ذلك فقد كان في مقدور الجامعة العربية تحقيق أمور عظيمة لو تولى توجيهها الزعماء الحقيقيون فلقد أثبتت مؤتمرات القمة العربية أن الجامعة العربية ضرورية • فهي السندان الذي تصاغ عليه الامة العربية •

نحو أية أهداف يجب أن تتجه اليوم هذه القومية ؟ •
أولا لا أستطيع أن أكون الا معارضا للشيوعية • فهي تنكر الدين وهي اذن تنكر المبادىء التي تقوم عليها القومية العربية •

ومن ناحية أخرى ، كيف يمكن الدفاع عن سياسة الحياد بين العالم الحر والاقطار الشيوعية ؟ كيف ندين النظريات الشيوعية ونقبل مساعدتها ؟ كيف نعادي العالم الحر وندافع عن القومية العربية ، في حين أن جذورها متماثلة كما سبق لي ايضاحه ؟

ان الاردن ليشجب مثل هذه الغوغائية • اننا نؤكد بأنه لكي نكون حياديين ، ينبغي أن يكون لدينا القوة الكافية التي تمكننا من عدم الاعتماد على دعم أي من الجانبين •

وهذه ليست حالنا ! •

اننا ، نحن العرب ، لنأسف لأن بعض الدول القوية في العالم الحر ، لم تكن أكثر صدقا واستقامة معنا • ولكننا لن نقابل ذلك باعتناق الشيوعية ! ان من واجبنا أن نؤصّل ونعمّق جذور مبادئنا وندافع عن حريتنا • أما القوة التي ينبغي أن نعتمد عليها ، فهي قوة العالم العربي • وعلى الطبقة البورجوازية عندنا أن تنظم وتؤمّن التنمية والتطوير في بلادنا من خلال وحدتنا •

أما فيما يتعلق بالمملكة الاردنية الهاشمية ، فهي مخلصة تمام الاخلاص للمثل العليا التي قامت عليها الثورة العربية الكبرى • نحن جدّ تواقون الى الوحدة والمساواة والقوة والتقدم • وان قوة الاردن لتستند الى ايمانه العميق الراسخ بهذه المثل العليا • ان

هدفنا واضح : يجب أن نجعل من بلادنا ، أمة حيّة ديموقراطية ، بعد أن نجت من الابادة والتدمير •

يؤوّل العالم الحر مفهوم الديموقراطية على خلاف مانفعل فنحن مقتنعون بأنه ليس من الواقعية في شيء ، ان ننقل شكلا من أشكال الحكم بحذافيره ، وأن نحاول تطبيقه على دولة ليس لها نفس التقاليد التاريخية • فالديمقراطيات القديمة نفسها قد اكتشفت بأن عليها أن تجري تعديلات مستمرة لكي تتكيّف مع القضايا الجديدة لعصرنا الحاضر •

هنالك في عدد من الاقطار العربية « أحزاب سياسية » مزعومة• الا أن الواقع يشير الى تغلغل الشيوعية في العالم العربي تحت قناع القومية ، اذ لجميع هذه الاحزاب تقريبا نفس شعارات الوحدة والحرية والتقدم • وهذه الشعارات بالنسبة اليها ما هي الا مجرد وسيلة تأمل عن طريقها في التوصل الى السلطة • لذلك على الرغم من كون الحكومة الاردنية ، ديموقراطية ، فاننا لا نعتقد بأننا نستطيع أن نمنح أنفسنا ترف ترك مثل هذه (الاحزاب) تتكاثر •

يوجد في الواقع أربع وحدات كبرى في العالم الناطق بالعربية ، وهي : الهلال الخصيب ، وشبه الجزيرة العربية ، ووادي النيل ، والمغرب العربي ، فلو وافقت هذه الاقطار على المشاركة فيما بينها فان خطوة كبرى تكون قد تحققت • ولتكن مشاركتها منبثقة عن ارادتها ، وأن تشمل ما تقرر أن تشمل : كالثقافة والاقتصاد وقضايا الدفاع الخ ••• ، أما الاتحاد السياسي ، فيمكن أن يكون المرحلة الاخيرة • كل هذه الامور ممكنة الاجراء ضمن جامعة عربية نشطة ، ايجابية ، وموفورة الاحترام •

ان الاردن يضغط بكل ثقله في هذا الاتجاه ولسوف ينضم الى كل محاولة عملية ترمي الى تحقيق هذا الهدف • فنحن نرغب في عمل متفق عليه ومدروس • وقد اعتزم الاردن أن يلعب في هذا المجال ، دور الدولة المعتدلة •

نحن نعتبر بلدا ناميا ، ولكننا أيضا بلد خصب في الافكار التي تتيح لنا أن نرتفع عاليا بكرامتنا وكبريائنا وتصميمنا وشجاعتنا وثقتنا بأنفسنا ٠

وعندما أفكر في أسرتي ، فانني أفكر باعتزاز في جميع من هم في الاردن الى جانبي ، يجابهون معي قضايا بلادنا ٠ وعندما أفكر في عشيرتي ، فانني أتطلع في الواقع الى الامة العربية بأسرها ٠ لقد نذرت حياتي ٠ لمثل أعلى عادل محتذيا في ذلك حذو الهاشميين على مدى التاريخ ٠ وانني أود أن أكون خليقا بثقة الشعوب العربية ودعمها ٠

وأرجو الله أن يهدينا سواء السبيل وأن يمدّنا بسند من عنده ٠ وأنتم في الغرب ، فلتساعدونا على بناء قوتنا لانها ستصبح قوة الحرية ٠ وتذكروا بأننا قد ولدنا أحرارا ٠

يتحدّث العالم عن القضية الفلسطينية منذ أكثر من خمسة وعشرين عاما ٠ وهذا قد أسال حبرا كثيرا ٠ أما فلسطين فقد أصبح يعرفها العالم أجمع ٠ هل تستطيعون تذكيرنا بأصل هذه القضية المأساوية ؟

عندما نستبعد الاعتبارات العاطفية التي تصيب القضية بالغموض والابهام ، فليس من شك في أن الشعب العربي في فلسطين قد جرد من حقه الاساسي في تقرير المصير الذي حدّده وعرّفه الرئيس ويلسون ٠ هذا هو الخطأ الرئيسي والغلطة الاولى اللذان جاءت الاخطاء والغلطات الاخرى لتضاف اليهما فيما بعد ٠ نحن نعرف مقدار ما عاناه اليهود من عذاب في اوروبا خلال الحرب العالمية الثانية ، ونحن نفهم تمام الفهم رغبتهم في البحث عن حياة أفضل ٠ ان التاريخ الحديث للاحداث التي ولّدت الوضع الحالي ، وهو وجود مليوني لاجىء فلسطيني ، معروف من الجميع ٠ ولكنني أعتقد بأن مما يثير الاهتمام أن نستعيد بايجاز ، الاحداث المختلفة التي وقعت خلال عشرات السنين القليلة التي أفضت الى انشاء دولة اسرائيل ٠

يعتقد الناس على الغالب ، بأن هذه القضية حديثة العهد ، وعلينا أن نعترف بأنها لم تحظ بالاهمية الا بقدوم الجيل الجديد ٠ ولكن الرأي العام يجهل على العموم أن اللورد بالمرستون في عام ١٨٣٨ ، عندما عيّن أول قنصل بريطاني في القدس ، أوصاه « بحماية اليهود » ٠ وبعد سنتين أشار بالمرستون في كتاب موجّه الى السفير البريطاني في استانبول ، الى « الاهمية الكبرى بالنسبة للسلطان في تشجيع اليهود على أن يعودوا الى الاستقرار في فلسطين ، لأن ثرواتهم من شأنها أن تزيد في موارد الاقاليم التي يحكمها » ٠ وذكر بالمرستون أن الشعب اليهودي يعتبر أن العودة في ظل حماية السلطان ، وبدعوة منه ، تشكل ضمانا في

مواجهة ما قد يتكشّف عنه محمد علي وخلفاؤه في المستقبل من مآرب غير شريفة ، وأضاف : « أنقل الى الحكومة التركية هذه التصريحات السرية وأوصها بتشجيع سائر اليهود على العودة الى فلسطين » • كان ذلك في عام ١٨٤٠ •

في عام ١٩٠٩ كتب العالم الجغرافي الامريكي السوورث هنينجتون بأن الفلاحين المقيمين في فلسطين ، يعتبرون « اليهود ألد أعدائهم » • وفي عام ١٩١٢ عُقدت جلسة صاخبة في مجلس النواب التركي ، احتج فيها النواب العرب على استيلاء الاسر اليهودية على مساحات واسعة من الاراضي التي تعود الى مُلاك غائبين •

ولكن لم توجه الضربة الحاسمة القاصمة الا في أواخر الحرب العالمية الاولى • فقد أعلنت الحكومة البريطانية في الثاني من تشرين الثاني (نوفمبر) من عام ١٩١٧ في تصريح بلفور بأنها تؤيد استقرار اليهود في فلسطين • كانت الوثيقة قليلة الوضوح ، ففقرتها الثانية تشير الى أنه من المفهوم أنه سوف لن يُؤت أي عمل من شأنه أن يعرّض الى الخطر الحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية في فلسطين »• ومهما كان رأي البريطانيين فان الصهاينة كانوا قد حددوا مواقفهم على كل حال • فقد صرح الدكتور وايزمن بأن فلسطين يجب أن تكون يهودية كما هي انكلترا انكليزية •

وفي رأيي أن تصريح بلفور كان ظالما وكان السبب في المرارة وخيبة الامل اللتين يعاني منهما العالم العربي المعاصر ، وقد كان رد الفعل المباشر لهذا الامر ، من الجدية ، وكان الصهاينة من النشاط ، الى الحد الذي حمل الرئيس ويلسون في عام ١٩١٩ على ايفاد فريق دراسة الى الهلال الخصيب »• وقد دُعي فريق الدراسة « بلجنة كينج ـ كرين » • كانت مهمة هذا الفريق هي اختبار ردود فعل السكان المحليين على اقتراح بريطانيا العظمى • وقد روى أحد الكتاب بأنهم باشروا دراساتهم بأفكار مسبقة متعاطفة مع

الصهيونية ، ولكن عند الصياغة الفعلية للتقرير ، حملتهم بعض الوقائع على تغيير رأيهم •

أعربت لجنة كينج ـ كرين عن تمنياتها في اجراء تعديل جدي على البرنامج الصهيوني • وبعد محادثات عديدة أجرتها مع الصهاينة ، صرح أعضاؤها بأنه قد تبين لها بوضوح بأن الصهاينة يودون التجريد الكامل للسكان غير اليهود من سائر ما يملكون • كان الصهاينة مستعدين لكل شيء رغم معارضة السكان غير اليهود في فلسطين • وقد استلمت اللجنة من سورية عريضة تشير الى أن اثنين وسبعين بالمائة من السكان كان ضد البرنامج الصهيوني • كما أن جميع الضباط البريطانيين كانوا يشددون على واقع أن السلاح وحده هو السبيل الوحيد الذي يستطيع تحقيق فوز البرنامج الصهيوني •

ان تقرير لجنة كينج ـ كرين ، هو احدى الوثائق المكرّسة للقضية الفلسطينية • ماذا جرى لهذا التقرير ؟ • لقد أخفته الحكومة الامريكية •

كان هذا التقرير مثالا يحتذى في الموضوعية • ولم ينشر بصورة غير رسمية الا بعد رحيل ويلسون من رئاسة الولايات المتحدة ، في الوقت الذي لا يستطيع أحد أن يُنحي باللائمة على أسلوبه الذي اتسم بالاستقامة والنزاهة •

بدأ الصهاينة في الاستفادة من تصريح بلفور • وجعل اليهود يتوافدون على فلسطين بأعداد متزايدة • أما جدي الملك عبد الله الذي كان في ذلك العهد أميرا على دولة شرقي الاردن الجديدة ، فقد أصبح شديد القلق من هذا الوضع • كانت فلسطين وشرقي الاردن تحت السيطرة الانكليزية ، ولكن ، كما سجل الملك عبد الله في مذكراته ، لا يمكن اعتبارهما دولتين منفصلتين • فشرقي الاردن الواقعة الى الشرق من نهر الاردن تشكل القسم الداخلي من فلسطين وكانت تنتج المواشي والحبوب والمواد الزراعية الاخرى ؛

بينما كانت فلسطين تعنى بالصفقات التجارية مع العالم الخارجي عبر موانئها على البحر الابيض المتوسط • هذا البلدان المنظمان المسالمان كانا يعملان معا بروح المودة والتآخي الى أن بدأت شرور الهجرة اليهودية تتفاقم • فقد قلب اليهود الذين كانوا يتوافدون على فلسطين ، نوع الحياة فيها ظهراً على عقب • وكانت ترتفع الاحتجاجات ضدهم من وقت الى آخر • ولم يدر البريطانيون ماذا يصنعون الى الحد الذي كانوا يتقاتلون تارة ضد اليهود وتارة ضد أصدقائهم العرب •

في عام ١٩٣١ ارسلت عصبة الامم لجنة تحقيق فوجّه جدي الى المندوب السامي البريطاني في فلسطين رسالة مطولة أعلمه فيها بأن الحوادث والمنازعات قد « وضعت حداً لكل أمل في قيام المودة والصداقة بين القادمين الجدد وبين العرب الذين كانوا يسكنون فلسطين منذ أربعة عشر قرنا » •

ولقد حذر جدي مرارا وتكرارا في أعوام ١٩٣٣ و ١٩٣٤ و ١٩٣٥ السلطات البريطانية من ان الهجرة اليهودية من شأنها أن تتسبب في عواقب وخيمة ، وطالب بانتهاج سياسة جديدة أكثر عدالة في فلسطين •

في التاسع من تشرين الاول ٥ أكتوبر) من عام ١٩٣٦ ، عشية ارسال لجنة بيل الى فلسطين ، أصدر الملك بن سعود ملك السعودية والملك غازي والامير عبد الله ، تصريحا مشتركا ناشدوا فيه عرب فلسطين بالكف عن أعمال العنف (وبوضع ثقتهم في النوايا الحسنة لاصدقائنا البريطانيين وفي رغبتهم في مراعاة جانب العدالة ورفع شأنها) •

لكن آمالهم قد خابت • فقد أعلنت لجنة بيل عن تأييدها التقسيم • فقامت مظاهرات في عمان والمدن الاردنية الاخرى واشتدت حدة المعارك ضد اليهود في فلسطين •

كان جدي يأمل في قرارة نفسه في أن يجري التوصل أخيرا الى حل يمنع الكفاح الناشب من أجل البقاء ، بين العرب واليهود ، من أن يتحول الى كارثة •

كان السياسي الوحيد بين رجال الدولة العرب في الثلاثينيات ، الذي أدرك أنه اذا لم يتم التوصل الى حل للقضية الفلسطينية فان الوضع سوف ينقلب الى كارثة تصيب العرب ، وأن التقسيم اذا ما غدا أمرا واقعا فان النكبة سيكون لها نتائج غير متوقعة بالنسبة للمستقبل • لذلك اقترح على الحكومة البريطانية انشاء دولة تشمل فلسطين وشرقي الاردن • أما جوهر ما ورد في مذكرته فيمكن ايجازه فيمايلي :

١ – يتمتع اليهود في اتحاد كهذا بالاستقلال الداخلي في بعض المناطق •

٢ – يكون لهم سلطات ادارية مطلقة في هذه المناطق •

٣ – يمثل اليهود في البرلمان بمقتضى القاعدة النسبية كما أن على الحكومة أن تشتمل على وزراء من اليهود •

٤ – يجب تخفيض الهجرة اليهودية الى العدد المعقول •

هوجم هذا المشروع من قبل الدول العربية الاخرى • ولكن كما كتب في الخامس من حزيران ١٩٣٨ جوابا على الذين كانوا ينتقدونه:

« لم يكن يتجاوز عدد السكان اليهود مائة ألف عام ١٩٢١ • أما اليوم فقد بلغوا خمسمائة ألف •وهم يملكون أخصب الاراضي كما أنهم تغلغلوا في كل مكان • تقوم الصهيونية على ثلاث دعائم : تصريح بلفور والشعوب الاوروبية التي تحاول التخلص من اليهود والمتطرفون العرب الذين يرفضون كل حل ولا يكفون عن الشكوى والاستغاثة بالذين لن ينجدوهم أبدا • لقد بلغني أن اليهود قد طلبوا الابقاء على الانتداب البريطاني ليتسنى لهم امتلاك مزيد

من الاراضي وزيادة الهجرة • وهكذا تقع فلسطين في يد الآخرين • أما العلاج الوحيد فهو العمل بسرعة لوضع حد لهذا الخطر وذلك بحصر الهجوم وتقييد حدوده ثم بمواجهة ودراسة كيفية القضاء النهائي على هذه التهديدات • فاذا ما أضعنا الوقت ، كفلنا بذلك ضياع فلسطين • اعتقد بأنه لا فائدة من الشكوى وأن علينا أن نبادر الى العمل • وان توحيد فلسطين وشرقي الاردن سوف يضع حدا للكارثة • اذ نستطيع أن نتولى تصريف الشئون الادارية بفعالية وننشىء جيشا للدفاع عن أنفسنا • وستغلق أبواب الهجرة غير الشرعية • واني أود مع ذلك أن أعرف اذا ما كان لديكم اقتراح آخر » •

بهذه العبارات كان يتحدث أمير شرقي الاردن • وقد أكد التاريخ فيما بعد صحة نظرة جدي للامور • ولكن لسوء الحظ لم يقبل أحد الاستماع الى رأي الرجل الوحيد الذي تنبأ بالخطر • في كانون الثاني (يناير) ١٩٣٩ اجتمع كبار زعماء العرب في لندن لمناقشة القضية الفلسطينية• وبعد بضعة أشهر أذاعت بريطانيا العظمى بلاغا أعلنت فيه أن دولة فلسطينية مستقلة سوف يجري انشاؤها خلال السنوات العشر القادمة • قرأ الملك عبد الله هذا البلاغ وكتب فيما بعد الى بريطانيا العظمى : « اذا كنتم تعتبرون أن للشرق الاسلامي من بورما الى طنجة قيمة ما ، فان المستر أتلي والمستر بيفين ملزمان بتعديل هذا الوضع » •

وفي الوقت الذي كانت هذه القصة المشئومة القذرة تسير في مجراها وتتقدم في طريقها المحتوم نحو خاتمتها المحزنة ، اجتمع ملوك ورؤساء الجامعة العربية في أنشاص بمصر عام ١٩٤٦ ، وأعلنوا في بلاغ مشترك أن « القضية الفلسطينية تهم سائر العرب وليس الفلسطينيين العرب فحسب » • ومنذ ذلك الحين أصبحت القضية الفلسطينية ملزمة للعرب في سائر أنحاء العالم • هذا التنبيه من قبل زعماء العرب لم يلق أذنا صاغية • وبعد أقل من سنة قررت بريطانيا العظمى انهاء انتدابها •

أوفدت منظمة الامم المتحدة فورا لجنة خاصة لدراسة قضية التقسيم ، وقدمت تقريرها في آب (أغسطس) • ولكن أعضاءها لم يجمعوا على رأي موحد • فقد أوصى سبعة منهم بالتقسيم وأيد ثلاثة منهم اقتراح الملك عبد الله وهو الاتحاد الفدرالي بين الكانتونات اليهودية والعربية • أما العضو الاخير في اللجنة فقد صوت ضد أية توصية مهما كانت •ومن المفيد أن نعرف ماذا حدث بعدئذ •

شكلت منظمة الامم المتحدة لجنة « مختصة » اوكل اليها دراسة التقرير فرفضت هذه اللجنة بأكثرية خمسة وعشرين صوتا ضد تسعة عشر صوتا مؤيدا وأحد عشر صوتا مستنكفا ، الاقتراح العربي باحالة تصريح بلفور الى محكمة العدل الدولية • وهكذا رفض أكثر من نصف أعضاء اللجنة التصويت ضد مشروع القرار العربي •

لم تتوقف الامور عند هذا الحد• فعندما صوتت اللجنةالى جانب أو ضد تبني تقرير اللجنة الخاصة المؤيد للتقسيم ، أقر الاقتراح بأكثرية (٢٥) صوتا مؤيدا ضد (١٣) صوتا معارضا و (١٧) صوتا مستنكفا • وهذا يعني أن (٢٥) عضوا في اللجنة فحسب أيدوا مبدأ التقسيم من أصل (٥٥) عضوا ومنذ ذلك الحين تدهورت العلاقات بين الغرب والعرب • هذا التطور قد أكده وزير الخارجية الباكستاني السير ظفر الله خان ، عندما وجه التحذير الى العالم الحر :

« تذكروا أنكم سوف تحتاجون غدا الى أصدقاء وحلفاء في الشرق الاوسط • انني أتوسل اليكم ألا تقوّضوا المكانة والحظوة والثقة التي يتمتع بها العالم الحر في هذه الاقطار » •

وقد (حاول) الصهاينة ، قبل التصويت في الجمعية العامة ، أن يكتسبوا لقضيتهم أواخر المترددين • واعترفوا علنا بأن الرئيس

ترومان قد ساعدهم في هذا الاتجاه ٠ كما توصلوا الى اكتساب أصوات الكتلة السوفيتية ٠ وفي ٢٨ تشرين الثاني (نوفمبر) أقرت الجمعية العامة مشروع قرار التقسيم بأكثرية (٣٣) صوتا ضد (١٣) واستنكف عشرة أعضاء عن التصويت ٠ كان ذلك نهاية لكل الآمال ٠ ولقد أوجز السير ظفر الله خان ببلاغة مشاعر معظم الوفودبهذه العبارات :«وكما قال أعظم الامريكيين:ان الله قد وهبنا القدرة على تقييم الخير وتقديره ٠ ولقد بذلنا ما في وسعنا لعمل الخير » ٠ لقد نجحنا في اقناع عدد كبير من الوفود الشقيقة للعمل في هذا الاتجاه ولكنهم لم يسمحوا لها أن تدافع عن العدالة ٠ اننا لا نكنّ في نفوسنا أي شعور بالشكوى ضد الاصدقاء والوفود الذين أرغمهم الضغط الصريح الواضح على التصويت الى جانب اقتراح ينتهك روح العدالة ومعنى الانصاف ٠ اننا نشعر بالتعاطف مع الوفود التي كانت تريد من ناحية أن تتصرف بوحي من روحها ووجدانها ولكنها من ناحية أخرى تعرّضت هي وحكوماتها للضغوط التي نعرفها » ٠

وهكذا بدأ الصراع ٠ وفي ١٤ أيار (مايو) ١٩٤٨ انتهى الانتداب البريطاني ٠ وأعلن قيام دولة اسرائيل ٠ فاعترف الرئيس ترومان وروسيا السوفياتية فورا بالدولة الجديدة ٠ وفي ١٥ أيار (مايو) وهو تاريخ رحيل القوات البريطانية عن فلسطين أرسلت الاقطار العربية قواتها الى البلاد لاعادة النظام وحماية السكان العرب المحاصرين ٠

عينت الدول العربية جدي قائدا أعلى لسائر القوات العربية ٠ ولسوء الحظ كان هذا التعيين محض وهميا ٠ فقد اكتشفه فيما بعد ، لانهم لم يمنحوه أبدا السلطة اللازمة لمراقبة وتنظيم شئون قوات الدول العربية الاخرى وقيادتها بصورة فعلية ٠ حتى الاذن بتفتيشها قد منع عنه ٠

انني أذكر صديقا لجدي رآه في نفس اليوم الذي بدأ القتال فيه قال الملك : « سوف أقود قواتي الى المعركة وسوف أقاتل بنفس

الحرارة والحمية ونفس الشجاعة التي أبديتها دوما عندما كان الامر يتعلق بالمثل العليا للثورة العربية » ٠ ثم أمسك عن الكلام فقد استعاد الى ذاكرته خلال لحظة ، الماضي وسائر الجهود المهدورة التي بذلها للتوصل الى السلام ، لانه أضاف والأسى يعتمل في قلبه : « سوف أقاتل الى أقصى مدى تبلغه قواي ٠ ولكن ما أرجوه وأتوقاليه ، هو أن أموت في ساحة المعركة برصاصة في الرأس » ٠ ولحسن الحظ صان الله حياته لعدة سنوات أخرى أتاحت له خدمة القضية العربية الكبرى ٠ وبالفعل أظهرت اللحظات الاخيرة من الحرب مدى ما كان يتحلى به من بأس وشجاعة ٠ فقد كان اليهود الذين ازدهاهم النصر الذي أحرزوه على مقاومة عربية سيئة التنسيق والاستعداد ، قد استولوا في كل مكان على الاراضي التي كانوا يجدونها في طريقهم ٠ فطرد آلاف اللاجئين من منازلهم بوحشية وهربوا الى كل جهة ٠ ذهب الكثير منهم الى غزة ، ولكن معظمهم اتجهوا نحو الشرق ٠ مئات الآلاف من اللاجئين الذين استبدّ بهم اليأس والجوع وحطمهم التعب والاعياء ، عبروا النهر للدخول الى شرقي الاردن ٠

كان جدي الذي شهد له الجميع بالشجاعة والاقدام وشدة البأس يزور مخيمات اللاجئين الواحد تلو الاخر ٠ كان ربعة القامة ، ممتلئا صلب العود ملتحيا ، دائم الاناقة في لباسه ٠ فاستأنس به كل فرد من اللاجئين وجعلوا يلتمسون منه العون مما جعلهم ينضمون جميعا تحت لوائه ٠

وعندما توقف القتال ، اجتمع أكثر من ألفين من وجهاء الفلسطينيين في أريحا وقرروا ضم ما تبقى من فلسطين الى الاردن بزعامة الملك عبد الله ، وبذلك أحرز جدي أعظم الانتصارات ، ألا وهو انتصار القلوب ٠ وبينما كان القادة العرب الآخرون يضيعون الوقت في الرجاء والامل ، وفي التقديرات والحسابات ، ويتراشقون باللوم والانتقادات ، كان الملك عبد الله منهمكا في العمل ٠ فقبل أن يدمج في المملكة الاردنية الهاشمية الجزء من فلسطين الذي

أنقذته القوات الاردنية ، والذي يمتد حتى الضفة الغربية من نهر الاردن التي كانت تشكل الحدود القديمة للبلاد . وهكذا غدت (الضفة الغربية) من النهر منطقة هامة من المملكة الاردنية الهاشمية . ولا مراء في أن الملك عبد الله ، بهذا الضم ، قد حال دون الحاق هذه المنطقة الكبيرة من فلسطين باسرائيل . ويحسن التذكير بأن الجيش العربي الاردني في عام ١٩٤٨ لم يزد تعداده عن أربعة آلاف وخمسمائة رجل .

وعندما سمحت الظروف، أجرى الملك انتخابات نيابية في ضفتي النهر ووسع مجلس النواب لكي يتيح للفلسطينيين أن يكونوا ممثلين أليق وأفضل تمثيل . وبذلك تغيَّر وجه الاردن خلال بضعة أشهر فقط . فقد جاء قرابة مليون فلسطيني ، كمواطنين متساوين في الحقوق والواجبات لتضخيم عدد سكان الاردن الذين كانوا يبلغون أربعمائة ألف نسمة . وخلال ثلاث سنوات ارتفع عدد سكان عمان من ثلاثين ألفا الى مائتي ألف .

ولكن على الرغم من هذه المأثرة الفريدة من نوعها ، التي كانت ترمي الى ضمان ورعاية مصالح الاشقاء المعدمين الذين سلبوا كل شيء ، وهو ما لم يفعله أي قطر عربي آخر ، فما زال يوجد حتى اليوم مئات الآلاف من اللاجئين الذين يعيش معظمهم في الاردن .

اننا جد فخورين بالعناية والرعاية الرائعتين اللتين أحاطت بهما بلادنا هذا الشعب المنكود الحظ . ان هذه الضيافة وهذا الايثار لتتميز بهما أخلاق الناس في بلادي . لقد عالجنا فقط مشكلة اللاجئين الفلسطينيين . ولكي نحفظ عليهم طموحاتهم وكبرياءهم كان علينا أن نعاملهم ككائنات انسانية وأن نكف عن اعتبارهم أرقاما . يمكن للمرء أن يكون حيا وميتا في آن واحد ، وهذا ما لا ينبغي أن يحدث عندنا . لقد جلب لنا هذا العمل الفردي ما لا ينقطع من الهجوم واللوم والانتقاد من قبل الاقطار العربية الاخرى التي بلغ بها الامر حد اتهامنا بالترحيب بالفلسطينيين عندنا لكي ننسيهم قضيتهم الحقيقية ووطنهم .

صحيح أن ما فعلناه في هذه السنين الاخيرة لم يأت بالحل الحقيقي ، بل كان بمثابة الدواء المسكِّن أو الوسيلة التي لا تفي بالغرض المنشود . ولكن يجب أن لا يغرب عن البال بأن مشكلة اللاجئين هي النتيجة الواضحة الجلية لتخلي بلاد الغرب عن سلطتها . انني لا أعتقد بأن حل مشكلة اللاجئين يمكن أن تحل على وجه الصحة ، القضية الاساسية ، ألا وهي أن تعاد الى الفلسطينيين الاراضي التي كانوا يقطنون فيها منذ ألفي عام .

لقد حلَّت القمة الاخيرة في الرباط المعقودة في تشرين الثاني (أكتوبر) من عام ١٩٧٤ ، بعض المشاكل . وحل موقف منظمة الامم المتحدة بعضا آخر منها . ولكن الطريق الذي يفصلنا عن الحل النهائي ما زال طويلا . فالقضية الفلسطينية سوف لن تجد حلا لها الا عندما ترغب في ذلك حقيقة الاطراف المعنية . لا بد قبل كل شيء من توفر الرغبة الاكيدة في ايجاد الارضية اللازمة للاتفاق العام التي تسمح بالتقدم نحو حل عادل ومشرف . وانني أفضِّل ، مراعاة للاستقامة ، أن أعترف بأنني لا أرى في الوقت الحاضر أي تمهيد لاتفاق كهذا . فدولة اسرائيل تفعل كل شيء من أجل تدعيم موقفها وان ما يصدر عنها مماثل بشراسته القومية لما صنعه هتلر ازاء اليهود عندما طردهم من المانيا . مقابل هذا يود الفلسطينيون العرب أن يستردوا حقهم في العودة الى أوطانهم ولكن طموحات الدولة اليهودية التي تتسم بالغلو في التعصب القومي ، قد بلغت من الحدة مبلغا جعلها تعتبر كل عودة ذات أهمية للعرب الى أوطانهم ، ليست تهديدا موجها لأمنها الداخلي فحسب ، بل انها تفسر حتى الوجود العربي في القسم الفلسطيني الذي يحتله اليهود ، بأنه تهديد ضد كيانها نفسه .

أما العالم العربي فقد حدَّد ، على العكس من ذلك ، كهدف له ، قومية أكثر تسامحا ، تصون هوية مختلف الدول العربية وتتطلَّع في الوقت نفسه الى حياة مشتركة محتملة التحقيق ضمن كيان أرحب . فنحن لسنا مهددين بالوجود الطبيعي لدولة اسرائيل

فحسب ، ولكننا مهددون أيضا بردود الفعل لكثير من الحكومات العربية وزعمائها على أثر الدعم الممنوح من الغرب الى الدولة اليهودية ، هذا الدعم الذي كان على جانب كبير من الاهمية فيما مضى • والذي جعل يتراخى اليوم بعض الشيء • لذلك يجب أن لا نبحث بعيدا عن أسباب التقارب بين بعض البلاد العربية والاقطار الشيوعية المعادية للعالم الحر •

لقد قاوم الاردن دوما هذا الاغراء بحزم وعزم وتصميم ، ولو أن من البديهي أن مقدرتنا على المساهمة في معركة العالم الحر قد كانت بلا انقطاع مرهونة الى حد كبير بموقف الاقطار الغربية ازاء اسرائيل •

لقد كان الشرق الاوسط في كل العصور احدى الدوائر الحاسمة في الحرب الباردة ثم في الحرب الساخنة • ولقد كان نابليون محقا عندما أطلق عليه اسم «مفترق طرق العالم» ان القضية الفلسطينية لا يمكن فصلها عن النضال الكبير من أجل الحرية الذي تقف الانسانية في مواجهته فاذا كانت بلاد الغرب تبحث عن الاستقرار في الشرق الاوسط واذا أرادت اكتساب صداقة الشعوب العربية والدول العربية واعتبرت هذه الصداقة السور المنيع ضد الشيوعية ، فعلى بلاد الغرب في النهاية أن تأخذ زمام المبادرة في اقتراح مشروع لفلسطين ، مشروع نهائي مستوحى استيحاء عميقا من مبادىء العدالة السياسية والاقتصادية • ولئن كانت قضية الحرية قد هزمت في الشرق الاوسط فان ذلك ما هو الا نتيجة لتخلي العالم الحر عن مبادئه التي كان يؤمن بها • ان كل صدع يحدث بين المبادىء والممارسة العملية سيكون مصدرا للفوضى وعدم الاستقرار •

ان أعداء الحرية الذين يتسترون بالظلام لهم دوما على استعداد للنفاذ من خلال هذه الشقوق • وهم يترقبون اللحظة المناسبة لتوسيع هذه الخروق والثغرات •

كان عاما ١٩٥٦ و ١٩٥٧ عامين عسيرين جدا عليكم • فهما السنتان الاوليان اللتان اضطررتم فيهما أن تتخذوا أولى قراراتكم الهامة • أولا طرد كلوب باشا ثم مجابهاتكم مع حكومتكم • وأخيرا قضية الزرقاء •

انها لمهنة شاقة أن يكون المرء رئيس دولة لا سيما قبل عشرين عاما • تعود أولى تجاربي كملك للاردن الى عام ١٩٥٦ • فاستقالة الجنرال كلوب بعد خدمة في الاردن بلغت ستة وعشرين عاما ، كانت حدثا هاما جدا • وينبغي أن يكون المرء أردنيا أو أن يعرف مشاكل بلادي معرفة عميقة ، ليتسنى له ادراك أهمية هذا الحدث اد توجد دوما في تاريخ البلدان الصغيرة لحظات حاسمة يتوجب على المرء فيها أن يكبح جماح عواطفه الشخصية وأن يطلق العنان للموضوعية • وهذه كانت الحال بالنسبة للجنرال كلوب فقد أحدثت استقالته بعض الدهشة والذعر في العالم • وكثير من الناس من أخذ عليّ بمرارة هذا الحل المتطرف • لقد أوّل موقفي تأويلا خاطئا جدا على أنه اهانة متعمدة أصيب بها الحلفاء الغربيون ، وعتبوا عليّ بتسرع ، ان أصر على استقالة كلوب لاضع حدا لصداقتنا مع انكلترا • هذا التأويل الذي نشر على نطاق واسع من قبل الصحافة الغربية ما هو الا محض اختلاق • ولعل مما يبعث على السخرية حقا أن يعتقد المرء أو أن يوحي الى الآخرين بأن سفيرا اذا ما أصبح غير مرغوب فيه وجب أن يُعتبر رحيله على أنه دلالة على النفور والعداء نحو حكومته •

يجهل الرأي العام عموما أن عزل الجنرال كلوب كان قضية أردنية تماما • لان كلوب كان قائدا عاما للجيش العربي الاردني • وكان يعمل لحساب حكومتي •

لقد كان السبب الرئيسي في عزله يقوم على عدم التفاهم بيننا

وعلى خلافنا حول مسألتين جوهريتين : دور الضباط العرب في جيشنا ، واستراتيجيتنا الدفاعية ٠ فأحد واجباتي كملك هو تحقيق الامن لشعبي وبلادي ٠ ولو لم أقم باستبداله لما كنت قد مارست أعباء مسئولياتي ٠ ان ما تم كان من الواجب أن يتم ٠ وانني أعرف ، بعد أن انقضت الاعوام الطويلة على ما حدث ، أن كلوب باشا قد قنع بوجهة نظري، اثر مناقشة الامر معه فيما بعد٠

لقد كنت والجنرال مختلفين تمام الاختلاف حول موضوع أساسي : كنت أرغب في ترفيع الضباط الاردنيين الى المناصب العليا في الجيش وفي أن يتولوا قيادته طبقا لخطة واقعية ٠

هذا الاختيار كان يضايق سياسة التسلط التي كانت تنتهجها انكلترا التي كان قد صدر عنها في ذلك العهد عبارات طائشة ومثيرة للسخرية ٠ لقد نصّت المعاهدة الانكليزية - الاردنية على حق الاردن في أن يستوفي مساعدة مالية تبلغ اثني عشر مليون جنيه سنويا ، وعلى التزام بريطانيا العظمى في أن تقدم الضباط اللازمين لتنظيم الجيش الاردني ٠ ولكن الانكليز كانوا من الناحية العملية يقودون الجيش ٠

ولما كنت خادما للشعب ، فقد كان عليّ أن أعطي الاردنيين مزيدا من المسئوليات وكان من واجبي أيضا أن أقوي ثقتهم بأنفسهم وأن أرسخ في أذهانهم روح الكرامة والكبرياء القومي لتعزيز قناعتهم بمستقبل الاردن وبدوره ازاء الوطن العربي الكبير فالظروف والشروط كانت اذن ملائمة لاعطائهم مكانا أكثر أهمية في تدبير وادارة شئون بلادهم لا سيما في الجيش ٠ وعلى الرغم من حب الجنرال كلوب للاردن ومن ولائه واخلاصه لبلادي فقد كان يقف عائقا دون تحقيق ذلك ٠ ولعل من مظاهر هذا التناقض أنه منذ أن كان الجيش العربي الاردني يشكل ركن الاردن الاساسي ، أصبح كلوب أحد الرجال الاقوى والاوسع سلطة في البلاد ٠ ولكن على الرغم من أن كلوب كان القائد العام لجيشي ، فلم يكن في مقدوره أن

ينسى اخلاصه وولاءه لانكلترا ٠ هذا الوضع يفسر سيطرة لندن فيما يختص بشئوننا العسكرية ٠ كان الجيش يفيض بالضباط الشباب غير المؤهلين والخاضعين تماما لاوامر وايتهول التي كان يمثلها كبار الضباط الانكليز ٠ هؤلاء الاردنيون الشبان كانوا يتميزون بانعدام الطموح وروح المبادرة ، بينما كان يجب عليهم في نظري أن يشكلوا أمل جيشنا ومستقبله ٠ أما اولئك الذين تعتلج في نفوسهم الطموحات القومية وتتوق نفوسهم الى جيش أردني عربي ، فقد أقصوا ، وعهد اليهم بوظائف ثانوية لا أمل فيها بالترقي ٠ كانت خيبة الامل قاسية الوطأة على نفوس الشباب ٠ ولقد طلبت مرارا من الانكليز أن يدربوا مزيدامن الضباط الاردنيين القادرين على الارتقاء الى الرتب العليا ، وكان البريطانيون يتجاهلون مطالبي ٠ كان أعلى منصب يستطيع أن يطمع فيه الاردنيون هو منصب قائد سرية ولا شيء أكثر من ذلك ٠

بعد أشهر من المفاوضات التي اتسمت بالصبر والاناة ، استجيب الى طلبي ٠ لان انكلترا قبلت أخيرا أن تعرض علينا خطة للتعريب يتم بمقتضاها منح الضباط الاردنيين في المستقبل مزيدا من الامتيازات ٠ كان ذلك (نصرا) أو على الاقل كنت أعتقد ذلك ٠ وقد قوبل هذا النبأ بالترحيب الحار من جانب أعضاء حكومتي ٠ بقي الآن أن تعرف ماذا كان يُفهم من عبارة (المستقبل) بعد قليل حصلت على فكرة عن الموضوع ٠ اذ أنهم أبلغوني رسميا بأن سلاح الهندسة الملكي في الجيش العربي الاردني سوف يتولى قيادته ضابط عربي في عام ١٩٨٥ ٠ كيف يمكن لحكومة أن تبلغ من الواقعية الى هذا الحد القليل ؟ لم تدرك انكلترا في ذلك العهد أنه لا يمكن تجاهلّ طموحات شعب ، بقولها : « سوف نتحدث عن ذلك بعد ثلاثين سنة » ٠

انني أول من يعترف بأن من المحتمل أن لا يكون ذلك بخطأ من كلوب فالجنرال لم يزد على أن كان ينقل أوامر وايتهول ٠ وهو على كل حال قد حاول مرارا مساعدتنا ٠ ولكن موضوع الجيش بقي دوما

بدون حل : في حين أنه كان علينا أن نقدم لرجالنا وشبابنا امكانات تستحق الاهتمام ، لا سيما عندما نعرف أن الجيش في الاردن ليس أداة للدفاع ضد الغـارات الاجنبية فحسب ، بـل هو أيضا ، وعلى الاخص جزء لا يتجزأ من الامة بأسرها ٠

لقد كانت تقاليد وتاريـخ الشعب الاردنـي تمنح دومـا الجندي المقاتل نظاما تفضيليا ٠ وقد كان الانخراط في سلك الجندية عندنا من قديم الزمان ، مدعاة للسعادة ٠ كان لرجالي دوما احسا س رفيع بالكرامة والعزة ٠ ولـم يستطع جندي في العالـم العربي أن يطاول جنود جيشي كبرياء وأنفـة ٠

أما حالة الضباط فقد كانت مختلفة لانهم كانوا لا يرون أي أمل أو رجاء في الترقي في المهنة التي اختاروها ٠

ولم يقف الامر عند هذا الحد لان مشاعر شخصية جاءت لتنضم الى كل ذلك ٠ فالجنرال كلوب الذي كان آنئذ قد قارب الستين مـن العمـر ، قـد عـاش فتـرة طويلـة بينـا بحيـث كـان لا يستطيع أن يتصور استمـرار الحيـاة في الاردن بدونـه ٠ كان يبلغ ثلاثة وعشرين عاماعندما استخدم في العراق ٠ ومنذ عام ١٩٢٠ كان يشكل جزءا من العالم العربي ٠

لقد وصل الى شرقي الاردن للمـرة الاولى في عـام ١٩٣٠ لتولـي قيادة (قوات البادية) وأصبح قائدا للجيش العربي الاردني منذ عام ١٩٣٩ ٠ وقد أطلق البدو عليه لقب (أبو حنيك) أي (الاب ذو الذقن الصغيرة) لان أحد فكيه كان مشوها ٠ كان المسرح السياسي يتطور بسرعـة ٠ كان رجـال السياسة يأتون ويذهبـون والسفراء يتغيرون ولكن كلوب كان دوما في منصبه فعالا نشيطا فائق اللطف والتهذيب ٠ بيد أن شيئا مع ذلك قد تغير ٠ ألا وهو العصر ٠

ست وعشرون سنة تمثل أكثر من ثلث حياة رجل ٠ وطوال هـذا الزمن ، ابتعد كلوب بعـدا شديدا عن العالـم الخارجي ٠ لقـد كان

متأثرا تأثرا عميقا بالعصر الفكتوري ٠ كان يحلو له أن يقول بأنني شاب متقد الحماسة وأنه أكبر سنا وأكثر اعتدالا ٠ كان يقول حقا، ولكنه نسي أن الاردن أمة شابة مندفعة العواطف وأننا كنا وما زلنا أكثر نفاد صبر مـن كلوب في تحقيق أهدافنا وأمانينا القوميـة ٠ كانت هذه الحيوية تتطلب الكثير من اليقظة والحذر ٠ فبالرغم من أنه جندي صالح مثالي ، كـان لكلوب وقـد قارب الستيـن عاما ، مفاهيم عسكرية عتيقة الطراز بعض الشيء ٠ فلم نكن غالبا على اتفاق حول دور الدفاع الاستراتيجي للبلاد الذي كان يريد أن يقيد الجيش به ولا سيما حول مفهومه الخاص بدفاعنا ضد اسرائيل ٠ كان هذا هو المظهر الثاني من مظاهر خلافنا ٠

لقد سبق لي أن قلت بـأن للاردن ، أطول حـدود مشتركة مـع اسرائيل بين سائر الاقطار العربية ، أي حوالي ستمائـة وخمسون كيلو مترا ، لقد أصاب العالم العربـي بانشاء اسرائيل ، ضربـة قاصمة ٠ فالجيوش العربية التي كان يعوزها التدريب والتي كانت سيئة التسليح وينقصها التنسيق والاستراتيجية المشتركة ، قد لحقت بها المذلـة والاهانـة ٠

في الواقع كان الاردن وحده هو الذي خرج سليما ٠ اذ علـى الرغم من أن الجيش العربي الاردني لم يكن قد أعد للمعركة سوى أقل من أربعة آلاف وخمسمائة رجل ، فقد وفقنا في انقـاذ معظم الجزء من فلسطين الذي خصص للعرب ، وحققنا ما كان يعتبر حلما فـي نظر العالم العربي ، ألا وهو صيانة القدس والاماكن المقدسة ٠

كان رد الفعل مـن جانب البـلاد العربية الاخرى غيـر معقول ٠ فمعظم الزعماء العرب المسئولين عن الهزيمة والذين سحق قلوبهم الحسد ورغبوا في ايجاد كبش فداء ، كانـوا يقذفوننا بجحيم مـن دعاياتهم ، ويتهموننـا بمسئولية الهزيمـة ٠ وكانت مصر علـى رأس المفتريـن ٠

أما حجتهم فهي أن كلوب الانكليزي هو الذي كان يقود الجيش

العربي الاردني : كان عذرا سهلا مريحا هينا لهذه الدول العربية التي لم تجرؤ على القتال ، ولكن الدرس قد أفادنا فقد أدركنا أنه لا مجال بعد الآن اطلاقا لترك المبادرة بين أيدي اسرائيل ٠ كان ذلك في عام ١٩٥٦ ٠

كنت أرى أنه علينا في حالة نشوب حرب أن نؤمّن دفاعنا على طول الحدود الاسرائيلية ـ الاردنية وأن نصمد مهما كلف الامر حتى الموت ٠ لقد فكرت بأنه من الوهم ، اذا لم نقل من باب الانتحار ، أن نحدد ، كهدف لجيشنا ، الدفاع عن سائر حدودنا ، وأن نقاتل قتالا دفاعيا فقط ، لان قوة صغيرة العدد كقوتنا لا تستطيع أن تدافع عن حدود طويلة كحدودنا ٠

لذلك قررنا أن نؤمن التدريب العسكري لجزء من السكان المدنيين أسميناهم في البداية (حرس الحدود) ثم الحرس القومي أما مهمتهم فتقوم على الدفاع عن الحدود لكي تتيح للجيش الاكثر تدريبا وتجهيزا ، في حالة قيام العدوان ، توجيه ضرباته في نقاط محددة ٠

بدأت فكرتي تسير في طريقها ٠ اذ أصبح الحرس القومي في ذلك الحين ضعف عدد القوات المسلحة النظامية ، وغدا مجهزا تجهيزا مساويا لها ٠ ولكن ذلك لم يكن كافيا ٠

وفي رأيي أن استراتيجية دفاعية صرفة لاتستطيع الا أن تتسبب في هزيمتنا ٠ فالعدو سيراعي جانب التروي وامعان النظر مرتين قبل أن يهجم اذا ما كان قانعا بأن الرد الشديد سيتلو غاراته ٠

وكنت أيضا مقتنعا بأن علينا أن نرد بقوة على غارات المغاوير (الكوماندوس) الاسرائيليين على القرى العربية ٠ فلطالما عبر اليهود حدودنا سرا وأحرقوا البيوت والقرى وقتلوا السكان العرب العزل ٠

لقد كنت من أنصار الرد الفوري ، أي أنه كلما ارتكب الاسرائيليون عدوانا توجب علينا أن نضرب هدفا مختارا في الجانب الاخر ٠

لقد أدانت منظمة الامم المتحدة الاسرائيليين ٠ ولكن اليهود لم يكونوا ليكترثوا بذلك الا قليلا ٠ مما جعل الناس يسخرون من جنودنا ٠ ورويدا رويدا ولكن بصورة مؤكدة ثابتة ، بدأت تنشأ هوة بين الشعب والجيش ٠

وعبثا أبنت وشرحت كل ذلك لكلوب ٠ فقد كان الجنرال يواصل النصح بمراعاة جانب الحكمة والحذر ٠ كان يحبذ تراجع قواتنا الى الضفة الشرقية في حالة قيام هجوم اسرائيلي ، ريثما تأتي الامدادات ، لشن هجوم معاكس ٠ وهذا يعني بوضوح احتلالا يهوديا للاراضي الفلسطينية التي ضمت الى الاردن والعودة الى الحدود الاصلية ٠ كان ذلك غير معقول ٠ ولكن على الرغم من تحسن طاقاتنا العسكرية التي أتاحت لنا أن نحدد خطا دفاعيا على الارض الفلسطينية أكثر ايغالا الى الامام مما قدره كلوب ، فاننا مع ذلك قد فقدنا جزءا كبيرا من أراضينا ٠

ومع أن كلوب كان يعرف أن مليون عربي قد طردتهم اسرائيل من الاراضي التي ولدوا فيها فانه لم يستطع أن يفهم بأن اسرائيل اذا ما اخترقت الاراضي الاردنية لا سيما في الضفة الغربية ، سوف لن يستطيع الاردنيون استرجاع هذه الاراضي ٠ ولقد برهنت حرب عام ١٩٦٧ ، بعد أحد عشر عاما ، أنني كنت محقا فيما ذهبت اليه٠

لقد ناقشنا طويلا أنا وكلوب ، هذه النظريات الدفاعية ، خاصة وأننا علمنا بأن الذخائر كانت تنقصنا ٠ فاذا صح أن نظريته يمكن تبريرها في بعض النقاط ، فانه يبقى أن زمن النظريات قد ولى ، لان الامر يتعلق بشرف الامة أو بالعار الذي يلحق بها ٠

عندما غدت هدنة الامم المتحدة في عام ١٩٤٨ حقيقة واقعة ،

كانت احدى الشروط الرئيسية تنص على أنه لا يحق لاي من الاطراف المعنية أن يزيد من طاقاته العسكرية ، واذا كانت بريطانيا التي كانت ملتزمة بتزويدنا بالسلاح ، قد أوقفت مدّنا به فان اسرائيل كانت تتلقى السلاح الذي تحتاج اليه ، حتى أنها أوصت على كميات كبيرة منه في المعسكر الشيوعي • وهكذا لم يغير قرار حظر توريد السلاح من الامر شيئا •

وقلت عندئذ لكلوب : « لماذا لا نستطيع أن نحصل على مزيد من كميات السلاح ؟ » •

لقد كنت أعرف أن جوابه سوف يكون متسما بالحيرة والارتباك والضيق • لانه كان قد سبق له أن طلب ذخيرة من لندن ، وأنه في عام ١٩٤٨ كانت سفينة محملة بالمعدات متجهة نحو شواطئنا قد أعادها البريطانيون ومنظمة الامم المتحدة من حيث أتت ، عند بدء سريان مفعول قرار حظر السلاح • وكنت أعرف أيضا بأنه كان يحض بريطانيا العظمى على ارسال مزيد من السلاح والذخيرة الينا

لقد بذلنا كل ما في الوسع عبثا في سبيل الحصول على المزيد من الذخيرة من الحكومة البريطانية لان أسلحتنا جميعها من صنع بريطاني • ولكن لندن كانت تتعلل دوما بضرورة (توازن القوى) بين جميع الاقطار العربية من جهة وبين اسرائيل من جهة أخرى • وهكذا كان الاسرائيليون يستمرون في تلقي السلاح من فرانسا ومن بلاد أخرى ، أما نحن فكنا نحس بأننا موضع الهزء والسخرية •

فما دام أن بريطانيا ترفض أن تزودنا بالسلاح ، فانني لا أستطيع ، مراعاة لمقتضيات الامانة ، أن ألوم كاوب على رغبته في أن يحصر مهمة جيشنا في دور محض دفاعي • لقد كان والحالة هذه ، محقا في اعتقاده بعدم قدرتنا على الدفاع عن حدودنا بصورة ملائمة • ومع ذلك فان وجود الجنرال في بلادنا ، مذموما ومطعونا في شخصه من قبل الكثير من الناس ، قد أصبح عاملا باعثا على القلق الاكيد • لقد كنا خاضعين للاجنبي ، فاذا كان كلوب ، بصفته

جنرالا ، لا يستطيع أن يؤمن لنا مخزونا كبيرا من السلاح والذخيرة فهو ليس خليقا ، بأن يسخو علينا بنصائحه ومشوراته حول التكتيك العسكري الذي نعتمده • انظر ماذا حدث منذ رحيله ، لقد ازداد مخزوننا من السلاح ازديادا كبيرا ، واستمد الجيش العربي الاردني قوته من تطبيق هذه البديهية العسكرية ألا وهي : زوّد الجندي بالوسائل الضرورية وبالاسلحة الملائمة •

ولقد حاولت أيضا أن أجهّز الاردن بقوة جوية خاصة به اذ لايعقل أن نكون تابعين لبلد أجنبي من أجل تأمين الدفاع الجوي لسمائنا ضد عدو كاسرائيل مجهز بقوة عسكرية جوية هامة • ان وضعا كهذا لا معنى له • فما دام أن الجنرال كلوب عاجز عن تغيير هذا الواقع ، فانه سيشجع الضباط العرب والبريطانيين على قبول فكرة التخلي عن جزء من التراب القومي في حالة وقوع هجوم • لقد كان يؤكد أكثر من مرة في المحاضرات التي كان يلقيها على الضباط بأن اسرائيل بحكم أنها أقوى من العرب ، فان من الوهم أن نقاتل على الحدود • وانني أذكر مرة أنني استشطت غضبا عندما سمعته يشرح علنا نظرياته الدفاعية حول الضفة الغربية •

كانت المشاكل تتراكم على مر الشهور • لقد كنت مصمما على انشاء جيش قوي متوازن يدعمه غطاء جوي هام ، وقد كان تحقيق ذلك مستحيلا ، ما دام كلوب بيننا ، فكان عليّ اذن أن أنفصل عنه •

هنالك احدى المعطيات التي بدأت في الظهور • كانت الشيوعية تتغلغل ببطء في الشرق الاوسط • وكانت القاهرة تتهمنا بأننا (دولة استعمارية) • لم يكن هنالك خيار آخر • ان كلوب يجب أن يرحل •

لقد بدأت مصاعبكم الداخلية الحقيقية بعد رحيل كلوب ٠

كانت الاثنى عشر شهرا التي تلت رحيل كلوب ، فترة تجارب تبعث على القلق أحيانا ٠

فقد ولى الآن عهد النفوذ البريطاني القوي في سائر شئوننا الداخلية ٠ لقد كنت سعيدا أن تستعيد بلادي استقلالها ، ولكنني كنت أعرف أن الفراغ الذي تركه رحيل ضباط الجيش البريطاني ، سوف يحدث ما لا مناص منه من التعقيدات والمضاعفات ٠ ولسوء حظنا فقد كنا مضطرين أن نبدأ من الصفر ٠ كان علينا قبل كل شيء أن نجد الرجال القادرين على ادارة بلادنا وبشكل خاص قيادة جيشنا ٠ لقد كان الوجود البريطاني من العمق والشمول بحيث أن ضباطنا لم تتح لهم امكانية اثبات مقدرتهم في تولي المناصب ذات المسئولية ٠ فكان علينا أن نجري تجاربنا الخاصة وما يستتبع ذلك من ارتكاب ما لا مفر منه من الاخطاء ٠ وعلى المسرح السياسي كانت تواجهنا نفس المشكلة ، لان حكامنا منذ سنين ، قد توقفوا عن التفكير في الاردن كبلد مستقل ٠ فقد جرت العادة في وقت الازمات أو الخلافات أن يذهبوا لزيارة السفير البريطاني من أجل استشارته ٠

على مر الشهور ازدادت الضغوط ٠ وبعد سنة من رحيل كلوب ، في ربيع عام ١٩٥٧ ، تمكنت من القضاء في الوقت المناسب على مؤامرة أعدت ببراعة ، عُرفت بتمرد الزرقاء ، كانت ترمي الى اغتيالي لخلق الاضطراب والفوضى في الاردن واعلان الجمهورية ٠ كان يعني نجاح هذا الانقلاب (بداية النهاية) بالنسبة للاردن ٠

كيف أوشكَ أن ينجح عصيان بهذه الاهمية ؟ كيف وجدت نفسي وحدي تقريبا في خط اطلاق النار بين فريقين من الضباط ؟ كيف

استطعت أن أنجو بينما كان الرصاص يلامسني عن قرب وكنت أحس برائحته وحرارته ؟

ان الاجوبة على هذه الاسئلة تستهوي القلب ٠ كما أن القضاء على المؤامرة يدخل في باب المعجزات ٠ هنالك أمر مؤكد وهو أن تمرد الزرقاء الذي كاد أن يكلفني حياتي يشكل ، بما يدعو الى السخرية والتهكم ، نقطة تحول في تاريخ الاردن ٠ بعد مرور العديد من السنين تحملني قضية الزرقاء على التفكير في أنها كانت بمثابة تطهير لجرح كان يتقيَّح وينخر بالتدريج قلوب أكثر الرجال اخلاصا ٠

كانت مؤامرة سياسية ، ولكن في هذه المرحلة من تطور الاردن ، كان الجيش يحتل مكانا بلغ من الاهمية حدا لا بد معه ، على الرغم من كل شيء ، أن يحسب له حساب ٠ وقد نجح عملاء الاجنبي المأجورون ، ذوو البراعة الشيطانية في أن يحملوه على التدخل في النزاع ٠ كان انعدام الخبرة لدينا ظرفا ملائما ، وكان يكفي لذلك ايجاد الضباط المترددين والمنعدمي الخبرة ٠

لقد كان انعدام الخبرة هذه نفسها تطبع رجالنا السياسيين بطابعها ٠ وكنت ما زلت أتعلم مهنتي كملك بصبر وأناة وأتولى تقريبا جميع المسئوليات طوال فترة الانتقال هذه ٠ كان الزعماء السياسيون يعتمدون خلال مدة طويلة على المساعدة الخارجية ، فاذا بهم يجدون أنفسهم متخلفين بالنسبة لشباب مثلي كانوا مقتنعين بأن ساعة التحرر من نير الاجنبي قد حانت ٠

فقررت اذن بأن السياسيين وضباط الجيش الشبان يجب أن تتاح لهم الفرصة لاقامة الدليل على شجاعتهم ٠ لقد كنت أعرف أنه يمكن أن يُحصى بينهم طائفة كبيرة من اليساريين ، ولكنني فكرت بأن معظمهم يؤمنون بمستقبل بلادهم ٠ فوددت أن أرى كيف يتحملون مسئولياتهم ٠

وصل الوطنيون الاشتراكيون الى الحكم اثر انتخابات جرت في نهاية عام ١٩٥٦ ٠ كان أمين عام الحزب ، سليمان النابلسي ، قد هزم في منطقته الانتخابية ، ولكن بوصفه زعيما لحزب فائز أصبح رئيسا للوزراء ٠ كان النابلسي من اليساريين ، ولكنني اعتقدت أنه لا بد من منحه الفرصة لتجربة حظه ٠ مضى كل شيء في البداية بلا مشاكل ٠ ولكن ما لبثت المنازعات أن ظهرت بين الملكية والحكومة ٠

ومن الغريب أن يعمد بعض السياسيين الفائزين في انتخابات حرة ، الى التآمر على شخصي بدلا من الاكتفاء بتأييد وتشجيع الاصلاحات لبلادهم ٠٠٠٠ وفي الواقع كان أول « اصلاح » لهذه الجماعة القائمة على السلطة هو القضاء على الملكية ٠و لأسباب غامضة يدخل فيها الطمع والجشع ، اتجهت نحو عبد الناصر والشيوعيين الذين كانوا يعرضون عليهم عاى ما أظن « وجهات بظر مستقبلية أفضل » ٠ كانوا مصممين على عدم التراجع أمام أي شيء ٠ ففي (٢١) كانون الاول (ديسمبر) مثلا ألقى رئيس وزراء الاردن خطابا في مديح الرئيس عبد الناصر استغرق أربعين دقيقة دون أن يشير في أية لحظة الى دور الاردن في الشرق الاوسط٠ كان هنالك ما هو أسوأ ٠ اذ قبل استلام النابلسي للسلطة بأربع سنوات ، كان الاردن قد أصدر مرسوما (بمكافحة الشيوعية) في عام ١٩٥٣ يتضمن منع صدور الصحف الشيوعية ٠ ومع ذلك في ٣١ كانون الاول (ديسمبر) أقرّ النابلسي وأصحابه مشروع قانون يسمح بصدور جريدة (الجماهير) الشيوعية ٠ كما وافق أيضا على منح مكتب لوكالة تاس في الاردن ٠ فبدأت النشرات والافلام السوفياتية في الظهور ٠

وغدت دعايات الاقطار المجاورة أكثر تهديدا ووعيدا ٠ وشوّهت قضية كلوب ، وجرى تأويلها بطريقة خادعة ماكرة ٠ فقد كنت أنا الذي قرر عزل كلوب ٠ ولكن سائر الطامحين الطامعين جعلوا ينسبون لانفسهم مسئولية هذا العمل ٠ كانوا يزعمون بأنهم هم

الذين طردوا (الامبريالية) وجاءوا بالحرية الى الاردن ٠ كانوا في اقتتالهم من أجل السلطة وفي تعجّلهم على استيفاء (مستحقاتهم) يشوّهون ويفسدون ملامح التاريخ الى الحد الذي وصفوني فيه (بعميل للامبريالية) ، واعتبروني العائق الوحيد أمام التوصل الى المزيد من الحرية ٠

!لقد جرى تجاهل تام لمواقفي من قضية السويس !

هذه الحركة الموجهة ضد القصر ، أصابت عدواها بعد قليل ، ضباط الجيش الميالين الى اليسار ٠ انني لا ألومهم تماما ٠ فقد كانت الدعاية مكثفة جدا ٠ وكانت الاموال الهائلة قد وزعت على سبيل الرشوة ٠ كما وعد السوفيات علانية بتقديم السلاح الى الجيش ولكن فقط (بعد رحيل حسين) ٠

لقد كنت قلقا طوال أشهر عديدة ، ولكنني لم أتبين أننا سائرون نحو صعوبات خطيرة الا خلال الاسبوع الاول من عام ١٩٥٧ اذ بينما كنت في احدى الليالي في القصر ، طلب مقابلتي أحد ضباطنا الذي كان معيّنا في منصب في بيروت ٠ كنت أعرفه جيدا ، فقد أرسل الى لبنان في مهمة خاصة ٠ عندما دخل مكتبي ، وقبل أن أدعوه الى الجلوس ، قال لي : « يا صاحب الجلالة انني لا أريد أن أخلق مشاكل حيث لا وجود لها ٠ ولكن سلوك ضباطنا في بيروت ودمشق يقلقني كثيرا ٠ لقد رأيت عسكريين ينفقون ثروات تتجاوز رواتبهم بمراحل ٠ وهم دائما في صحبة الروس والمصريين »

سألت الضابط الذي سأمسك عن ذكر اسمه ، عن السبب الذي جاء به الى عمان ، فأجابني بأنه طلب اجازة أسبوع بحجة زيارة أسرته ، في حين أنه في الواقع كان يود المجيء لمحادثتي ٠

وأضاف : « يا صاحب الجلالة ان ما يحرجني هو أنني لا أستطيع أن أزودكم بأي برهان مادي على ما أقوله ٠ فالامر يشبه ما يحدث في رواية بوليسية حيث لا تستطيعون اللجوء الى الشرطة الا لانكم

لا تملكون اثباتا على ما يشغل بالكم . ولكنني أفكر وأعتقد مخلصا بأن من واجبي أن أحذركم وأن أقدم لكم هذه القائمة من الاسماء . ماذا تريدون أن أفعل الان ؟ » .

أمعنت الفكر قليلا ثم طلبت اليه العودة الى بيروت منذ صباح اليوم التالي ، والاستمرار في مراقبة هؤلاء الضباط . واقترحت عليه أن يستعين بعميلين أردنيين كان اخلاصهما لي مؤكدا واصلنا اذن مراقبة نشاط بعض كبار الضباط ورجال السياسة الذين كانوا ينفقون عن سعة ، خارج الاردن .

ولسوء الطالع جرى توقيف هذين العميلين بينما كانا يأخذان رقم سيارة أردنية كانت واقفة أمام فندق السان جورج في بيروت . كانا يرتديان ألبسة مدنية ولكن نظرا لانهما كانا يحملان سلاحا ، فقد أرغما على اثبات وضعهما كضابطين أردنيين ، ثم رحّلا الى البلاد . ولكن عن طريق مصادر أخرى ، بلغتني تصرفات أخرى مستنكرة . كان عملاء من السوفيات والمصريين يحاولون بالفعل وأحيانا بنجاح ، توريط شخصيات كبيرة في الجيش وأعضاء في الحكومة . وكان بينهم اللواء علي أبو نوار رئيس هيئة أركان القوات المسلحة الذي كان صديقا مقربا . فقد بلغنا أنه كان يزور دمشق بانتظام ويقابل فيها باستمرار الملحق العسكري السوفياتي . كان عبد الله الريماوي وزير الدولة للشئون الخارجية بين المتآمرين . كان عضوا في حزب البعث الذي كان ميالا للشيوعية الحديثة في ذلك العهد . وكان هو ووزراء آخرون يتوجهون ليلا الى دمشق بانتظام لا سيما بعد الجلسات الهامة لمجلس الوزراء الاردني ولا يعودون الا في صباح اليوم التالي . وقد أسرّ عملاء في المخابرات العامة الى رئيس ديواني بأنه (لو فتح رجال الشرطة حقائب بعض أعضاء الحكومة على حدود الرمثا بين سورية والاردن لوجدوا فيها أموالا) .

لقد أدخل الخونة ما يزيد على المائة ألف دينار أردني الى البلاد بعضها لانفسهم والباقي لاغراض الافساد والرشوة . لم نفتح

أبدا حقائبهم لان عملا كهذا مع وزراء أمر في غاية التعقيد . فاكتفينا بمجرد الانتظار والترقب .

ولا أريد القول بأن الجيش بأسره قد انهار ، فالامر كان على العكس . ولكننا بلغنا نقطة لم يعد فيها الكثير من الضباط ورجال السياسة يعرفون أين يتجهون .بعضهم كانوا من الوطنيين المخلصين الذين كانوا يعتقدون بأن الاردن أصغر من أن يتماسك ويستقيم أمره لوحده . وآخرون قرروا أن يقدّموا أنفسهم لدول عربية أخرى . وبعبارة أخرى عرضوا خدماتهم على الشيوعية .

بدأت تسوء حال جيشنا الذي كان فيما مضى فعالا ، اذ انقسم بعد قليل الى جماعات متعارضة لكل منها معتقداتها السياسية الخاصة . تذكرّ أن العالم العربي كان في حالة غليان . فقد غزا السلاح الشيوعي مصر ، وبدأت الشيوعية تتخذ من الشرق الاوسط مقاما لها بحجة مساندة العروبة . هؤلاء العملاء الشيوعيون كانوا المحرّضين لمعظم الاضطرابات . وكلما تفاقمت الازمة عمدوا الى تشجيع الفتن في الشوارع . لم تكن هذه المظاهرات جدّية في البداية ، مع هذا الفارق التقريبي وهو أن قوات الامن كانت على الغالب ترفض التدخل .

لقد كافح عبثا مدير قوات الامن الذي كان وقتئذ بهجت طبارة، من أجل الاحتفاظ برقابة وادارة هذه الدائرة الحيوية التي أقام فيها بعض الوزراء ورئيس الاركان عملاء لهم ، لا سيما بين الضباط الذين كانوا يتلقون رشاوى جسيمة ، ويرفضون اطاعة تعليمات رؤسائهم . لم يكن الشرطي البسيط يدري بما يحدث . فهو لا يتلقى بداهة التعليمات منطبارة وانما من رئيسه المباشر الذي كان على الغالب خاضعا لرجال كعلي أبو نوار . فعندما يقال له بأن لا يتدخل في شغب ، كان واجبه يقضي عليه بأن يطيع الاوامر وليس بأن يخالفها . وبعد استقالة طبارة الذي كان يرمي من وراء ذلك الى الاعراب عنعدم رضاه ، عن سائر أشكال التدخل الخارجي ، ازدادت الامور سوءا .

أقبل الربيع حائرا مترددا . كان ربيعا رائعا كما هو الحال عموما في عمان بخضرته وسمرته وألوانه ونفحاته العطرة الخاصة به التي تجعل منه أجمل فصل في الشرق . ومع ذلك فقد كان ربيعا كئيبا . كان الجو خانقا عسير الاستنشاق ، مع ازدياد مستمر في حدته . كان المحرّضون يطوفون في الشوارع في جماعات منظمة ويستحثون الجمهور على الشغب والفتنة ، الامر الذي كان يثير اعصاب الحكومة . كان ينادى بنفس الشعارات في أهم طرقات المدن الكبرى : « لقد طرد عبد الناصر الامبريالية خارج مصر ، فاقتدوا بمنقذ العالم العربي » .

ان السهولة التي كان مثيرو الشغب هؤلاء ينقلون بها دعواتهم كانت عجيبة . فقد كان من المستحيل تقريبا مكافحة كل هذا العدد من الاعداء في سائر نقاط الحياة العاملة في البلاد . وفي مواجهتنا ، كان يقف جيش اسرائيل القوي الذي كان من الصعب جدا صده من قبل جيش نفذت اليه العقائد السياسية . ولقد استولى عليّ القلق . اذ كانت بعض الشعوب العربية الشقيقة تطعننا في الظهر بينما كانت بلادنا على شفا حرب أهلية .

كان التوتر يزداد بين الحكومة وبيني ، كلما ارتفعت حدّة التوتر في البلاد . ولما كان بعض أعضاء الحكومة مأجورين لدمشق وللعملاء السوفيات في سورية ، فقد كان أحد أهدافهم أن يعترف الاردن بالصين الشعبية وبروسيا . الا أنني كنت أرفض ذلك بحزم حتى أن صلاح البيطار وزير الخارجية السوري ، وجه رسالة الى الحكومة الاردنية تتضمن اقتراح تبادل علاقات « أكثر ودية » مع الروس والشيوعيين .

كان النابلسي يجمع وقتئذ في يده منصبي وزير الخارجية وئيس الوزراء . ولكنني كنت أرتاب في الريماوي وزير الدولة للشئون الخارجية أن يكون المحرّض على هذا المشروع . كانت الاتصالات بين الريماوي والسوريين من التكرار والكثرة الى الحد الذي كان

من المألوف أن تسمع من يقول بأن (مركز وزارة الخارجية الاردنية يقع في دمشق) .

عرض النابلسي اقتراح البيطار على الحكومة ، الامر الذي أثار غيظي وحنقي . لم أكن أستهجن مضمون هذه الرسالة والتلميحات الواردة فيها فحسب ، بل اعتبرت أنها وقاحة من جانب صلاح البيطار أن يتدخل في الشئون الداخلية الاردنية . لذلك قررت أن أرد عليه شخصيا . وبعد أن حررت جوابي بعثت به الى وزارة الخارجية السورية ، بالطريق الطبيعي ، الا أن الحكومة عارضت في ذلك .

لقد بلغ السيل الزبى . كتبت عندئذ الى رئيس الوزراء لالفت نظره بعبارات شديدة اللهجة الى الاخطار والتهديدات التي جعلتها الشيوعية تحوم فوقنا ، ولأصر أيضا على قناعتي بأن الاردن ينبغي أن يسلك طريقا مختلفا اذا أرادت بلادنا أن تواصل الدفاع عن نفسها . وقد أضاف كتابي الى ذلك أيضا : « أن الحرب الباردة الناشئة حاليا بين المعسكرين العالميين قد أدخلت الى بلادنا بعض المبادىء والمعتقدات التي تتناقض تناقضا صريحا مع تقاليدنا . كما تغلغلت بعض المنظمات الغريبة بيننا ، فاذا لم توقف هذه المبادىء وهذه المعتقدات وهذه الآراء التي لا يمكن تبريرها عند بعض الحدود فلسوف تلحق الاذى بمجد أمتنا وهيبتها . ان الامبريالية التي هي في طريقها الى السقوط والهزيمة في الشر قالعربي ، سوف تحل محلها امبريالية جديدة . فاذا ما خضعنا اليها فلن نتمكن أبدا من الافلات منها أو القضاء عليها . نحن نشعر بخطر التسلل الشيوعي في بلادنا العربية ، كما أننا كشفنا تهديد أولئك الذين يزعمون أنهم من القوميين العرب في حين أنهم لا يمتون الى العروبة بصلة ولا يعرفون ماهيتها » .

« فعلينا أن نقضي على الفساد والدسائس بين صفوفنا . ولسوف لن نسمح اطلاقا بأن تكون بلادنا مركزا لحرب باردة يمكن

أن تتحوّل في أية لحظة الى حرب حقيقية ٠ اذا سمحنا نحن العرب للآخرين بأن يندسوا بين صفوفنا ٠ اننا نؤمن بقوة وحزم ، يحق بلادنا في الحياة فيجب أن تكون أسسها متينة وقائمة على ماضينا المجيد وعلى آمال المستقبل ٠ اننا لا نستطيع أن نعد الدمار لبلادنا وشعبنا بفتح ثغرة للتسلل الشيوعي ٠ هذه هي الآراء التي نحيلها الى فخامتكم بوصفكم مواطنا ورئيسا للوزراء واننا لنأمل في أنكم وزملاءكم الوزراء سوف تتخذون موقفا يؤمّن مصلحة هذا البلد ويضع حدا لدعاية وشغب اولئك الذين يودون أن يندسوا بين مواطنينا وأن القوانين والنصوص التي تحكم البلاد حاليا سوف تزودكم بالوسائل اللازمة لهذه الغاية ٠ كما أن وجدان الشعب سوف يمد لكم يد العون ويدعمكم في جهودكم » ٠

عندما علمت بأن النابلسي قد استلم رسالتي ، قمت بنشرها على الملأ ٠ فاستقبلها بالترحاب والتأييد معظم أبناء الشعب الاردني ، الفضلاء والمتدينون من الناس الذين يشكلون الهيكل الاساسي للبلاد ٠ أما حكومتي فلم تكن من هذا الرأي ٠ بعض الوزراء عمد فورا تقريبا الى الادلاء بتصريحات الى الصحف والى وكالات الانباء الاجنبية ولا سيما الى وكالة تاس والى وكالة الشرق الاوسط القاهرية ٠ وفي بضع ساعات نشرت الصحافة مقالات حول النزاع القائم بين القصر والحكومة ٠

في اليوم التالي من استلام رسالتي ، وهي حجر الزاوية لكل ما سيتلو من أحداث ، التمس النابلسي مقابلتي ٠ ووصل برفقة اللواء علي أبو نوار والريماوي وبعض الوزراء اليساريين الآخرين ٠ كانوا يريدون أن (أخفف) من لهجة رسالتي ٠

قلت لهم : « لا تأملوا في ذلك ٠ فان ما كتبته لهو توجيهات سياسية تصح على الحكومة الحالية وعلى الحكومات التي ستعقبها » ٠

استغرقت المقابلة حوالي الساعة رفضت خلالها أي تنازل مهما

صغر شأنه ٠ وقد دارت المناقشة في جو من الهدوء المطلق ٠ لان النابلسي كان يعلم بأنه ما زال لديه ورقة اللعب الاخيرة ٠ فقد كان يعتزم اجراء اتصالات ترمي الى الاعتراف بالصين الحمراء وانشاء علاقات دبلوماسية مع السوفيات ٠ صحيح أنني أستطيع معارضة اجراءات كهذه ، ولكن النابلسي كان يأمل في هذه الحالة في أن أتعرّض من جديد للهجوم والاتهام بأنني (عميل امبريالي)

وهذا ما حدث بالضبط ٠ فقد نشبت حركات تمرد نظمها بأسلوب علمي ، سياسيون من المناوئين للنظام الملكي وعناصر من الجيش ٠ ومرة أخرى رفضت قوات الامن أن تتدخّل ٠ وخطب رئيس الوزراء سليمان النابلسي فيجمهور لا يحصى عدده ، احتشد في ساحة عمان الرئيسية ، وكان واقفا على يساره ، عيسى مدانات أحد مثيري الفتن الشيوعيين المعروفين ٠ أليس هذا موقفا غريبا من رئيس حكومة لم يمض الا بعض الوقت على استلامه رسالة تأمره بوضع حد للتغلغل الشيوعي ؟

في الثامن من نيسان (ابريل)تأكد لي أن سرية مصفحات قد طوقت العاصمة واحتلت النقاط الستراتيجية٠ فلم يكن ليستطيع أحد أن يدخل المدينة أو يخرج منها دون أن يمر أمام مدافعها ٠

فأثار ذلك اضطرابي لانه كان يعني أن خطرا وشيك الوقوع يهدد الاردن وأن القصر يمكن أن يتعرّض للهجوم ٠ كان علي أبو نوار يعد انقلابا عسكريا ٠ فبعثت استدعيه وأنا أبذل مجهودا كبيرا في السيطرة على الغضب الشديد الذي كان يتملّكني ٠ وعندما مثل بين يديّ سألته :« ما معنى هذه البلبلة والفوضى ؟» فأجابني بلهجة معسولة : « انها عملية روتينية تتعلق بتفتيش السيارات التي تدخل الى عمان أو تخرج منها » ٠

لقد شقّ عليّ أنْ أحتفظ برزانتي ووقاري ! ازاء ما سمعته منه فاقترحت عليه بلهجة تتسم بالتودد وعدم الكلفة أن يسحب القوات ٠ فقبل وانصرف ٠ كنت عندئذ وحيدا ، وحيدا حقا ٠ كان

عليّ ، ولاول مرة في حياتي ، أن أقرر وحدي أن أقرر لنفسي
ولشعبي ووطني ، وأن أقرر بسرعة ٠ ان قراري سوف يلزم الاردن
بأسره الذي ارتبط مستقبله بشخصي ٠ لم أكن قد بلغت الثانية
والعشرين بعد ٠ كان الموقف يسوء من ساعة الى أخرى ٠ ولم يكن
لديّ الا القليل من الاصدقاء القادرين على تقديم الدعم والمساندة
اي ٠ كانت الحكومة تناصبني العداء علانية ٠

في اليوم التالي سحبت السيارات المصفحة ٠ ولكنني كنت أعلم
بأن ذلك لم يكن سوى هدنة قصيرة الامد ٠ ثم حانت ساعة العمل٠
في العاشر من نيسان (ابريل) دخلت الى مكتبي وقلت للتلهوني
رئيس ديواني : « هذا وقت عزل الحكومة » ٠

أمليت كتابا موجها الى النابلسي ضمنته أمري باقالة الحكومة
حمل التلهوني الكتاب الى مكتب رئيس الوزراء ٠ كانت الوزارة
مجتمعة عندما وصل ٠ رجا التلهوني رئيس الوزراء أن يخرج ٠
وعندما أصبحا وحيدين ، نقل اليه مضمون الكتاب دون أن يسلّمه
اياه خشية أن يستخدمه لاغراض الدعاية السياسية ٠ عندئذ
بعث الوزراء يستدعون علي أبو نوار رئيس الاركان وضابطين
لاستشارتهم على ما يبدو ٠ قال لهم عندئذ أبو نوار :

« عليكم بالاستقالة ، لا لشيء الا لان الملك سوف لن يكون في
مقدوره تشكيل حكومة بدونكم ٠ قدموا استقالتكم ! وسأعرف
كيف أرغمه على استدعائكم » ٠

بعد بضع ساعات وصل النابلسي الى القصر وقدم لي استقالته
وقد عُني في كتابه أن يشير الى أنه فعل ذلك « بناء على أمر
جلالتكم » ٠ مؤملا بلا شك أن يستغل ذلك فيما بعد ٠

في هذا المساء جاء لزيارتي خالي الشريف ناصر يرافقه أفراد

آخرون من أسرتي ٠ كان في غاية القلق من الاتجاه الخطير الذي
اتخذته الحوادث ٠ ولكن لم يكن يخطر في باله أن تمردا عسكريا
وشيك الوقوع ٠

لم يسلك طريقا ملتويا في أقواله بل صارحني قائلا : ما كنت
لاود أن أحدثكم بهذا الاسلوب المباشر يا صاحب الجلالة ، ولكن
يبدو أنه قد ضاع كل شيء ٠ ومن خلال ما تحققت منه ، يتراءى لي
أنكم الآن قد ازددتم وحدة وانعزالا ٠ فهل نبقى ونقاتل أم علينا
أن نحزم حقائبنا ؟ ألا ترون أن من واجبنا أن نفكر في سلامة
ومستقبل أسرنا وأن نحاول وقايتها من كل خطر ؟

فرددت عليه قائلا : « لا أريد الرحيل ٠ يجب أن أبقى ٠ وانك
تعرف بأنني اومن بما أفعل » ٠

لم يكن ذلك من باب التصلب في الرأي ٠ فقد كان لدي شعور
بأنني أفهم شعبي وأدرك ما يريد ٠ كنت مقتنعا بذلك ٠ لقد
توصلت الى اقامة علاقات وثيقة معه تتسم بالألفة ورفع الكلفة ٠
وكنت مطمئنا بأنه في فترة الازمات أو المنازعات تكون مساندته
الاخوية لي مضمونة ٠

« قلت لا لخالي ، لا أستطيع الرحيل ٠ انني هنا لخدمة شعبي
وبلادي ٠ وانني مصمم على أن أفعل ذلك حتى النهاية ٠ سأقاتل
مهما كانت النتائج » ٠

كان الوضع في الواقع متوقفا على أحد أمرين : اما أنتم أو هم ٠٠ وعندئذ انتهيتم الى قضية الزرقاء ٠

لقد كنا وقتئذ في حوالي منتصف رمضان ، وهـو بالنسبة الينا فترة صوم ٠ كنت على يقين من أن الدمّل سينفجر قبـل نهايـة الشهر ٠ كان الرهان في غاية الأهمية بحيث لم يكن من سبيل الى اخفائه ٠ وبدأت أخشى أن لا يتسنى لـي شخصيا ولا لـلاردن أن نحتفل بالعيـد الذي يشير الـى نهايـة رمضان ٠٠٠ اننـي أذكر اللحظة التي أحسست فيها بمخاوفي الاولى ٠ فقد ذهبت الى وادي الاردن لاستريح بضع ساعات في مزرعة الشريف ناصر ٠ ولمـا كان محرّم تناول الطعام والشراب أو التدخين حتـى الغروب خلال هذا الشهر الفضيل ، فقد كنا جالسين بانتظار غروب الشمس، لتناول وجبة خفيفة وتدخيـن سيجـارة ٠ وبينما كنا نتـذوق أول أقـداح الشاي ، تساءلت فجـأة :

« متى ينتهي كل هذا ! ؟ » ٠

كنت متأكدا مـن شيء : سوف أقاتل حتـى النهاية مـن أجل شعبي ٠ ولكن حكومة النابلسي وعناصرها اليسارية التي يؤيدها عبد الناصر ، كانت قـد تسللت الـى كل مكـان تقريبـا ٠ كانت الدعاية والمناورات الرامية الى تضليل الشعب في آرائه ومعتقداته تصل الى سائر العالم العربي ٠ كان على الاردنيين ، لكي يجدوا عملا أو يقدموا فحصا ، أن ينتسبوا الى حزب ٠ فقـد حلت قومية عبد الناصر محل القومية العربية الحقيقية ٠ كان الحزب الشيوعي ينظم الاجتماعـات والمحاضرات في الساحات العامـة وكان العلم الاحمر يرفرف على الرغم مـن الحظر المفروض علـى الشيوعية ٠ كانت الاحزاب تخشى بعضها بعضا وتوزع السلاح على أعضائها كان هنالك سؤال حيوي مع ذلك قد بقي بلا جواب : هـل الاغلبية

الساحقة مـن الشعب التـي كانت تتابـع هـذه الاحـداث بنفس الخشية ، ما زالت باقية في الجانب الافضل رعاية لمصلحة الامة ؟٠ كانت الاحداث تتطور ببطء وبصورة محتومة نحو المجابهة ٠ لقد ابتهلت الى اللـه أن يحفظ بلدي وشعبي ودعوته أيضا أن يهبني القوة والصبر والاناة التي لابد لي منها لكي أقدم خير ما في نفسي٠

قبل قليل من استقالة النابلسي في العاشر من نيسان (ابريل) التقطت مخابراتنا رسالة غير معقولة ! ٠ كانت موجهة الى رئيس وزراء الاردن وموقعة من الرئيس عبدالناصر وتقول : « لا تذعنوا ٠ ابقوا في أماكنكم ٠ ناصر » ٠

لقد بدأ اختبار القوة ٠ كان عـلي ، بمساندة العناصر السليمة من الشعب الاردني أن أجابـه العناصر التـي كفّت عـن الاخلاص لبلادي ٠ حاولت عبثا بين الحادي عشر والثانـي عشر من نيسان (ابريـل) أن أشكل حكومـة جديدة ٠ فطلبت أولا الـى المرحـوم الدكتور حسين فخري الخالدي ، وهو وطني عربي كبير من الضفة الغربية ، أن يشكّل وزارة جديدة ٠ ولكـن جهوده باءت بالفشل ٠ فقد ضمن النابلسي أن لا يتمكّن أي من خلفائـه من تشكيل فريق حكومـــي جديـــد ٠

ولعل الثقة المتعجرفـة لمعارضيّ يصورها هـذا الحديـث الـذي سمع في ملهى ليلي في عمان حيث كان النابلسي وأعوانـه يقضون سهرة مع علي أبو نوار قائـد القوات المسلحـة ٠ التفـت رئيس الحكومة السابق نحو أصدقائه وسألهم :

- الى من يئول تأييد الشعب ؟

- اليكـــم ٠

ثم التفت نحو علي أبو نوار قائلا :

- الى من يئول تأييد الجيش ؟

- اليكم يا صاحب الفخامة • أجاب اللواء •

ويسأل النابلسي متهكما : من اذن يؤيد الملك ؟

عندما عدل الخالدي عن تشكيل حكومة ، استقبلت عبد الحليم النمر • والنمر كالنابلسي كان عضوا في الحزب الوطني الاشتراكي وكان وزيرا في الحكومة السابقة • كنت آمل أن يكون قادرا على تشكيل فريق أقل ميلا الى اليسار • ولكن الوطنيين الاشتراكيين والمتعاونين معهم ، أمسكوا عنه تأييدهم ما دام يرفض ادخال بعض أنصار الشيوعيين ضمن فريقه • وبديهي أنني لا أستطيع قبول هذا الشرط •

عندئذ اتجه فكري الى سعيد المفتي • الا أن علي أبو نوار وأصدقاءه قرروا في غضون ذلك أنهم اذا لم يتمكنوا من الفوز بأن يرأس النابلسي الحكومة الجديدة ، فمن المهارة والفطنة أن يتظاهروا بدعم النمر لكسب الوقت والتخلص مني •

كان ذلك في الثالث عشر من نيسان (ابريل) • بلغت علي أبو نوار أنباء اتصالاتي بسعيد المفتي ، فاستشار السلطات المصرية والسوفيتية في دمشق •

وعلى مهل ، بدأ علي أبو نوار رئيس الاركان العامة يوجّه المسرح السياسي • فيما بعد ، وفي اليوم نفسه ، قابل أبو نوار السياسيين من أصحاب اليسار ، وتقرر أن يمنحوا تأييدهم لعبد الحليم النمر الا أن هنالك عائقا كان ما زال قائما : كانوا يعرفون بأنني قد رفضت قائمة الوزراء التي قدمها النمر ، وفي وقت مبكر من بعد الظهر ، استدعي سعيد المفتي الى معسكر يقع على بعد بضعة كيلو مترات من عمان • وعند وصوله ووجه هذا الوطني بالعديد من كبار الضباط • وكان علي أبو نوار أول من تكلم قائلا : « يجب أن تذهب فورا الى الملك وأن تقول له بأن الوضع في البلاد وفي الجيش متفجر بنوع خاص ، واذكر له أيضا بأنه اذا لم تشكل

حكومة تستطيع أن تحوز رضا الشعب والاحزاب ، حتى الساعة التاسعة مساء ، فانني وزملائي لن نكون مسئولين عما قد يجري من أحداث » •

غادر سعيد المفتي الاجتماع دون أن يتفوّه بكلمة ، وقد استولت عليه الحيرة ولحقت به المهانة ، وتوجه توا الى قصر بسمان لينقل الي رسالة العسكريين • قلت له بأن لا يقلق ولم أعتبره مسئولا عن نقل أقوال بهذه الوقاحة • وبالطبع لن أذعن لهذه التهديدات • ولكني قررت من جديد أن أستدعي عبد الحليم النمر • وناقشت معه طويلا موضوع تشكيل الوزارة • لم يكن عبد الحليم النمر متصلبا ، حتى أنه اعترف لي بأن له (أصدقاء) من العسير ارضاؤهم أو اقناعهم • كان يعتقد بأن الموقف لم ينته بعد الى طريق مسدود • وأن التوصل الى حل ما زال ممكنا • ثم انصرف وقد صمم على التحدث الى رفاقه بهذا الشأن •

تطور الموقف بسرعة • فقد جاء علي أبو نوار الى القصر وتحدث مع رئيس الديوان بحضور سعيد المفتي قائلا بشكل خاص : « اذا لم يبلغ الجيش حتى الساعة التاسعة مساء بأن حكومة قد شكلّت ، فستغرق البلاد في مصاعب جسيمة ستكونون أنتم مسئولين عنها » • وأضاف : « اعتبروا هذا البيان انذارا نهائيا » •

كان من الممكن تشكيل حكومة ، ولكن طرأ حادث بدّد آمالي • فقد جاء من الزرقاء فريق من الضباط وبرفقتهم نجل أحد كبار زعماء العشائر في الاردن ، وقدموا كتابا مستعجلا الى رئيس الديوان ليرفعه اليّ •

فضضت الكتاب • فجعلتني كلماته الاولى أنسى كل ما يعتريني من غم وكرب ويأس • قرأت ثم أعدت قراءة أهم الفقرات وهي :

« ان ضباط الزرقاء الموالين المخلصين لجلالتكم قلقون من الطابع غير المألوف للتعليمات التي تصدر اليهم • لقد بلغنا بأن أوامر

ستصدر لبعض الوحدات لتطويق عمان · يا صاحب الجلالة · ان شكنا وارتيابنا بمن يتولون قيادة الجيش في ازدياد مستمر · واننا لنلتمس من جلالتكم أن تأذنوا لنا بعرض الاوامر التي نتلقاها على جلالتكم ، لتتحققوا من سلامتها » ·

وقد أشار الكتاب أيضا الى أن بعض الوحدات التي كان يقودها رجال موثوقون وموالون قد نقلت الى مختلف المناطق في الاردن · وكنت على علم بهذه التحركات · كانت الكتيبة المدرعة المعسكرة في الزرقاء ، بقيادة نذير رشيد أحد الاصدقاء المقربين لعلي أبو نوار · يضاف الى ذلك أن ابن عم علي أبو نوار ، معن أبو نوار ، كان يقود لواء المشاة (الاميرة عالية) في الزرقاء · كانت تخالجني بعض الشكوك في شخصه ولكنني كنت أكثر قلقا من ناحية القادة الآخرين في الزرقاء ، أكبر المعسكرات في البلاد ·

جاء لمقابلتي في نفس الوقت تقريبا الشريف ناصر الذي كان يقود كتيبة المدرعات الاولى قبل أن يترك الجيش · قال لي : « يا صاحب الجلالة ، ان ضابطا يود التحدث اليكم سرا حول موضوع عاجل جدا وفي غاية الاهمية » ·

فرجوت خالي أن يُدخل فورا هذا الرجل الى مكتبي الخاص · كان عبد الرحمن سبايله ضابطا أقدّر اخلاصه الى حد كبير · وقد اختير من قبل فريق من ضباط وجنود الكتيبة المدرعة ·

سألته : « ما هو الموقف الآن ؟ » ·

وبصوت جهوري وعينين تشعان عزما وتصميما بدأ بالقول : « يا صاحب الجلالة ، يوجد خونة في كل مكان · ولكن ليس في كتيبة المدرعات الاولى · كونوا واثقين بنا جلالتكم · ان ضباط وجنود الكتيبة يؤكدون لجلالتكم أرسخ الدعم والتأييد ·

وتابع شرحه لما حدث قائلا بأن قائد الكتيبة جمع بعض الضباط لاعطائهم الاوامر : كان عليهم أن يستعدوا للزحف على عمان

لتطويق القصر الملكي والقبض على الملك · وكانت التعليمات تقضي بالرد على كل طلقة بقذيفة من عيار ستة أرطال اذا ما بدت أية مقاومة · لقد اختيرت كتيبة المدرعات الاولى لهذه المهمة · وقد وُعدت بأن المجد سيكون من نصيبها · الا أن الضباط تشاوروا فيما بينهم وأقسموا على البقاء مخلصين للملك وللبلاد ، ثم أعلموا بذلك ضباط الصف والجنود الذين كانوا يثقون بهم · لقد قبلوا جميعا بالتظاهر بمسايرة المتآمرين وقرروا اعلامي بالامر وانتظار تعليماتي · فحمدت الله على أنه ما زال يوجد مثل هؤلاء الرجال في الاردن ·

طلبت من عبد الرحمن أن يلتحق بوحدته وأضفت : « نبّه أصدقاءك وزملاءك أن يحتاطوا لكي لا يكتشف أمرهم حتى اللحظة الاخيرة · وكونوا على اتصال فيما بينكم والله معكم » ·

أمعنت النظر بضع لحظات · كنت شديد القلق · لم أكن أخشى الموت · فلطالما تعرضت له حتى لم يعد يخيفني · ولكن خوفي كان من أجل بلادي ، من أجل شعبي ، من أجل القوات المسلحة التي هي مصدر اعتزازي واعتزاز الاردن · طلبت الى علي أبو نوار أن يجيء لمقابلتي · كان لا بد من الاقدام على العمل قبل أن يزداد الوضع خطورة ·وكنتأرغب في أن أضع الامور في نصابها مع قائد القوات المسلحة ·

أمعنت الفكر ، وأنا أنتظر قدومه ، في غرابة الطبيعة الانسانية أية قوة تستطيع أن تبرر خيانة علي أبو نوار ؟ كان هذا الرجل صديقا لي · ولقد علّقت عليه أملا كبيرا ، ووضعت فيه كل ثقتي هل تغير لانه استسلم للشيوعيين ومعاونيهم من المصريين ؟ لم يكن ثمة شك في أنه كان يزداد خضوعا لتأثيرهم وأنهم أمعنوا في خداعه وتضليله · ولكن هل كان هذا كل شيء ، أليس هنالك قوة أخرى تحثه وتحرضه وتغريه ، هذا الضعف الانساني الكبير ، ألا وهو ظمأ المرء الى السلطة ؟

كنت أعرف بأن الاردن اذا ما انهار ، فسيكون ذلك أقوى ضربة تصاب بها القضية العربية منذ عصور طويلة جدا · فلسوف تهجم اسرائيل حتما وستصبح الاقطار العربية ، أو بالاحرى ما سيتبقى منها خاضعة لتحكّم الشيوعيين ومقسمة بين المنتصرين ·

سيختفي عندئذ عائق هام جدي أمام المد الشيوعي وستهدد هذه الموجة سائر العالم العربي · حتى أن بعضهم كان يقول : « لتستول اسرائيل على الضفة الغربية فلسوف نستطيع استردادها بقيادة عبد الناصر ومساندة الشيوعيين » · انظر ماذا حدث منذ عام ١٩٦٧ !

كانت الساعة قد قاربت السابعة · ولم يكن قد غمض لعينيّ جفن فعلا منذ أسبوع · كنت أشتغل ليل نهار في مكتبي · دخل عندئذ علي أبو نوار · وكان يبلغ من العمر أربعة وثلاثين عاما · بالغ الاناقة دوما ، بقامة معتدلة ، وشارب فائق العناية · لم أستطع أن أكظم غيظي عندما رأيته · فأمرته أن يقدم شرحا كاملا لكل ما بلغني من أنباء بعد ظهر هذا اليوم ·

وعندما شرع في الكلام ، قرع جرس الهاتف · كان نداء مستعجلا موجها لعلي أبو نوار · في الطرف الآخر من الخط ، كان يقف ابن عمه معن ، قائد لواء (الاميرة عالية) · سمعته يتكلم بصوت يخنقه الخوف · امتقع وجه علي أبو نوار ، وألقى نظرة خفيّة نحوي ، ثم صرخ في آلة الهاتف : « امنعهم بربك · أوقفهم بأي ثمن · ماذا تصنع المدفعية اذن ؟ أين اللواء الحياري ؟ » ·

ميّزت بوضوح تام صوت معن من الطرف الآخر وهو يضيف :

« لا أستطيع عمل أي شيء يعتقد أفراد اللواء بأن الملك قد مات أو أنه سوف يموت في هذه الليلة · لم يعد في وسع الضباط أن يسيطروا عليهم ·انهم يتجهون نحوعمان · ولن يستطيع انقاذ الموقف سوى وجود الملك بينهم » ·

نظر علي الي · فانتزعت منه الجهاز وصحت : « سآتي » · وأضفت من أجل علي أبو نوار :

« لا تغادر المكان · سأعود حالا ·

ثم خرجت من المكتب راكضا ، وقلت للتلهوني رئيس الديوان : « ابحث لي عن سيارة بسرعة » ·

في الرواق ، قلت لمرافقيّ العسكريين · وكان أحدهما ابن عمي زيد والآخر قائد حرسي الخاص : « اذهبا فورا وقولا للقوات التي تتجه الى عمان بأنني سليم معافى · واطلبا اليهم أن يعودوا الى معسكراتهم · وسوف ألحق بكما » ·

ارتديت بزتي العسكرية وعدت الى مكتبي ، وقلت لعلي أبو نوار : « تعال سنذهب الى الزرقاء » ·

وثبتُ الى سيارتي وجلست بجانب السائق · كان علي أبو نوار وخالي الشريف ناصر يجلسان في المقعد الخلفي · انطلقت السيارة باتجاه الزرقاء تتبعها سيارة قائد الجيش والمرافقين العسكريين لا أعتقد أن غضبي قد بلغ في حياتي من الحدة والشدة ما بلغه وقتئذ ·

التقينا بشاحنة على جسر الرصيفة · توقفت السيارتان والشاحنة · كانت الشاحنة ملأى بالجنود والمدنيين الذين كانوا يطلقون صيحات غاضبة ويلوّحون ببنادقهم وعصيهم · قفزت خارج السيارة فعرفوني · كان ذلك بالتأكيد احدى اللحظات الاشد اثارة لمشاعر النفس في حياتي · فقد فاضت عيناي بالدموع · تعانقنا طويلا · كانت انفعالات النفوس بالغة أقصاها · وكانوا يصرخون من كل جانب : « نحن في خدمتكم يا صاحب الجلالة » · ثم طلبت اليهم أن يعودوا الى الشاحنة · لم أشاهد علي أبو نوار الذي كان مختبئا في الجانب المعتم من السيارة · لم يكن يريد

أن يعرفه أحد ، فقد استبد به الرعب والفزع ٠

ورجاني قائلا : « يا صاحب الجلالة : دعوني أعود الى عمان » ٠
ـ قلت لماذا ؟

ـ قال : « لقد سمعت تهديدات بالقتل موجهة الى شخصي ٠ ان لي أسرة وأولادا ، فاذا ما تبعتكم ، فلن أكون حيا في هذه الليلة » ٠

فأمرت سائقي بايقاف السيارة ٠ كنت متقزز النفس قرفانا مشمئزا ٠ وقلت لعلي أبو نوار : « اخرج ٠ وعد الى عمان ٠ وانتظرني في القصر » ٠

وهكذا ، وبدون القائد العام لجيشي ، تابعت سيري باتجاه المعسكر الذي وقع فيه التمرد ٠ كنا نلتقي بمزيد من الشاحنات وبمزيد من الجنود الغاضبين ومن المدنيين وكنا نسمع طلقات النار التي كانت تشتد حدتها كلما اقتربنا من مدينة الزرقاء ٠ كان الطريق مسدودا بالحواجز وقد عمد بعض الضباط المسلحين الى تهديدنا وتظاهروا باطلاق النار لعدم تعرفهم بعد على قائدهم الاعلى ٠

خرجت من السيارة وخاطبتهم قائلا : « هذا هو أنا ، الحسين ، ان ملككم سليم معافى ٠ ان حياتي ملك لكم ٠ كل شيء يسير على ما يرام ٠ عودوا الى معسكراتكم ٠ وسوف ألحق الآن بكم » ٠

كان المشهد يتجاوز حدود الخيال ٠ ولقد انقضت السنون على ذلك ٠ ولكنني ما زلت أذكر كل دقيقة ، كل ثانية من هذه الليلة ٠ كان بعض الجنود يعتمرون الخوذات ٠ وكان بعضهم الآخر بلا أردية ٠ لقد صفق الجميع ٠ أما سيارتي الشيفروليه القديمة المسكينة ، فقد كانت تتقدم وهي تتمايل في سيرها ، ويهبط هيكلها كلما مرت على أية حصاة ٠ كان سقفها قد أصيب بالاعوجاج ٠ وكان الجنود الذين تعلقوا على مراقيها يرفضون

النزول ٠ فعمد خالي وهو من أبطال الرياضة ومن ذوي البنية المتينة الى تقويم اعوجاج سقفها بدفعة من كتفه ٠ وأنزلنا هؤلاء الركاب المشتعلين حماسة ٠

عندما وصلنا الى الزرقاء ، لم أجد أثرا لمرافقيّ العسكريين ٠ الا أنني أنقذتهما بعد بضع لحظات بالقرب من مقر قيادة لواء الاميرة عالية ٠ فقد أوقفهما بعض العسكريين الذين كانوا يرفضون تصديق ايضاحاتهما ويعتبرونهما من المتآمرين ٠ كانا مرتبكين بعض الشيء عندما كشفت مكانهما ٠

كانت بعض الشاحنات التي كانت تحترق هنا وهناك ، تعوق تقدمنا عبر المعسكر ٠ وبالتدريج أعدت ترتيب مجرى الحوادث ٠ فقد طلبت قيادة لواء الاميرة عالية الى رجالها أن يستعدوا لمسيرة طويلة ، لمناورة روتينية ، بدون سلاح ٠ ولكن الرجال كانت قد بلغتهم شائعات غريبة ٠ فلم يعد من السهل انقيادهم ، حتى أن صف ضابط سأل أمام رؤسائه : « وماذا سيكون مصير الملك في كل هذا ؟ » ٠

تبع هذا السؤال فوضى لا توصف ٠ فقد احتلت الكتيبة ، ثم اللواء مخزن الذخيرة وحاصرا نادي الضباط الذين كانا يظنان بهم الخيانة ، ثم اتجه رجالهما نحو عمان ليطلعوا على ما يحدث فيها ولقد وجدت فيما بعد قائد اللواء فاراً على الطريق وأخذته معي في السيارة ٠ ولكن الاثم كان قد تم اقترافه ٠

بادر المتآمرون الى العمل بسرعة ٠ فقد استقدموا وحدات المدفعية وأوهموها بأن وحدات المشاة تتجه الى عمان لتهديد الملك لم يصدق رجال المدفعية ما أوحي اليهم الا أنهم اعتقدوا بأنهم يخفّون الى نجدتي اذا ما اندفعوا في اثر وحدات المشاة يلاحقونهم ٠ وبدأت المعركة ٠ كل جانب كان مقتنعا بخيانة الطرف الآخر ، فاتجهت نحو مقر قيادة الفرقة حيث كان الجنود قد أتلفوا كل شيء في طريقهم ، ثم الى مقر قيادة اللواء ٠ وهناك أيضا كان كل شيء

قد قلب رأسا على عقب ، باستثناء صورة للاميرة عالية ٠

اعتليت سقـف سيارتي ، ثـم ظهر دبابـة ، وجعلـت أخاطب الجنود ٠ كانت المدافـع الرشاشة تدوي وكـانت طلقات الرصاص تصفّر بالقرب من أذنيّ وكنت أشعر بحرارتها ، حتى أنني كدت أفقد سلاحي من جراء التدافع الـذي كان يفـوق الوصف ٠ ونجحت بصعوبة في مغادرة مقر قيادة اللواء على الرغم من رفض القوات أن تدعني أعبـر الطريـق ٠

كانوا يصرخون : « انهم سيقتلونكم يا صاحب الجلالة ٠ سوف لـن تتحركوا مـن هنـا ! » ٠

واستطعت أخيرا أن أذهب وأن أنفذ الى خطوط المدفعية ٠ ولم يكن الامر سهلا لان القصف كـان مستمرا مـن الجانبيـن ٠ ولكن لحسن الحظ لم يحدث مكروه ٠ كما أننا لم ننجوا مـن الموت ، أنا ورفاقي في هذه الليلـة الا في آخـر لحظة ٠ فقـد كان أحـد الضباط المتمردين قد علم بقدومي فلغـم جسرا صغيرا وانتظـر أن أعبره لتفجيـره ٠ الا أن رصاصة أصابتـه في الظـلام فجرحتـه ، ومرت سيارتـي بسـلام ٠

وعلمت فيما بعد أن عـلي أبو نـوار ، بدلا من التوجه توا الـى عمان ، قد حاول أن ينفذ الى المعسكر من باب خفيّ ، ولكن لما اتجه فريق من الجنود نحو السيارة فضّل أن يعود من حيث أتى وأن يفر الى قصر بسمان والامل يداعب خياله بلا شك في أن يجـده مطوقا من قبل الكتيبة المدرعة ٠ وقد قال لرئيس الديوان بأنني قد بعثت به لكي يطمئنه ، هو ومساعديّ ، بأنني بخير ويطلب اليهم أن ينتظروا عودتـي ٠

أمضيت ساعات عديدة في الزرقاء ٠ ولم أعد الى عمان الا فـي منتصف الليل بعد أن أعدت النظام الى نصابه في كل مكان ٠

وعندما وصلت الى القصر ارتقيت درجاتـه أربعا أربعا لكـي أصل في أقرب وقت الى علي أبو نوار ٠ كان قد سد المدخل الرئيسي

عشرات من الجنود الذين قالوا لي بأن علي أبو نوار ينتظرني في مكتبي الصغيـر وأعلموني فورا بالحوادث التـي وقعت في القصر فـي غضـون ذلـك ٠

اذ عندما وصلت المدرعـات حـاول علـي أبـو نـوار أن يخاطب الضباط ، اعتقادا منه بأنهم حلفاؤه ٠ ولكـن رقيبا أولا صوب الى بطنه مدفعه الرشاش وهو يسدد نظراته الى عينيه وقال له :

« لو لم تكن في قصر الملك لكنت أحلتك الى حساء باللحم ٠ عد الى المكتب وابتهل الى الله أن يعيد الملك سليما معافى ليستطيع أن يقول لنا ما نصنع بك » ٠

كان علي أبو نوار قد انهار انهيارا تاما ٠ وكان الجنود يتجولون في القصر وهم يصرخون : « لتسقط الشيوعية ٠ الموت لابـي نوار وسائر الخونة ! » ٠ كان يجب أن يـرى المرء هذا المشهـد المحزن : القائد العـام لجيشي يسكب الدمـع كالاطفال ٠ انـه لامـر يبعث علـى الرثـاء ٠

ماذا عليّ أن أصنع بهـذا الرجل الذي كـان صديقا لـي ٠ عاد الماضي الى ذهني بينما كنت أسمع كلمات التهديد الموجهة اليه ٠ تذكرت رفيق الخير الذي كانه فيما مضى عندمـا كنت أمضي بـه الى مطاعم باريس ٠ وخطرت ببالي أحاديثنا حول مستقبل الاردن وكل أنواع المشروعات التي استحوذت على قلوبنا ٠ وهـا هو الآن يبكي بلا حياء ٠ الدموع تنهمر على محياه والخوف على حياته قد استبـد بـه ٠

قلت له : « ماذا تنتظر مني ؟ » ٠

كان وجه اللواء أبو نوار ممتقعا شاحبا ٠ قال متمتما متلعثما انه يريـد أن أحميـه ٠

« ولكن ماذا فعلت لتبرير ما أوليتك اياه من ثقة ؟ » ٠

فتوسل الي مرة أخرى أن أرأف به وأن أنقذ حياته • كل ما قاله لي كان كذبا ، ولا شيء غير الكذب • أحسست فجأة بأنني متعب جدا فقد كان هذا الاسبوع منهكا بالنسبة لاعصابي • كانت تصرفات هذا الرجل الذي وثقت به هذه الثقة قد أمرضتني • كيف تستطيع الانسانية أن تنجب مثل هذه النذالة والدناءة والخسة ؟

لم أستطع أن أطاوع نفسي بالحكم عليه بالاعدام • ولقد وجهت الي انتقادات شديدة من جراء العفو الذي منحته اياه • فقد غدا فعلا فور اطلاق سراحه عدوا لدودا مدى سنوات •

كثير من الناس يعتقدون بأنه قد أخطأني الصواب من جراء الابقاء على حياته ولكنهم نسوا عاملا جوهريا ليس له أي طابع شخصي ذاتي • انني لا أستطيع أن أعرف ماذا كان سيعني اسم علي أبو نوار في السنين المقبلة لو تم اعدامه • وليس لدي رغبة في أن أجعل منه بطلا يميز فترة من تاريخ الاردن •

سألته من جديد :

- « ماذا تنتظر مني ؟ » •

- فأجاب : هل أستطيع أن أذهب الى ايطاليا لقضاء أسبوعين فيها ريثما تهدأ الامور ؟ •

- قلت له : « أوافق على ذلك • انك تستطيع الذهاب » •

كنت أعرف أنه عندما يغادر الاردن فلسوف لن نراه مرة أخرى قبل مرور بضع سنين • ولم أخطىء في تقديري • فقد أمضى الليلة ، ويا لسخرية القدر ، مع سعيد المفتي الذي كنت قد طلبت اليه أن يتولى العناية به • وقد اضطر أخو سعيد الذي كان طبيبا ، أن يعطيه مسكّنا • وفي اليوم التالي سافر علي أبو نوار مع أسرته الى دمشق •
تجاوز الليل منتصفه ، ولكن النوم لم يكن موضوع بحث • كان

علي أن أنجز أمرين : تشكيل حكومة ، ومخاطبة الشعب عن طريق الاذاعة ، لاطلاعه على الاحداث الاخيرة • كانت محطة البث الرئيسية لدينا موجودة في القدس ولم يكن لعمان سوى جهاز بث صغير ضمن استوديو صغير أيضا لا يغطي سائر المناطق •

لم تنته بعد المعوقات والمزعجات • وكان لا بد من بضعة أيام أخرى لاعادة النظام والاستقرار • حاولت أن أشكل حكومة خلال هذه الايام المنهكة وهذه الليالي التي مرت بلا نوم • ولكن بدون جدوى • عينت قائدا عاما للجيش ، الا أنه فر الى دمشق • وتوقفت عن البث محطة الاذاعة الرئيسية في القدس ، في لحظة عصيبة ، لان مديرها والافراد الشيوعيين من موظفيها قد أغلقوها • جاءت وحدات الجيش الواحدة تلو الاخرى لتقسم يمين الاخلاص والولاء للملك وللاردن • ولكن اذا كانت مظاهر اعادة التنظيم قد بدت تعود في الداخل فان الضغوط الخارجية كانت ما زالت شديدة فقد احتشدت القوات الاسرائيلية على الحدود الاردنية متأهبة للهجوم • وازدادت دعايات الاقطار المجاورة حدة وعنفا بشكل خاص • وبينما كنت في صراع مع سائر هذه المشكلات غادر لواء مدرع سوري ، تحت القيادة العليا للجنرال المصري عامر ، غادر قاعدته في الشمال وطوق مدينة اربد تطويقا كاملا • وتساءلت : هل تنقضي مشاكلنا يوما ؟

كان يرابط في الاردن لواءان أحدهما سوري والآخر سعودي ، منذ حرب السويس • لم يكن الرئيس السوري ولا القائد العام لجيشه على علم بهذه المناورة العسكرية • وكانا يجهلان أيضا من أمر باجرائها ! ومع ذلك فقد أولاني الملك سعود تأييده ووضع تحت قيادتي القوات السعودية المعسكرة في الاردن • كان لواء جيدا • وقد بذلنا غاية ما في الوسع لنجعل منه قوة جد فعالة •

في اليوم التالي للمناورة السورية التي ألغيت بسرعة ، غادر القائد العام الجديد للجيش الاردني عمان ، لمقابلة زميله السوري

على الحدود بين البلدين . فقد كنت قد عينت اللواء الحياري ليخلف على أبو نوار . وكان قرارا خاطئا اذ بعد أن أقسم اليمين ، ذهبت لاستريح بضع ساعات . كانت أول سنة من النوم أنالها منذ أيام عديدة . وأوليت ادارة الامور لخالي الشريف ناصر . لقد كنا قد ألفنا الانباء التي تبعث على الدهشة والحيرة ، الى الحد الذي لم يكلف خالي نفسه أمر ايقاظي واعلامي عندما بلغه أن اللواء الحياري قد لجأ الى سورية. كانت الساعة قد بلغت السابعة صباحا ، عندما دخل الشريف ناصر غرفتي . وكان الحياري قد غادر البلاد منذ عدة ساعات . حياني بتحية الصباح فحييته بمثلها وسألته هل من جديد ؟

ـ لا شيء ذو طابع خاص يا صاحب الجلالة . الا أن القائد العام لجيشكم قد فر الى سورية !

ـ لماذا لم توقظني ؟

ـ لم أكن أعتقد أن أمرا كهذا يستحق هذا العناء .

انفجرت ضاحكا لاننا كنا على علم بأن الحياري كان متورطا كعلي أبو نوار في المؤامرة ، وأنه بالاضافة الى ذلك كان ضعيفا . ولم أعينه قائدا عاما الا لانه لم يكن يوجد أحد غيره . كان هدوء خالي قد شرح صدري وشدد من عزيمتي الى أقصى الحدود .

لقد فكرت بأن « الامور على كل حال لا يمكن أن تغدوا أسوأ مما هي عليه » .

عندئذ عينت على رأس جيشي الجنرال حابس المجالي الذي كان صديقا قديما يتمتع بثقتي المطلقة .

ومع ذلك كان عليّ أن لا أنسى الحياة السياسية . اذ ما لبث أن تم اعداد فريق حكومي جديد . فقد عينت الدكتور حسين فخري الخالدي رئيسا للوزراء كما أن النابلسي نفسه قد عيّن وزيرا .

ولكن التوتر الداخلي الذي تبعته مظاهرات الشارع ، أضعف الحكومة بسرعة . وفي القدس ، كان المحرض الشيوعي يعقوب زيادين ، عضو مجلس الامة ، يهدد بتدمير وحرق الاماكن الاسلامية والمسيحية التي كان يسميها (أفيون الشعوب) بواسطة الاشرار من المخربين ، اذا لم يعمد الشعب الى التظاهر ضد الخالدي

وعندما جاءني الخالدي لتقديم استقالته ، وكانت عيناه ملأى بالدموع ، قال لي : « عندما فقدت أبويّ ، لم أذرف دمعة واحدة . ولكن اليوم ، أمام فقدان بعضهم للشعور بالمسئولية وانعدام وعيهم . وازاء الشرور والاضرار التي يتسببون بها لبلادي وشعبي فانني لم أستطع أن أتمالك نفسي . لقد أعددت مع ذلك كل شيء في حالة اعلان الاحكام العرفية . فالموقف يستلزم ذلك . ويبدو أنه هو الخيار الوحيد . أرجو لكم يا صاحب الجلالة حظا سعيدا ، وأشكركم جزيل الشكر على ثقتكم .

شكرته على كل الجهود التي بذلها . كان هنالك سياسيون آخرون ، ينتظرون في ديواني ، كنت قد استدعيتهم ، وكانت الساعة تقارب العاشرة مساء . كان بينهم صديق قديم هو ابراهيم هاشم الذي اغتيل في العراق بأسلوب جبان نذل . وسليمان طوقان وسمير الرفاعي الذي كان قد تقلد منصب رئيس الوزراء مرات عديدة . لم يكن الوقت مناسبا لالقاء الخطب . شرحت الموقف ثم أضفت : « أيها السادة ، ليس في الموضوع التماس وانما أمر . لقد قمنا باجراء سباق مع الشمس ضد ساعة حساب الوقت . اذا لم تتشكل حكومة غدا عند الفجر فلسوف تكون نهاية الاردن . نحن في حاجة الى السيطرة على الموقف بحزم ولا أستطيع أن أفعل ذلك لوحدي . هذه البلاد بلادكم . تذكروا أنكم قد بنيتموها بسواعدكم وعرقكم . ليس الآن وقت للتردد » .

تشكلت حكومة في فترة قياسية برئاسة ابراهيم هاشم . كانت محطة الاذاعة جاهزة لاذاعة رسالتي الى شعب الاردن . أعلنت

الاحكام العرفية ووضعنا القوات المسلحة على أهبة الاستعداد بصورة مؤقتة ، وحظر نشاط الاحزاب السياسية ٠

استطعت أخيرا أن أخطو بعض الخطوات أمام القصر وأن أستنشق هواء الصباح البارد النقي ٠ فقد عاد السلام الى الاردن وفرّ الخونة ٠ آويت الى فراشي في الساعة العاشرة صباحا ٠ لقد فقدت كل مفهوم للزمن ، في الليل وفي النهار على السواء ٠ استغرقت في النوم طويلا ، ولكن قبل أن أستسلم للرقاد ، حمدت الله على نعمائه ٠ فالاردن سوف يعود الى الحياة من جديد ٠

بدأ شهر رمضان يقترب من نهايته ٠ وانني أعتقد بأن الشعب بأجمعه قد حمد الله على أنه قد وقى بلادنا وصانها ٠ فقد كان وجودها مهددا تهديدا خطيرا ٠ طوال هذا الشهر الفضيل ٠ وهكذا انتهت هذه المرحلة الحرجة من حياتنا ٠ لقد اكتشفت فيما بعد أعلاما جديدة تمثل « جمهورية الاردن » ٠ فقد عثرنا على نموذجين منها في مكتب علي أبو نوار ٠ كانت ثقته بالنصر قد بلغت حدا جعله لا يكلف نفسه عناء اخفائهما ٠ ومن البديهي أن المؤامرة كانت موجهة من الخارج ، وكان هدفها النهائي ، بعد اغتيالي ، هو انشاء نوع من الاتحاد الفدرالي مع مصر ، وتحويل الاردن بذلك الى دولة تابعة لروسيا السوفياتية على افتراض أننا قد نجونا من التدمير ٠

مضت سنون عديدة على هذه الفترة ٠ ولقد قيل وكتب الكثير حولها ٠ بعضها صحيح وبعضها الآخر خطأ ٠ الجميع ، جميع المذنبين قد عفي عنهم ٠ غدا النمر مالكا لمزرعة واستقام غير بعيد عن عمان ٠ عمد معن أبو نوار الى دراسة العلوم السياسية وأصبح مواطنا نموذجيا ٠ وهو الآن سفير للاردن في بريطانيا العظمى ٠ انتهى علي أبو نوار بالعودة الى الاردن ، بعد أن قام (برحلات) طويلة في الاقطار العربية التقدمية ٠ وقد عمل بلا انقطاع وكان طوال السنوات الثلاث الاخيرة سفيرنا في باريس ٠

ويتولى الحياري الآن وظائف هامة في الادارة الاردنية ٠

يصعب على المرء اليوم أن يعتقد بأن مؤامرة أعدت بهذه الدقة والاحكام ، قد انتهت بالفشل ٠ ولكن المحرضين عليها ، والذين كانوا يودون أن يدفعوا بالاردن الى الدمار ، قد نسوا عنصرا هو أكثر العناصر أهمية ، وأعني به الشعب الاردني ٠

ومع ذلك لم يكن يحفّ بكم سوى الاعداء ، حتى تم انشاء الاتحاد العربي ؟

بعد زمن قصير ، في الرابع عشر من شباط (فبراير) ١٩٥٨ ، قرر العراق والاردن تحقيق الاتحاد العربي اثر موافقتهما على ميثاق دستوري مشترك . كان هذا الحدث التاريخي يكرّس جهودي وسنوات الكفاح من عمري . وكنت أرجو أحر الرجاء أن يطبع هذا الحدث بطابعه بداية عهد جديد للقضية العربية . كان اتحادنا المؤسس على المساواة المطلقة ، يشكل النموذج والحجر الاول الذي يجري ارساؤه في سبيل تحقيق وحدة عربية موسعة ، تنقصنا الآن بصورة تبعث على المرارة والالم .

ولكن ويا للاسف ، كان هذا أكثر مما يستطيع أن يحتمله بعض الحكام العرب . اذ بعد خمسة أشهر من توقيع المعاهدة ، اغتيل بوحشية ابن عمي فيصل . ولم يعد اتحادنا العربي سوى حلم منهار . أما المسئولية بأكملها لما جرى ، فتقع على عاتق الرئيس عبد الناصر ، لسبب بسيط : وهو أن اتحادنا كان يشكل مثلا أعلى في العلاقات بين شعبين شقيقين . كانت مصر وسورية قد أنشأتا قبل أسبوعين الجمهورية العربية المتحدة . وبينما كان العراق والاردن شريكين متساويين في الاتحاد العربي ، كانت مصر تستعبد سورية في الجمهورية العربية المتحدة . فأدرك عبد الناصر فوراً التوازن المثالي للطريقة التي انتهجناها ، هذا التوازن الذي كان ينقص ما اعتمده من أسلوب . وانني أعتقد أيضا بأنه كان لديه ما يكفي من الفطنة والدراية لكي يفهم أنه اذا ما أجريت مقارنة بين تجربتينا ، فان التجربة التي تخصنا ستكون حتما أشدّ فعالية وأكثر واقعية بمراحل . فالعراق بثرواته النفطية على شواطيء الخليج التي كان عبد الناصر يطمع فيها ، يعتبر أحد أقوى الدول في العالم العربي . فاتحاده مع الاردن من شأنه أن يضع حدا للحلم الذي طالما داعب خيال عبد الناصر وهو : أن يجعل من

الجمهورية العربية وحدة جغرافية . ذلك لان حدود الاتحاد العربي الجديد الذي يرتبط بميثاق للدفاع المشترك ، تمتد من سيناء ، الى الكويت . ولما كان عبد الناصر يعلل نفسه بالامل في أن يبتلع الاردن يوما لكي يجعل منه جسرا بين سورية ومصر ، فقد جاء اتحادنا يعرقل طموحاته ويشكل سدا طبيعيا في مواجهة تصاعد الشيوعية في العالم العربي ، لا سيما أن الملك فيصل وأنا ، كنا أحفاد الزعيم الهاشمي الكبير الشريف حسين الذي رفع راية الثورة العربية ضد الاتراك خلال الحرب العالمية الاولى . لقد جرى تتويجنا في نفس اليوم وكنا نؤمن بحماسة بالغة ، بحرية العرب الحقيقية التي ناضل جدنا من أجلها . ثم سنحت لنا فرصة الاثبات للعالم العربي كيف أن نظام حكم دستوري ديموقراطي يمكن أن يطبق على بلادين تقدميين .

ما أكثر الآمال الكبار التي كانت تملأ قلبينا في صباح هذا اليوم الرابع عشر من شباط (فبراير) عندما كان علمنا الجديد، الاسود والابيض والاخضر ، يرتفع صاعدا نحو السماء ! لقد عملت بلا انقطاع من أجل وحدة بلدينا . ولو كان الامر لا يتعلق الا بي وحدي، لكان الاتحاد قد ولد منذ مدة طويلة . عندما عانقت فيصل تبادرت الى ذهني أولى كلمات خطابي الذي أذعته بالراديو وهي : « هذا هو أسعد أيام حياتي انه يوم عظيم في التاريخ العربي . لقد اتحدنا في ظل علم واحد ، في ظل راية العروبة التي حملها دائما جدنا الاكبر الوقور الحسين بن علي الكبير ، خلال الثورة العربية الكبرى » .

ولقد قبلت بسرور تعيين فيصل على رأس الاتحاد وأن تصبح بغداد وعمان عاصمة على التوالي . كل منها لمدة ستة أشهر . كان الاتحاد مفتوحا لكل بلد عربي يرغب في الانضمام اليه . كان لا بد من توحيد السياسة الخارجية والمالية والتربية والتعليم والتمثيل الدبلوماسي لبلدينا في الاشهر المقبلة ، على أن تحافظ مع ذلك كل دولة على وجودها المستقل ، وسيادتها الاقليمية والنظام القائم فيها .

لقد درست في مطلع ولايتي الملكية نوعا من الاتحاد القومي على أساس ميثاق بغداد ٠ ولكن آمالي تلاشت عندما رأيت بأية سرعة وقّع الاتفاق الذي لـ ميشتمل الا على العراق فقط ٠ بينما كانت الحكمة تقضي باعداد ميثاق دفاعي يضم سائر البلاد العربية ٠ فالاردن بصفته شريكا في الاتحاد العربي لم يبرم ميثاق بغداد ٠ ولكنني كنت مدركا بأن اتحادنا سوف يدعم دعما قويا خطنا الدفاعي ضد بعض البلاد التي كانت تؤيد التغلغل الشيوعي في العالم العربي ٠

كل شيء لميتمبالطبع بلا مشقة ٠ فقد برزت صعوبات لا مفر منها عندما اتحدنا تحت علم واحد ٠ بعض هذه الصعوبات نجمت عن المشاكل التي كانت تواجه فيصلا ٠ كان ابن عمي ورفيق دراستي في هارو مقربا الى نفسي ٠ فتبينت الامنية التي أعرب عنها عبد الناصر في عام ١٩٥٥ اذ قال : « انني أتمنى له الكثير من النجاح وأعلق عليه آمالا كبارا » ٠ ولكن فيصلا كان يعيش مأساة٠ فلم يستطع أن يحقق أية من رغباته ومشروعاته ، ولم تعط له الفرصة اطلاقا ليمارس شخصيا مسئولياته ٠ وعندما أفكر في اليوم الذي وقعت فيه معاهدة الاتحاد ، يعود الى ذهني الكثير من الذكريات التي أعتقد بضرورة الكشف عنها ٠ لا لشيء الا للدفاع عن ذكرى صديقي وأخي في الدم ، فيصل ٠ ان الحوادث التي سأرويها قد سبقت اغتيال ابن عمي ، اذ لم يحمل الحكام العراقيون على محمل الجد تحذيراتي المتكررة ، كما أن فيصلا كان عاجزا أو غير قادر على أن يفصل في أمر أو أن يقوم بعمل ٠

عندما كنت في هارو ، كنت أحب أن أتمتع بحريتي ٠ وكانت تقلقني رؤية فيصل مخنوق الارادة ، لا يتمكن من التصرف منفردا فكأنه كان واقعا في شرك نصب له ٠ وليس في نيتي أن أنحي باللائمة على الجيل القديم من الساسة الذين تولوا تربيته ، ولكنني لا أستطيع تجنب ذكر بعض عدم التوازن في علاقاته مع خاله ولي العهد ، الذي اغتيل الى جانبه خلال مذبحة بغداد ٠

ان فيصلا غير معروف معرفة جيدة من الغرب ٠ فهل تستطيعون أن تحدثونا عنه أكثر قليلا ؟

عين ولي العهد ، الامير عبد الاله وصيا بعد وفاة والد فيصل ، الملك الشعبي غازي الذي توفاه الله على أثر حادث سيارة ٠ كان فيصل ما زال بعد طفلا ٠ فسيطر ولي العهد على المسرح السياسي العراقي طوال سنوات ريثما يبلغ ابن عمي سن الرشد ويتمكن من ممارسة سلطاته الدستورية ٠ كانت البلاد بأسرها تبتهل الى الله لكي يصبح ملكا في أحد الايام ٠ ولكن حتى في هذا اليوم لم يطرأ على الامر أي تغيير يذكر ٠

كان ولي العهد قد عمل الشيء الكثير للعراق ٠ ولكن تأثيره على فيصل كان من العمق بحيث بقي الرئيس الفعلي ٠ وعلى الرغم من أنه لم يكن يملك الكثير من الشعبية ، الا أنه كان يتمتع بسلطة واسعة ، احتفظ بها حتى آخر يوم من حياته ٠ ولعل مما يؤسفني جد الاسف ، أنني شخصيا لم أكن مع ولي العهد ، على صلة ودية ولئن كانت تقاليدنا شديدة الدقة فيما يتعلق بالاحترام الواجب الاعراب عنه لكبار السن ، الا أنه كان يصعب عليّ أحيانا أن أتقيد بها ٠ وتعود برودة العلاقات بيننا الى حادث وقع في ساند هيرست ٠

عندما كنت تلميذ ضابط ، كان الملك فيصل يشغل دارا في مدينة ستين يستخدمها في رحلاته الى بريطانيا العظمى ٠ جاء في أحد الايام لزيارتي في ساند هيرست ، بصحبة ولي العهد ٠ اعتقد تذكر أن ذلك كان يوم سبت ، لانني كنت في اجازة وكنت قد اعتزمت الذهاب الى لندن ٠ ولكن في لحظة المغادرة سألني :
« لماذا لا تأتي معنا الىستين لتناول الشاي ؟ انك تستطيع أن تذهب بعدئذ الى لندن اذا شئت » ٠

قبلت الدعوة وانطلقنا معا ٠ كان ولي العهد يقود السيارة بنفسه وكان المرافق العسكري الذي كان قائدا للحرس الملكي العراقي أثناء الانقلاب ، يحتل المقعد الامامي الآخر ٠ وكنت أنا وفيصل نجلس على المقعد الخلفي ٠ وكانت سيارتي تتبعنا ٠

نشب شجار في الطريق بين فيصل وخاله ٠ لم أستحسن اطلاقا أن يحدث مثل هذا الخصام أمام المرافق العسكري وبحضوري ولكنني جاهدت نفسي لكي أكظم غيظا كان يتعاظم ثم توقف النزاع لحسن الحظ ٠

كنا على مقربة من ستين عندما سأل فيصل ولي العهد : « ألا نستطيع أن نسلك طريقا منحرفا ياخالي ٠ يوجد فيلم تصور مناظره غير بعيد من هنا ٠ وستكون رؤية الكيفية التي يجري فيها العمل هنالك ، مدعاة للبهجة والسرور » ٠

لم يتنازل ولي العهد حتى بالاجابة ٠ أصبت بالذهول ، لان فيصلا كان ملكا للعراق على كل حال ! استشاط عبد الاله غضبا من جديد بدون سبب مبرر ٠ وجعل يشتم الملك ويوبخه ويعنّفه كما لو كان صبيا غير مؤدب ٠

فقدت عندئذ رباطة جأشي ، وزايلني هدوء أعصابي وانفجرت قائلا : « خففوا السرعة اذا سمحتم ٠ انني آسف لحضوري هذا الشجار العائلي ٠ وانني لا أستطيع أن أحتمل أكثر مما فعلت ٠ وانني أقل استعدادا أيضا لمعاودة سماعكم ٠ توقفوا من فضلكم »

تسمّرت السيارة في مكانها ٠ وخرجت دون أن أتفوه بكلمة ٠ وأغلقت الباب بشدة ٠ وانتهت حفلة الشاي الى هذا الحد ٠ انتظرت سيارتي وذهبت الى لندن ٠ ربما كنت عنيفا بعض الشيء ، ولكن صبري قد نفد ٠ لقد ثقل عليّ تراكم هذه المنغصات التي كان يكابدها ابن عمي الذي أحببته كأخي ٠

وانني لعلى اعتقاد بأن ولي العهد ، لم يغفر لي أبدا ما حدث ٠ خلال الفترة التي ازداد فيها مرض والدي سوءا ، وكان مستقبل الملكية مزعزعا ، كان الامير موجودا في عمان فأسرّ الى رئيس الوزراء قائلا : « مهما حدث لا تدعوا الحسين يعتلي العرش ، على الاقل ليس في وقت مبكر » ٠

- فسأله رئيس الوزراء لماذا ؟

- فأجاب الامير : انه ليس أهلا للمسئولية ٠ ويجهل كل شيء عن جلال الملك ووقاره » ٠ وأضاف الى ذلك شكاوى أخرى ٠ ولكن رئيس الوزراء لم يعر ذلك أقل أهمية ٠ وانني لاذكر أيضا حادثا آخر أخرجني عن طوري ٠

كنت في رحلة الى بغداد ٠ وكان فيصل يطوف معي في زيارة لقصره وملحقاته ٠ كنا نتقدم الموكب ٠ وكان فيصل يقود سيارة رياضية الطراز صغيرة قديمة العهد على ما أعتقد ، بينما كان ولي العهد والشخصيات الاخرى يقتفون أثرنا في سيارات رولس رويس فخمة من أحدث طراز ٠

سألته : « لماذا لا تملك سيارة أكثر لياقة ؟ » ٠

فرفع فيصل كتفيه ولم يحر جوابا ٠ بلغت مني الحيرة والاضطراب حداً جعلني عند عودتي الى مقر اقامتي ، أن أتصل هاتفيا بموريس رينور في عمان قائلا : « أرجوك أن تأتي بسيارتي الجديدة من طراز اوستن مارتن ٠ فقد أهديتها الى الملك فيصل » ٠
هذا الحادث وحوادث أخرى تلتها لم يكن في مقدورها بالطبع أن تدعم علاقاتي بولي العهد ٠ لقد رويتها لك لاشرح سبب وجود هذا التباعد بين فيصل وشعبه ٠ كان لا يستطيع التصرف الا باذن ٠ وهذا الاذن لم يمنح له دوما ٠

هذه الامثلة توضح أيضا الاسباب العميقة لبعض الصعوبات التي جابهتنا عند انشاء الاتحاد العربي • كانت المحادثات التمهيدية بيني وبين الملك فيصل تجري في عمان ضمن أفضل الشروط والظروف • فقد وافق فيصل مثلا أن نترأس الاتحاد العربي نحن الاثنين بالتناوب • وعندما وصل ولي العهد برزت الاحداث الاولى • بدأ يعارض اتفاقنا بشدة • وخلال ليلة كاملة ، كانت احدى أطول الليالي التي استغرقتها مفاوضاتنا ، أذكر اننا تشاجرنا حتى تم التوصل الى هذا الخيار : اما أن يتزعم الملك فيصل الاتحاد دون تناوب ، أو أن صيغة التناوب يجب أن تؤمن للعراق عددا أكثر من النواب في البرلمان المشترك •

كان فيصل منقبض النفس •أما أنا فلحقت بي اهانة • ولكن الامر الجوهري كان ايقاف الاتحاد على قدميه • فأعلنت عندئذ : « ان وضعي الشخصي لا يهمني الا قليلا • ولكنني لا أستطيع أن أقبل الاضرار بمصالح شعبي • يجب أن يكون للاردن من الاعضاء في البرلمان عدد مساو لما للعراق فيه • فالاتحاد يجب أن يؤسس على المساواة » •

وعندئذ اتفقنا • وبفضل هذا التنازل أصبح الملك فيصل هو الرئيس للاتحاد • وهكذا ولد الاتحاد العربي •

لقد أعرنا بالطبع الكثير من الاهمية لموقف عبد الناصر ازاء الاتحاد الجديد • في مطلع الامر بدا مؤيدا وبعث بتهانيه الى الملك فيصل حتى قبل أن يعود الاخير الى بغداد • وقد وصف الاتحاد « باللحظة المباركة » التي انتظرها العالم العربي بفيض من الامل وقال بأن شعوره العميق هو أن شباب وايمان واخلاص فيصل سوف تساعد كثيرا على تحقيق حلم العرب الكبير في الوحدة • وأن القومية العربية فخورة بالخطوة التي تم انجازها في عمان وأنه واثق من أن ما استجد من أحداث في هذه الايام الخالدة بالنسبة للشعوب العربية لتبشر ببزوغ فجر الوحدة الكبرى • واختتم عبد

الناصر كلمته قائلا : « انني أهنىء جلالتكم من كل قلبي • وأرجو الله أن يسدد خطاكم في طريق النجاح وأن يبارك شعبكم العظيم » •

حوّل الملك فيصل الرسالة الي وسألني رأيي فيها • لقد حملتني البرقية على الابتسام فمنذ الايام العنيفة التي ثارت فيها الفتن وحوادث الشغب بمناسبة حلف بغداد بتحريض من عبد الناصر وأنا أبذل ما في وسعي للتوفيق بيننا • وخلال غزو السويس ، لعب الاردن دورا كبيرا في حث العالم العربي على الوحدة • وكنا أول من ساند عبد الناصر عندما أممت قناة السويس ، وأول من دعا الى اتحاد العالم العربي لدعم عبد الناصر ، بعد هجوم اسرائيل والاقطار الغربية على مصر • كما أننا كنا أول المقاتلين في حرب عام ١٩٦٧ • ولقد عملت مع الرئيس اللبناني كميل شمعون على الاعداد لمؤتمر تجتمع فيه الدول العربية لتأييد مصر • كانت مهمة في غاية الصعوبة آنئذ ، أن نجمع شمل العالم العربي للوقوف الى جانب قضية عبد الناصر !

هذه الذكريات عادت الى ذهني عند قراءة البرقية • فعبد الناصر كان يعرف الجهود التي بذلها الاردن لتحقيق الاتحاد • فلم يبعث اليّ بتهانيه • وكنت أعرف بالطبع لماذا •

كان « نسيانه » يدل على أنه لا الاردن كبلد ، ولا الحسين كملك قد أصبح لهما أهمية في نظره بعد الآن • كان عبد الناصر يتوقع أن يسيطر العراق على الاردن • كان عاجزا عن فهم أننا كنا شركاء أحرارا متساوين • ومرت السنون منذ ذلك العهد ، فقد مات فيصل وعبد الاله ، وتوفي عبد الناصر وآخرون غيره • أما الاردن فما زال واقفا على قدميه •

اليك الآن كيف بلغنا نبأ الانقلاب العسكري الذي أثير في العراق وكيف أننا لم نتمكن من أن نقنع العراقيين في أن يحملوا تحذيراتنا على محمل الجد • انها قصة ذات طابع مأساوي بالغ •

لقد حذرت شخصيا ابن عمي فيصل من هذا الخطر المهدد قبل اليوم المحتوم ٠ فقد جاءتنا أول الظنون والشكوك على اثر اعتقال عميل ناصري يدعى أحمد يوسف الحياري ٠ وهو أردني من رجال كتيبة المدرعات الرابعة ٠ كان أحمد يوسف يعتزم اغتيالي واغتيال خالي الشريف ناصر في الوقت نفسه وكذلك بعض المسئولين الآخرين عن طريق القاء قنابل خلال احتفال عام كان عليّ أن أترأسه ٠ وعند اعتقاله أدلى باعترافات كاملة وأبلغ عن انقلاب عسكري تعده الجمهورية العربية المتحدة يفترض وقوعه في العراق والاردن في منتصف تموز (يوليو) ٠ ولقد وفرت لنا المعلومات التي تم الحصول عليها فيما بعد ، تفاصيل المؤامرة وأسماء بعض المحرضين ٠ كان المفروض أن تقع المؤامرة في كل من بغداد وعمان في آن واحد ٠ وكان أول رد فعل لديّ هو تحذير ابن عمي فيصل ٠ فاتصلت به هاتفيا وقلت له : « لدي معلومات هامة لابلاغكم اياها حول (انقلاب عسكري) يدبر في العراق ٠ كونوا حذرين متيقظين » ٠

ـ سألني : بماذا تنصحونني ؟ ٠

ـ فأجبت : « ابعثوا لي أحدا ، يكون شخصية هامة ، ولسوف أعطيه سائر التفصيلات ، ولكن افعلوا بسرعة ٠

شكرني الملك فيصل وبعث اليّ بالفريق رفيق عارف القائد العام لقوات الاتحاد العربي الذي وصل بالطائرة ٠ لم يكن ثمة وقت يمكن اضاعته اذا ما أريد اكتشاف المتآمرين في الوقت المناسب ٠ أدخل عليّ الفريق عارف فور وصوله الى عمان ٠ وانني ما زلت أذكر المشهد : كان معي رئيس الديوان ورئيس الوزراء والفريق عارف ، والقائد العام للقوات الاردنية ٠ قدم ضابط من المخابرات لعارف بتأن وبدقة التفاصيل والاثباتات التي تمكنا من جمعها ٠ كنت من وقت الى آخر ألقي على الفريق عارف نظرات خفية ٠ كان يبدو عليه السأم والملل ٠ وفي ختام الحديث ، تمطى وضحك هذا

الضحك المرح الفكه المعهود لدى كل العرب وقال :

« يا صاحب الجلالة ، اننا جد ممتنون لجلالتكم ٠ وانني أقدر جهودكم ٠ ولكنني أريد أن أؤكد لكم بأن الجيش العراقي مؤسس على تقاليد متينة ، وهو على كل حال يعتبر أفضل جيش في الشرق الاوسط ، فهو لم يعرف المشاكل ولا التغيرات التي طرأت حديثا على الشرق الاوسط » ٠ وتوقف لحظة ليلتقط أنفاسه ثم قال : « لدي انطباع بأن الاحرى بنا نحن أن نقلق على مصير الاردن ٠ فهذا الانقلاب يهدد بلادكم فعلا وليس بلادنا ٠ فأرجوكم أن تراعوا جانب الحذر والحيطة ٠

ـ فصحت به : ولكن لا بد لك من أن تفهم خطورة الموقف والتهديد الذي يلقي بثقله على العراق أيضا ٠

ـ فأجابني : أؤكد لكم بأنني فهمت ٠ ولكنني أشك في ذلك ٠

ـ ورجوته قائلا : عدني على الاقل بأنك سوف تطلع الملك فيصل والسلطات على كل الوثائق التي أبلغناك اياها ٠

ـ أعدكم يا صاحب الجلالة بأن الملك والحكومة سوف يجري ابلاغهما ٠

ثم غادرنا الفريق عارف بعد أن فاه بهذه الكلمات ٠ لقد فعلت كل ما كان في وسعي لتحذير ابن عمي وابلاغه ٠ عاد الفريق عارف الى بغداد قبل أربعة أيام من يوم الاثنين الفاجع ٠ كنت وحدي مع شكوكي وظنوني أبتهل الى الله وآمل من كل قلبي أن يكون جزعي وقلقي واضطرابي لا أساس لها ٠ وأن يكون الامر مجرد انذار كاذب ولقد علمنا فيما بعد أن بغداد قد تلقت تحذيرات أخرى ولا سيما من جانب تركيا ٠

خلال العطلة الاسبوعية اتصلت بابن عمي هاتفيا من جديد ٠ كان ذلك عشية سفره في زيارة لتركيا ٠ فأعربت له عن تمنياتي له باقامة طيبة ٠ وكنت سأتولى رئاسة الاتحاد بالنيابة ، خلال غيابه ، ووعدته بأن أكرس له كل جهودي ٠

كيف أمكن لهذه المأساة أن تحدث ، على الرغم من تحذيراتكم وتحذيرات الاتراك وربما تحذيرات شاه ايران ؟

كان مقتل ابن عمي في يوم الاثنين الواقع في الرابع عشر من تموز (يوليو) ١٩٥٨ ٠ كان بالتأكيد احدى أقسى الصدمات التي كان عليّ أن أحتملها خلال ثلاثة وعشرين عاما من ولايتي الملك ٠ وكان على الصعيد السياسي كارثة ، اذ أدى الى انهيار الاتحاد بين بلدينا الذي سبق التوقيع عليه قبل فترة قصيرة ٠ كانت الساعة تقارب السابعة صباحا عندما أبلغت بالهاتف أن شيئا ما قد حدث في العراق ٠ كانت الانباء تتواتر متناقضة من سائر النواحي ٠ وساد جو من البلبلة والارتباك والتشوش ٠ لم أكن أعرف ما اذا كان الملك قد مات أم أنه كان سليما معافى ٠ كان ثمة شائعات تفيد بأنه في طريقه نحو تركيا كما كان مقررا ٠ كنا نريد أن تطمئن قلوبنا ٠ ولكن كان من المستحيل الاتصال ببغداد بالهاتف أو بالراديو ٠ كان العراق مقطوعا عن بقية العالم ٠ ولم تبلغنا الانباء الاولى الا في وقت متأخر من النهار ٠ ولسوء الحظ كانت تؤكد مخاوفي الاولى ٠

لم أكن أفهم سبب اغتيال ابن عمي والابقاء على حياتي ٠ ففيصل الذي كان يكبرني ببضعة أشهر ، لم يلحق أذى بأحد ٠ فهو لم يعرف أبدا السيطرة على أي موقف الى الحد الذي يجعله يتخذ قرارا سياسيا من شأنه أن يناوىء به أو يعاكس أو يغيظ أيا كان ٠ ومع ذلك كان هو وليس أنا الذي مات ٠ لقد كنا متقاربين روحيا الواحد نحو الآخر ، خلال حياتنا المشتركة القصيرة ٠ فعشنا متحدي القلب متفقي الرأي ٠ وكان جد كل منا على صلة وثيقة بالآخر أيضا ٠ كان جده فيصل الاول أخا للملك عبد الله ٠ وقد لعب دورا كبيرا في الثورة العربية ، وحارب لورانس الى جانبه ٠

عندما كنا أصغر سنا ، كنا نلعب معا ٠ وهو الذي أهداني أول دراجة لي ٠ وعندما كنا في هارو تناقشنا في مسائل ٠ كان من المحتمل أن نواجهها في يوم ما ٠ وانني أعتقد بأن الكثير من العراقيين المؤيدين منهم للملكية أو المناوئين لها ، على السواء ، لا بد وأنهم ، عند وفاته ، قدشعروا بالخزي الشديد للطريقة الوحشية لتي اغتيل بها ، وان السبعة عشر عاما التي مضت منذ وفاته لم تمحو بعد هذا الخزي ٠ كانت الملكية شعبية دوما في العراق ٠ وكان والد الملك فيصل ، الملك غازي صافي القلب طاهر السريرة صريحا وكان ليّن الجانب سهل المدخل ازاء شعبه ٠ وعندما توفي على أثر حادث سيارة ، هلل العراق بأسره لفيصل الصغير وانتظر بفارغ صبر استلامه مقاليد السلطة ٠ ولكن طموح فيصل ذبل ثم انطفأ على مهل ٠ لقد شعرت بذلك وحاولت التدخل ولكن أعبائي ومسئولياتي لم تدع لي وقتا لهذه الغاية ، فذهبت جهودي عبثا ٠

في اليوم نفسه اجتمع مجلس الوزراء في عمان ٠ واقترح عليّ كثير من أعضائه أن أقاوم بالقوة انشاء نظام جديد على اعتبار أن العراق والاردن كانا مرتبطين بمعاهدة تعاون مشترك ٠ ولم يكن الجيش العربي الاردني أبدا متحمسا ، حماسته وتصميمه آنئذ ٠ عرض عليّ أعضاء الوزارة أن أرسل فورا قوات الى الجزء العراقي من الاتحاد الذي لم يكن قد جرى حله بعد ، لمحاولة طرد المتآمرين واعادة النظام ٠

فشرحت بأوضح العبارات الممكنة الاسباب التي تحملني على رفض هذا التدخل : « نحن لسنا شعبا تواقا الى أن يفرض نفسه على الآخرين ٠ فاذا كان شعب العراق قد صمم على اختيار أسلوب آخر لحياته ، فله أن يتدبر أمره بنفسه ، مهما كانت وجهة نظرنا ازاء ذلك ، وربما بادرنا الى العمل فيما بعد ، اذا ما طلب الينا التدخل ولكن ليس قبل ذلك » ٠

ولقد تأثر قراري بعدة عوامل . أولا ماذا يستطاع انقاذه بعد ؟ لا شيء على حد علمي . فالملك وأسرته وأشخاص عديدون قد قتلوا . ثانيا نحن لا نعرف كيف جرت الامور حقيقة في العراق ، وبذلك فان من الصعب أن نتمكن من السماح لانفسنا بارسال قوات هنالك . فاذا كان علينا أن نقاتل ، فان ضرباتنا يجب أن توجه ضد العناصر التي حاكت المؤامرة وليس ضد الابرياء المضللين .

كنت قلقا أيضا من التهديد الذي كان يلقي بثقله على الاردن لانه كلما تعرض شعب عربي لبعض الصعوبات ، كانت اسرائيل على استعداد للهجوم . فنحن ليس في مقدورنا أن ندع حدودنا التي تمتد ستمائة كيلو متر بلا حماية دون أن نستقطب بعض المتاعب .

ولما كنت أعرف من ناحية أخرى أن القاهرة كانت مصممة على الاطاحة بالملكية في الاردن فقد كنا في الواقع مرغمين على مجابهة عدو مزدوج . فقد غدا الاردن السد الوحيد في وجه الشيوعية . كما أن الجمهورية العربية المتحدة لم تكن تطمع في أقل من السيطرة على العالم العربي .

من الصعب على الذين لم يزوروا الاردن ، أن يتصوروا مقدار الآلام التي قاسيناها طوال هذا الصيف الفاجع من عام ١٩٥٨ . لم يكن لطرقنا أي منفذ على العالم الخارجي . فقد حاصر السوريون رواقنا الجوي وسككنا الحديدية . وكان ميناؤنا الوحيد في العقبة الذي يبعد ثلاثمائة كيلو متر من عمان ، غير متطور بما فيه الكفاية كما أن الطريق الصحراوي الذي يربط عمان بالعقبة كان غير مكتمل بعد . كنا محاصرين حصارا كاملا .

احتفلت القوات العراقية المرابطة في الاردن ، عند الانقلاب ، بفرح شديد ، بالاطاحة بالملكية ، معربة عن أملها في أن دور الاردن لن يتأخر . احتجز بعض الضباط العراقيين لبضعة أيام في

الاردن وعاملناهم بمنتهى الرعاية والاكرام ، لاننا كنا نود التأكد من السماح للاردنيين الذين ما زالوا على قيد الحياة في بغداد بالعودة الى بلادهم . ولقد فقدنا العديد من كبار الوطنيين أثناء التمرد . كان بينهم سليمان طوقان وزير الدفاع ، وابراهيم هاشم الشيخ الحكيم الذي كان من رجال القانون اللامعين ومن كبار الاداريين . فقد تولى رئاسة الوزارة عدة مرات ، وكان عند قيام الاتحاد ، نائبا لنوري السعيد رئيس الوزراء .

كان الطقس حارا أثناء صيف عام ١٩٥٨ ، وكانت الاخطار المهددة تحوم فوق بلادنا . بدأ الانتظار الطويل ، الانتظار الذي لا نهاية له . ما الذي سيقع ؟ ما الذي سيفعله آخر الفراعنة في الجانب الآخر من النيل ؟

وكان الاسوأ من هذا ، هو أن حلفاءنا في العالم الحر الذين ضحى من اجلهم زعماء العراق بأرواحهم ، هذه الاقطار التي كافح وقاوم العراق التغلغل الشيوعي الى جانبها ، هذه الامم ، قد اعترفت الواحدة تلو الاخرى بالنظام الجديد في بغداد . كانت مسارعتها في اقامة علاقات مع الزعماء العراقيين الجدد في الوقت الذي لم تكد تدفن الآف الجثث ، لا نظير لها سوى ما أبدته من قلة الحياء وانعدام الاحتشام . حدثت هذه الاغتيالات في الرابع عشر من تموز (يوليو) فاذا بتركيا تعترف بالنظام الجديد في (٣١) منه ، ثم اعتبارا من الاول من آب (أغسطس) لحقت بها بريطانيا العظمى والولايات المتحدة الامريكية .

ومنذ ذلك الحين بدأ الطوق الحديدي يشتد ضغطه حولنا . كان ينقصنا الوقود وكذلك .. الاصدقاء . فقد أغلق السوريون حدودهم في وجه كل تعامل معنا . لم نعد قادرين على استخدام طرقنا التقليدية . كانت الصهاريج ممنوعة من اجتياز سورية للوصول

الى لبنان وتأمين تزويدنا بالوقود ٠ كنا قد بدأنا استيراده من العراق فاذا بهذا المصدر يجف معينه ، حتى أن العراق سمح لنفسه باحتجاز صهاريجنا ليزيد من اختناقنا ٠ كان الوقود في غاية الضرورة لنا من أجل ضخ الماء اللازم لاستهلاك السكان في عمان وفي المدن الاخرى ، وكذلك من أجل توليد الكهرباء ، ونقل المؤن الى جنوب البلاد ، حيث كان المحصول سيئا ، ولنقل الماء أيضا ٠

أصابني اليأس ، فتوجهت بالنداء الى الولايات المتحدة التي كانت مصادرها من النفط في المنطقة لا حدود لها ٠ رجوت القائم بأعمالها توماس رايت أن يأتي لمقابلتي ، وشرحت له بصراحة ، الصعوبات التي تعترضنا ، وأضفت : « ان الموقف حرج ، وبدون هذا النفط سوف لن نستطيع الاستمرار في العيش » ٠

بعد أقل من أربع وعشرين ساعة ، حطت الطائرات الاولى غير بعيد عن عمان ٠ وجعلت الصهاريج المتبقية عندنا توزع النفط في المدينة ٠ وعندما بدا أن كل شيء قد تمت تسويته ، وقعت حادثة غير منتظرة : لم تعد الطائرات تهبط في عمان ٠ ماذا جرى اذن ؟ ٠ اتصلت هاتفيا بالمطار ٠ كنت في البدء أعتقد بأن حادثا فنيا قد أعاق الطائرات عن الهبوط ٠ ولكن لم يكن الامر على هذا الحال ٠

هل غيرّت واشنطن رأيها ، لا : بل أصدقاؤنا في العربية السعودية الذين كان يتوقف عليهم مصيرنا قد رفضوا السماح للطائرات الامريكية التي تنقل النفط من الخليج ، بالتحليق فوق أراضيهم في حين أنه كان الطريق الممكن الوحيد ٠ كان بعض المستشارين في العربية السعودية يعتقدون أن الاردن يعيش ساعاته الاخيرة ، فلم يرغبوا أن يستفزوا عبد الناصر ٠

غدا الوضع خطيرا ٠ لم أكن أود أن أقول لشعبي ما كان القليل منا يعرفه ، وهو أن الاحتياطي من النفط لدينا قد نفد ٠ وأننا محاطون تماما بالاعداء ٠

عاد المستر رايت من جديد لمقابلتي حاملا أنباء أدعى الى القلق

قالَ لي : « يا صاحب الجلالة ن السعوديين لا يرفضون السماح لنا بأن نبعث اليكم بالوقود فحسب ، بل انهم يمانعون أيضا في عودة الطائرات الموجودة في الخليج حتى ولو كانت فارغة » ٠

بدأ اليأس يتسرب الى نفسي ٠ انني أستطيع محاولة الحصول على مصادر أخرى للتموين ٠ ولكن أين أجد الطائرات الشاحنة لنقلها ؟

انني لا أذكر أنني كنت غاضبا مغتاظا الى هذا الحد في حياتي ٠

رفعت سماعة الهاتف وطلبت الملك سعود على عجل ٠ فاحتجت الى ثلاث ساعات لايصال ندائي ، اذ كانت الاتصالات الهاتفية مع هذه البلاد في غاية الصعوبة ٠

وبينما كنت أنتظر مخابرتي الهاتفية جعلت أتأمل في تعقّد الطبيعة الانسانية ٠ كنا وحدنا بلا مورد تقريبا ٠ لماذا ؟ ان تصرفا كهذا ما كان ليثير استغرابي من جانب الشيوعية التي ما كنت لانتظر منها أية شفقة على كل حال ٠ ولكن من جانب الاخوة العرب ٠٠٠ ! سمعت بعد قليل صوت الملك سعود من الطرف الآخر للخط ٠ لم أستطع أن أتمالك نفسي ٠ وعندما سألته لماذا يقابلنا عربي بالرفض ، اعتذر وقال :« لو كنت مطلعا على هذه التفاصيل لكنت تصرفت بشكل آخر ٠ أما الآن فقد فات الوقت ٠ لان الحكومة

قد سبق لها أن اتخذت قرارها » ٠

قلت في نفسي ما أسخف هذا العذر ! وأجبته : « انني لن أنسى ما حييت هذا الرفض الذيتواجه به بلادي وشعبي في لحظة حاسمة نجاهد فيها للابقاء على حياتنا » ٠

بعد انقطاع قصير الامد ، تلقينا الوقود ، ولكن بأكثر الاساليب الممكنة اهانة واذلالا ٠ جاء التموين من لبنان ، ونقل كل ليتر من الوقود عبر الاجواء الاسرائيلية ٠٠٠ وهكذا ، حيث قابلنا شعب عربي بالرفض ، قبل العدو ! ٠ وفي نفس الوقت الذي حاولت فيه أن أجد حلا للعديد من مشاكلي ، دعوت الحكومة الى اجتماع فوق

العادة يعقد في القصر ، وقررنا أن نطلب الى الولايات المتحدة والى بريطانيا العظمى أن تبعثا الينا ببعض القوات ٠ كنا في حاجة الى معونة ليست مادية بقدر ما هي معنوية ٠ كانت تكفي قوة رمزية وأقول صادقا بأنه كان قد أصابنا الاعياء ٠ فلم يكن في مقدورنا أن نفعل غير ذلك ٠ كان علينا أن نجابه المؤامرات داخل البلاد ٠ وكانت تحتشد قوات عسكرية على حدودنا ٠ وكنا ما زلنا بعد ، أعضاء في الاتحاد العربي ٠ فوجدت نفسي اذن زعيما للاتحاد العربي الذي لم يجر حله تماما بعد ٠ ولما كانت المعاهدة الاردنية العراقية قد نصت على أنه في حالة حدوث أزمة داخلية يتوجب على القطرين تبادل المساعدات حتى العسكرية منها اذا ما دعت الضرورة ، فقد كنا في حاجة ، في هذه الظروف ، الى قوة رادعة قادرة على صد العدوان خلال غياب قواتنا الخاصة ٠ كان هذا القرار هاما ٠ ولم يكن في مقدوري اتخاذه وحدي ٠ عندما وافقت الحكومة على اعتبار هذا الطلب ملائما ، أمرت بعقد مؤتمر مشترك يضم الوزراء والنواب والاعيان ودعوت اليه أعضاء الاتحاد العربي ٠ قلت لهم بأن الحكومة تنظر في طلب عون القوات الامريكية والبريطانية ٠ وانني أدعو كل واحد منكم « أن يبدي رأيه حول هذا الموضوع وأن يعبّر بحرية عن وجهة نظره » ٠ فأقر اقتراح الحكومة بالاجماع ٠

ولما كان سفيرا الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى غائبين عن الاردن ، فقد استدعيت القائمين بالاعمال ٠ السيدين ميصون ورايت ٠ شرحت لهما بأننا لا نطلب مساعدتهم لمواجهة وضعنا الداخلي ، ولكن لاننا مقتنعين فقط بأن شعبا صغيرا حرا لا يستطيع أن يقف وحده لكي يواجه بمفرده الاضطرابات التي تهدده ٠ وأضفت : « انه لا يهمنا من تكون البلاد التي ستبعث الينا ببعض قواتها ٠ وان نحتاج الى هذه القوات للمرابطة فترة طويلة في الاردن ٠ ان العون الذي أطلبه باسم شعب الاردن يرمز الى التضامن الوثيق لبلدان العالم الحر » ٠

تركت للبريطانيين والامريكان مهمة أن يقرروا بأنفسهم من من

البلدين سيمنحنا مساعدته ٠ ووردنا الجواب بسرعة : سيأتي المظليون البريطانيون من قاعدتهم في قبرص ٠

اعتقلنا في ليلة الاربعاء (١٦) تموز (يوليو) آخر المتآمرين الذين كانوا يعدون للانقلاب وبذلك أفلتنا من هذا الانقلاب قبل وقوعه بقليل ٠ كنا نراقب مراقبة شديدة أبسط حركات وسكنات المتآمرين منذ أن برزت الدلائل الاولى وأمسكنا بالرسائل التي حددت اليوم التالي (١٧) تموز (يوليو) بداية للتمرد ٠ وبذلك نجا الاردن في آخر لحظة ٠ كان الانقلاب في الاصل قد تحدد له يوم الرابع عشر من تموز (يوليو) ولكن التدابير الامنية التي اتخذناها أرغمت المتآمرين على تأجيل موعد مؤامرتهم ٠

عندما ألقي المتآمرون في السجن ، تمكنت أخيرا من أخذ قسط من الراحة ، لانني منذ مذبحة بغداد ، لم أنم سوى أقل من ساعتين ٠ استيقظت باكرا في اليوم التالي ٠ ومنذ الساعة التاسعة والنصف كان الهدير يبشر بقدوم الطائرات الضخمة ، ووصول المظليين البريطانيين ٠

استطعت فيما بعد أن أعيد تشكيل صور الاحداث التي جرت في وايتهول ، والاسباب العميقة للجواب الرائع للمستر ماكميلان ، وللسرعة التي أقام الدليل عليها ٠ فقد وجدوا من الافضل على كل حال ارسال قوات بريطانية بدلا من قوات أمريكية ، لانه كان لدى البريطانيين قوات على أهبة الاستعداد في قبرص تستطيع أن تبلغ الاردن في الصباح ، في حين كان رجال البحرية الامريكية قد سبق لهم الشروع في النزول في لبنان ٠ كان في وسع البريطانيين أن يبادروا الى العمل بسرعة ٠ اذ في الوقت الذي تلقت انكلترا طلبنا ، كانت دوائر الاستخبارات البريطانية قد أطلعتها بالتفصيل عما كان يحاك من مؤامرات ٠ أدى امتزاج هذين العاملين الى امتناع رئيس الوزراء عن اتخاذ ما كان يدعوه « أصعب قرار » في حياته السياسية ٠ لقد أنذر ماكميلان بأن مستقبل الاردن مهدد بصورة خطيرة ، فدعا فورا أعضاء حكومته الى الاجتماع ٠

كان الوزراء البريطانيون مقتنعين بأنـه اذا لـم يتقرر التدخل البريطانـي العاجـل ، فـان الموقـف سيتعرض الـى خطـر ازدياد التدهور وبالتالي الى اشتعال الشرق الاوسط بأسره بسرعة ٠

ذلك لانـه اذا أصـاب العـراق الاردن بعـدواه ، فـان العربيـة السعودية ، هذا المخزون الجبار مـن احتياطي النفط ، ستتعرض الى خطر عدم الافلات من العدوى ٠ ومـن يستطيع في هـذه الحالة التنبؤ بالنتائج التي ستنجم عن ذلك ؟

اختتم اجتمـاع الوزارة في الساعة الثانيـة صباحا ٠ ووجهت رسالـة بالشيفرة الـى قبرص ٠ فصدرت الاوامـر الـى المظليين البريطانيين بالانطلاق الـى الاردن ٠ كان لا بد مـن العمل بسرعة لذلك أقلعت طائرات نقـل الجنود البريطانية على الفـور باتجاه عمـــان ٠

سأل نائب بريطاني في ذلك العهد ، عن سبب عدم اجـلاء ملك الاردن ونقله الى انكلترا بدلا من ارسال قوات الى عمان ؟

علمت بهذه القصة بعـد مضي سنة في الوقت الـذي كنت فيـه موجوداً في لنـدن ٠ فقلت عندئذ لرئيس الوزراء ، بمناسبة حفلة عشاء أقامها علـى شرفـي :

« ان عضوا محترمـا في برلمانكم قـد توهم أن اثنين مـن رجال الشرطة كانا كافيين لتأمين حمايتي ، وأنه لا تستدعي الضرورة ارسال قوات الى الاردن لكي تحميني ٠ انني لم أكن شخصيا فـي يوم من الايام في حاجة الى الحماية ٠ ان قواتكم لم تحم الاردن ولم تحمني أنا شخصيا ولكنها حمت قضية الحرية » ٠

كنتم محاطين بالاعداء أكثر فأكثر ٠

نعم كان عام ١٩٥٨ عام التجارب المريرة بالنسبة الي ، تماما كعام ١٩٧٠ ، ولسوف يبقى راسخا في ذهني الى الابد ٠ غادرت آخر فصائل القوة العسكرية البريطانية في عمان في (٢٩) تشرين الاول (أكتوبر) وأبحرت من العقبة في (٢) تشرين الثاني (نوفمبر) ولقد أتاح لنا مجرد وجودها خلال بضعة أشهـر أن نلتقط أنفاسنا بعض الشيء ٠ كان الجنود ذوو القبعات الحمـراء ، بتجوالهم فـي شوارع عمان ، قد مكنوا الشعب من التثبت من أننا لم نكن وحدنا وأنـه لا مجـال لليأس ٠

لقد كان عدد كبير مـن أفاضل رجـال الاردن متواجديـن عرضا واتفاقا في بغداد عند وقوع التمرد الذي فقدوا فيه حياتهم في نفس الوقت مع ابن عمي وأسرته ٠ كل شيء كان قـد أعد بمهارة لكـي يقع الانفجار في بغداد وعمان في آن واحد ٠ ولقد حصلنا على الادلة التي تؤيـد ذلك فيمـا بعـد ٠

كنت الهدف التالي في أذهان المتآمرين ٠ واذا كنت لم أخش على مصيري الشخصي أو مصيـر أسرتي ، فقـد كنت أشد قلقا على الاردن ، أسرتي الكبرى ٠ لقد انضم الي كـل أردني حقيـق بهذا الاسم خلال هـذه الفترة العصيبـة ، وأيدني بقدر مـا استطاع ٠ فأصبحت أشعـر بأنني زعيـم عشيرة يـزداد عددهـا باستمرار وتتوحد صفوفها بتسلسل الاحداث ، مما حال دون تدميرنا ٠ وكنت أدرك جيدا أنه اذا ما أصابني شيء ما ، فان بلادي سوف تنهار ٠ وما كان بودي أن أترك الاردن ما دمت أشعر بأن وجودي سوف يعود على بلادي بأي نفع مهما بلغ ٠

بقيت مسألـة جوهريـة : ماذا أفعـل لسائـر هـؤلاء الوطنيين المخلصين الذين برهنوا على ولائهم لي ؟ ٠ ان الحـل لا يكمن فـي

تشكيل حكومة جديدة • فقد كنا محاطين بأعداء لا يستطيع ايقافهم شيء ما دمت باقيا في منصبي • وانني لارجو أن تؤمن بأنهم كانوا خصوما مخيفين •

وعندما يتفحص المرء هذه السنين الماضية فانه سيتحقق من أن عام ١٩٥٨ كان ذروة سنين ثلاث كان الاردن خلالها تحت رحمة دعاية خارجية ترمي الى التخريب ، والى تسلل العملاء الشيوعيين كانت دعايتهم ذات مظهر براق ، وكانت تنتشر في أقصى أنحاء البلاد • وبينما كانت القاهرة تملك أجهزة للبث عصرية وقوية ، لم يكن لاذاعة عمان في ذلك العهد ، سوى جهاز قوته خمسة كيلواط يغطي مساحة نصف قطرها خمسون كيلو مترا • ولقد بذلنا ما في مقدورنا لمكافحة موجات السباب والشتائم التي كانت تتوارد علينا من الخارج • ولم يكن يسع المواطنين سوى الضحك عندما كانوا يعودون الى بيوتهم بعد انتهاء أعمالهم اليومية فيسمعون من أجهزتهم اللاقطة عبارات كهذه : « الجنود يتذابحون في عمان والدماء تغطي الارصفة بلونها الاحمر القاني ! » • الخ • بالطبع كثير من الناس البسطاء ، كانوا يصدقون أقوالا كهذه ، ولكنهم ما كانوا يشكلون الا أقلية ضئيلة لحسن الحظ •

واني لاذكر يوما كنت أقوم فيه بجولة بالسيارة مع صديق لي باتجاه جبل (نبو) • كان كل شيء هادئا عندما التقطت فجأة اذاعة القاهرة وسمعتها تقول : « سوف نقاتل الى أن نستأصل الحسين وزمرته » • وغير بعيد من ذلك المكان على سفح جبل الزيتون ، سمعت اذاعة دمشق تقذف بشتائم أخرى في الوقت الذي كنت فيه متواجدا في المكان الذي اقتيد اليه السيد المسيح لصلبه ! ولعل أكثر الامور خطورة بلا شك ، هو تسلل العملاء المحرضين الذين كانت أساليبهم في الافساد معروفة جيدا • كان هؤلاء العملاء كثيري العدد ، وكانوا يعيثون فسادا في مجموع أجزاء الوطن ، فيدخلون بشكل خاص أسلحة كان من الصعب علينا أن نحول دون تسربها لطول حدودنا وضعف الحراسة والمراقبة فيها أحيانا •

ولقد اتسع نطاق هذا التسلل الى الحد الذي اضطررنا فيه الى تعرية حدودنا الغربية بعض الشيء مع اسرائيل لتعزيز الحدود التي تفصلنا عن بعض الشعوب العربية الشقيقة ! • لم يكن ثمة شيء يتوقفون عنده • كانوا مصممين على عمل كل شيء • وهنالك واقعتان توجزان تماما هذا الوضع الذي لا يطاق :

الواقعة الاولى ، تورط فيها الملحق العسكري المصري في عمان الرائد فؤاد هلال الذي كان قد تعرف على عسكري أردني يعمل في الدائرة القضائية التابعة للقيادة العامة ، ويدعى صفوت شقير • أما هدفه : فهو رشوة شقير وحمله على اغتيالي •

لم تعد هذه المؤامرات ضدحياتي لتقلقني أبدا • ولو أنه كان لا بد من اكتشافها في حينها ! ولكن هذا الاسلوب الجديد الذي كان يستخدمه أعدائي قد بدا لي « مستقبحا » ، لا سيما وأن سفارة مصر كانت تتمتع بحمايتنا ! ، اسوة بكل السفارات الاخرى •

أبلغني ضابط استخبارات بالامر وقال : « نحن ننتظر حاليا • فلقد أعلمنا شقير أنه على موعد قريب مع الدبلوماسي المصري » •

– سألته : ما هي الادلة التي لديكم ؟ •

– فقال كل شيء مسجل يا صاحب الجلالة •

قررنا الاستمرار في ممارسة هذه اللعبة وانتظار الموعد المقبل • ولكن ما لبثت الامور أن فسدت • فقد اكتشف المصريون المسجل الصغير والسلاح الذي كان يحمله رجلنا ، فاحتجزوه طوال الليل ، وعذب وضرب ضربا مبرحا • فاضطر أن يوقع تحت التهديد المسلح « اعترافا » ، لم يحظ بالطبع في نظرنا بأية قيمة • وسلم المصريون شقيرا الى الشرطة زاعمين بشكل خاص أنه تسرب الى السفارة بطريق الكسر والتحطيم ، ولكنهم احتفظوا بسلاحه وبالمسجل الذي كان معه • وبالطبع طلبنا استدعاء هذا الملحق العسكري المزعج •

وقد جرى فيما بعد توقيف تسعة عشر شخصا آخرين ، كشفت محاكمتهم أن الرجل الذي كان يوجههم لم يكن سوى قنصل مصر العام محمد عبد العزيز • كان هو الذي يصدر اليهم أوامر التخريب والتدمير وادخال الاسلحة الى الاردن سرا ابتداء من قطاع غزة • وقد استدعي هو الآخر الى بلاده •

أما الواقعة الاخرى ، فقد جرت بعد تمرد الزرقاء ، وقبل قليل من مقتل ابن عمي في بغداد • في ذلك الوقت ، كنت أتوهم أن من الممكن أن تنتظم الامور ، وأن نستطيع العيش بسلام مع جيراننا وحتى أن نبني جيشا مشتركا مع مصر والعربية السعودية على السواء •

بينما كنت أعمل في القصر ذات مساء ، طلب ضابط مقابلتي والتحدث الي • كان يبدو مضطربا • قدم الي مظروفا ، ورجاني أن أطلع عليه • كانت رسالة مكتوبة من العقيد يسري قانصوه الممثل المصري لدى القيادة الموحدة لجيشنا ، وكانت موجهة الى اللواء محمد حافظ اسماعيل في رئاسة أركان الحرب في القاهرة : كان اغتيالي واردا فيها بالتفصيل • وكان بين الشركاء المتواطئين ، العديد من كبار الضباط والجنرالات الاردنيين الفارين الى دمشق والقاهرة ، فور حادث الزرقاء ، لا سيما علي أبو نوار والحياري • وقد أوردت رسالة قانصوه أيضا قائمة بضباط أردنيين كانوا يتظاهرون بأنهم من الموالين والنزيهين ، أي الخطرين اذن ! كان لا بد من العمل بسرعة • فقمنا باجراء اعتقالات عديدة لحسن الحظ قبل تدمير الجسور والمباني والامكنة الاستراتيجية الاخرى • وتم الاستيلاء على كميات هامة من الاسلحة والذخائر ، ومنشورات الدعاية • كان الوقت قد حان لكل هذا !

في ذلك الحين كان المرء يستطيع شراء الاسلحة السوفياتية في أي مكان • فقد دخل بعضها عن طريق التهريب وبعضها الآخر كانت مصر قد تركته في سيناء بعد حملة السويس • وقد حصل

أحد المقربين مني على قطعة من هذا السلاح على رصيف مشرب للقهوة في أريحا بدون أية صعوبة وبدون أن يعطي اسمه أو أن يبين نوع الاستعمال الذي من أجله يحتاج الى هذا السلاح • كان سلاحا ممتازا كما استطعت أن أتحقق من ذلك فيما بعد •

لقد افتتح الروس لانفسهم معظم الاسواق العربية عن طريق مبيعاتهم الرسمية من السلاح الى مصر • وبتواجدهم فيها أصبح من العسير طردهم منها • ربما كان المصريون غير راغبين في استضافة عدد من الروس والتشيكوسلوفاكيين ، ولكن عندما يشترون أسلحة ثقيلة وخفيفة تتطلب صيانة خاصة ، فانهم مضطرون على الغالب أن يحتفظوا بالباعة في متناول أيديهم ، ثم جاء دور الميج مع جميع « الخدمات اللازمة بعد البيع » ، والفنيين والعملاء والمدربين وأسرهم الخ ••• ، لقد سر الروس بذلك • فقد نالوا ما أرادوا • ومن ذلك الى الانطلاق نحو دمشق وبغداد ، أو أي مكان آخر ، لم يكن أمامهم سوى خطوة أخرى !

كان زعماء الدول العربية الذين كانوا يهاجموننا وقتئذ ، أدوات في أيدي موسكو دون أن يشعروا بذلك على الغالب • أما أنا فقد لبثت متمسكا بشدة بقناعتي بأن الشيوعية لا تستطيع في أية حال أن تساعد على تحرير الشعوب العربية ، لان كل فرد منهم لا بد أن يصبح في النهاية « عبدا لموسكو » •

لقد تعرضتم لعدة محاولات اغتيال منذ عام ١٩٥٢ . بعضهم يقول أنها عشرة ، وبعضهم يقول أنها عشرون . لقد قتل رؤساء وزارات وأعضاء حكومة ومقربون اليكم ، ما هي في نظركم المؤامرة ذات الطابع المميز والاكثر مأساوية ؟

كان بلا شك الهجوم الجوي السوري عام ١٩٥٨ بعد بضعة أشهر من المقتل الفاجع لابن عمي وأسرته في بغداد . فقد قدرت في نهاية تشرين الاول (أكتوبر) أن الازمة قد هدأت بما فيه الكفاية الى الحد الذي يمكنني من آخذ اجازة قصيرة . وعلى ذلك قررت الذهاب الى أوروبا بطائرتي الخاصة . فكاد هذا الطيران أن يكلفني حياتي .

أقلعت من عمان في الساعة الثامنة وعشرين دقيقة صباح العاشر من تشرين الثاني (نوفمبر) بالطائرة القديمة ذات المحركين التي كانت لجدي ثم أصبحت بعدئذ ملكا للقوات الجوية كان مساعد الطيار العقيد جوك دالجليش المستشار الجوي لدى القوات الجوية الملكية الاردنية عهدئذ . وكان المسافرون خالي الشريف ناصر واثنين من الطيارين في القوات الجوية الملكية الاردنية ، كانا مكلفين باعادة الطائرة ، وموريس رينور .

كانت السلطات السورية المؤيدة للناصرية ، تعرف قبل سفري بأنني سوف أكون في هذه الطائرة وأنني أعتزم الذهاب الى لوزان لقضاء ثلاثة أسابيع فيها بالقرب من والدتي الملكة زين الشرف ، ومن ابنتي عالية وبقية أفراد أسرتي . وكان علي أيضا أن أحتفل بعيد ميلادي في الرابع عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) . وقد حجزت غرف لهذه الغاية ، في بوريفاج الفندق نفسه الذي تلقيت فيه هذه البرقية التي كشفت ماحتمته الاقدار ، فنادت بي ملكا قبل ستة أعوام .

أبلغت شعبي بسفري ، على خلاف عادتي ، حتى أنني ألقيت

مهنتي كملك

خطابا وداعيا عشية رحلتي حضره سائر أعضاء السلك الدبلوماسي

لم يكن أبسط ، على ما يبدو ، من التحليق في سماء سورية ولبنان حتى قبرص ، أول محطة لنا ، ثم استئناف الرحلة نحو أثينا وروما ، كان هذا هو الطريق الاقصر المألوف . وكان من حقنا أن نتبع هذا الطريق نحو اوروبا .

عندما أقلعنا ، كان الجو باردا والسماء مغطاة بالغيوم ، فارتفعنا في السماء حتى بلغنا تسعة آلاف قدم لكي نتجه نحو الحدود السورية . تبددت الغيوم بسرعة ، واتصلنا بدمشق عن طريق الراديو محددين مكاننا فوق الحدود وطالبين السماح لنا بالاستمرار في الطيران .

ولكي يتسنى فهم ما تلا ذلك ، تجدر معرفة أن مطار دمشق هو الذي أذن لنا بمتابعة طريقنا . كانت خوذتي موجهة على ذبذبة الموجة التي يتخاطب بها المطار المذكور ، ولقد سمعته بأذني . وعلى هذا واصلنا الطيران باتجاه نقطة محددة ضمن المجال الجوي السوري حيث كان علينا أن نشير الى موضعنا . وهذا ما فعلناه . سألتنا دمشق عن الوقت التقريبي لمرورنا فوق المدينة ، فأجبنا .

في هذه اللحظة خالجنا ارتياب أولي . وبالفعل بعد هنيهات قليلة ، نادتنا دمشق من جديد وأعلمتنا بأنه : « لم يسمح لكم بالتحليق فوق دمشق . وعليكم أن تهبطوا » .

فأجبنا فورا : « لقد حصلنا على الاذن بالتحليق ، وليس بالهبوط في دمشق ، ان قبرص هي وجهة سيرنا » .

ردت دمشق : « انتظروا » .

لقد اعتقدنا نحن الاثنين في غرفة القيادة ، بأن في الامر خطأ . فواصلنا سيرنا حتى غدونا على ما يقرب من خمسة وعشرين

كيلو مترا من دمشق التي كنا نستطيع مشاهدتها بين مجموعتين من الغيوم ، عندما نودي علينا مرة أخرى :« لم يؤذن لكم بالتحليق عليكم بالهبوط في دمشق » • وفورا تقريبـا بدأوا يوجهون الينـا التعليمات الخاصة بالهبوط • وطلبوا الينا أن نشير الـى اللحظـة التي نصبح فيها باتجاه المدرج • فحولت ناظري الى دالجليش •

وبدون أن نتفوه بأية كلمة ، استدرنا نحو عمان وأجبنا في نفس الوقت : « اذا كانت هذه أوامركـم النهائيـة ، فينبغـي علينا أن نتصل بعمان لابلاغهم بالامر » •

كنت قلقا حقا ،فناديت عمان وأطلعتهم على مـا حدث • فورد الجواب متلهفا ، ولكن واضحا : عليكم بالعودة الى القاعدة حالا • أبقوا على موجتكـم ولا تبلغوهـم باستلام أيـة رسالـة أخـرى • وبأسلوب معبر عن مقتضى الحال أضاف الصوت : حظا سعيدا •

أعدت الاتصال اللاسلكي بدمشق فسألونا : « أين موقعكم ؟ » • فأجبناهم : « نحن الآن نطيـر بشكل دائـري بانتظار تعليماتكم النهائية » • في هذه المرة كان السوريون أكثر صراحة وحزما • فقد أمرونا من جديد بالهبـوط • فرددت بايجاز : « نحـن آسفون • لا نستطيع ذلك » • ثم أعدت الاتصال اللاسلكي بعمان •

كنا نتجه نحو أقرب نقطة علـى الحدود الاردنية دون أن نعنى بسلوك نفس المسار الـذي اتبعنـاه في الذهاب : وذلـك اختيـارا للطريق الاقصر ! كنا نطير على ارتفاع عشرة آلاف قدم ، عندمـا طافت بذهني فجأة فكـرة : تلفت نحـو جوك وقلت لـه : « لماذا لا نهبط ونعود بمحاذاة الارض ؟ » •

انطلقت هابطا بسرعة تقارب الاربعمائة كيلو متر في الساعة ، وهي أقصى سرعة ممكنة تحتملها طائرة الدوف القديمة المسكينة هذه ! اعتقدت بأننا عندما نصبح بمحاذاة الارض تضعف امكانيات

اكتشافنا ، وتزداد صعوبة تحديد موقعنا لان الطائـرات النفاثـة تتحرك بصعوبة على ارتفاع منخفض ولان مدخراتها من الوقـود محـدودة •

كدنا نلامس الارض علـى ارتفاع يقرب مـن الصفر ، عندمـا اقتربنا من الحدود الاردنيـة •

وفجأة جاءني الى غرفـة القيادة أحد الطياريـن الجالسين فـي الجانب الخلفي من الطائرة ، وصاح : « لقد رأيت طائرتي ميـج تطيران على ارتفاع عال بمواجهتنا ! » •

وبديهي أنهما لا يستطيعـان المجيء الا من الحدود الاردنيـة • ومن المحتمل أن يكونا قادمين من المجال الجـوي الاردني • كانت نظرة دالجليش تؤكد لي بأننا أدركنا نحن الاثنان ، المقصود مـن ذلك • فهاتان الطائرتان لم تقلعا ، بعد رفضنا الهبوط في دمشق •

اعتقد بأن دالجليش وأنا قد أحسسنا برعشة من الغم والضيق ولكنني طلبت الـى الطيار أن يعود الـى الخلف وأن ينبهني اذا ما رآهما من جديد • ثم شد كل منا حزام الامان على وسطه •

بعد دقيقتين مرت طائرتا الميـج (١٧) التابعتـان للجمهورية العربية المتحدة بجانبنا الايمـن وانعطفتا لتقطع علينا الطريق ، ثم أخذتا في الارتفاع ثم غاصتا لمهاجمتنا •

جعلت طائرتي القديمة تقوم باجراء قوس دائرة • فـاذا كان لا بد من أن نموت هنـا ، فلسوف أسقط احدى طائرتي الميـج على الاقل • ولماذا لا أسقط الاثنتين بوسائلنا الضعيفة التي توجد فـي الطائـرة •

استلـم جـوك قيـادة الطائـرة • وبينمـا كانـت الطائرتـان (المعاديتان) تنقض علينا ، كان جوك قد أبقى انعطاف الطائرة

في أقصى حدوده الممكنة • كانت الطريقة التي انتهجوها بسيطة •
كانوا يغوصون أمامنا ، كل بدوره ، في محاولة لقطع الطريق علينا
ومهاجمتنا من الامام • وما كنا نستطيع اتيان أي عمل سوى
مراقبتهم ومحاولة استباقهم • ما هو عدد المرات التي هاجمونا
فيها • عشرة ، خمسة عشر ، عشرون ، لم أعد أذكر ذلك • كان
هنالك دفاع واحد ممكنا : وهو الانحراف عن خط مسارهم عندما
نراهم ينقضون ويهجمون علينا • كنت أعرف أن طائرة الميج
تستطيع أن تجري انعطافات مماثلة لما نفعله ولكن بعد أن خفضنا
سرعتنا الى مائة وخمسين كيلو متر في الساعة ، أصبحنا قادرين
على اجراء دوائر أكثر صغرا • كانت انعطافاتنا الفجائية القصيرة
التي كنا نجريها في أواخر اللحظات ترغم طائرتي الميج على اطلاق
الرصاص فوقنا كلما كانتا تمران بنا •

كان أخشى ما نخشاه هو أن نفقد رؤيتهما • فكان علينا أنا
وجوك أن نجعل أعيننا تراقب في كل مكان لاكتشافهما قبل الهجوم
ولقد جعلنا طائرة الدوف القديمة تقوم بحركات جريئة، وأرغمناها
أحيانا أن تبلغ في سرعتها أقصى حدود امكاناتها ولقد صمدت
بأعجوبة •

وبينما كنا نطير في كل اتجاه ، ساءلت نفسي فجأة عن وضع
رفاقي في الرحلة ، اولئك الجالسين على المقاعد المخصصة
للمسافرين ، وعن كيفية احتمالهم لقفزات الطائرة واهتزازاتها •
وفي غضون ذلك ، دخل خالي الشريف ناصر غرفة القيادة وصاح : «
ماذا يجري ؟ » •

فصرخت فيه : « انهم يهاجموننا » •

قال لي عندئذ : « أعطني جهاز المخاطبة اللاسلكي لاقول لهم ما
أعتقده فيهم ! » •

فأجبته : « ليس هذا هو الوقت المناسب » • الا أن موقفه قد

شدد من عزائمنا ورفع من معنوياتنا بعض الشيء •

تضاعفت الهجمات من كل اتجاه ، فصرخ جوك : « من الحكمة
أن نبعث باشارة استغاثة في حالة اضطرارنا الى الهبوط أرضا » •

وهذا ما فعلته ولكننا لم نستطع الاتصال بعمان ، لاننا كنا
نطير على ارتفاع منخفض •

وقد كدنا بعد لحظات أن ننسحق • كان جوك وراء عجلة القيادة
ينظر الى اليسار باحثا عن احدى طائرتي الميج ، بينما كنت
أتفحص الافق بأتجاه اليمين باحثا عن الطائرة الاخرى • ومن يُمن
الطالع أننا أدرنا رأسينا في نفس اللحظة ، فوجدنا أننا نطير في
خط مستقيم باتجاه تل ، فقفزنا معا الى عجلة القيادة لتصحيح
مسار الطائرة، فاضطربت الطائرة القديمة وشبّت بعناء وترددت
هنيهة وأخيرا كادت تلمس التل على بعد بضعة أمتار !

كان علينا مع ذلك أن لا ننسى الطائرتين السوريتين • فقد
حاولتا بأساليب مختلفة أن تهاجمانا تارة معا وتارة بالتناوب ثم
من جديد مشتركتين معا • اقد تولد لدينا انطباع بأننا كنا نلعب
« لعبة القطة » في الاجواء وبسرعة مخيفة • كانتا تطاردانا وكان
علينا أن نتفادى الضربات • ولكن كان شعوري بأنه اذا كانت هذه
اللعبة خطرة بالنسبة الينا فقد كانت خطرة بالنسبة اليهما أيضا
كنا نرى بوضوح طلقات الرصاص المتتابعة تمر أمامنا ووراءنا
وأحيانا فوقنا وأحيانا أخرى تحتنا • ولكنهما كادتا ، هما
نفساهما ، أن تصطدما مباشرة ببعضهما ! •

استمرت الهجمات بايقاع متسارع الى أن تعرفنا تحت أقدامنا
على أرض الاردن • وفجأة أصبح كل شيء هادئا • سكن كل شيء
فقد عبرنا أرض بلادنا واستدار المهاجمون متجهين نحو سورية •

واصلنا الطيران نحو عمان على ارتفاع منخفض خشية أن

يكتشفنا الرادار السوري اذ كان في مقدورهم أن يبعثوا الينا بقاذفات أخرى تطير في هذه الانحاء ٠ وعندما ابتعد الخطر تماما أخذنا في الارتفاع ٠ وفي هذه اللحظة عاد خاني الى غرفة القيادة حاملا سيجارة قدمها الي " يا لها من سيجارة ، ما ألذ مذاقها ! ٠ قال لي فقط وسبابته في الهواء : « عمل رائع ! » ٠

جعل رينور يبحث عن وجبات الفطور التي لم نتناولها ٠ فوجدنا الطعام مقلوبا رأسا على عقب ٠ كل شيء قد انكفأ أثناء المرات العديدة التي قمنا فيها بالهبوط العمودي والطيران على شكل قوس دائرة ٠ كان الشاي والقهوة مسفوحين في كل مكان ٠ ومع ذلك استطاع كل منا أن يتناول كوبا من الشاي ٠

ثم استمعنا الى صوت برج المراقبة في عمان وأصوات الطيارين الاردنيين الذين كانوا يطوفون في الاجواء بحثا عنا ٠ لقد عدنا من بعيد ، من بعيد جدا وباستطاعتنا أن نكون فخورين بأنفسنا ٠ لقد نجونا حقا من خطر أكيد ٠ لقد أخلفت موعدا مع الموت كان قد حدد لنا ٠ ولقد تساءلت عن السبب الذي حمل السوريين على مهاجمتنا بهذا الاسلوب الجنوني ٠ وحتى اليوم لم أعثر بعد على جواب ٠

كانت طائرتي الدوف معروفة من الجميع ، الاردنيين منهم والعرب الآخرين ٠ ولم يكن من المعقول أنه قد اختلط عليهم أمرها فاعتبروها طائرة أخرى ٠ كانت تحمل بوضوح شارة القوات الجوية الملكية الاردنية ، مع شعاري وعلمي الشخصي ٠ لقد هبطت في دمشق عدة مرات ، احداها في زيارة رسمية ٠ لم أعتقد لحظة واحدة أن السوريين كانوا يودون اعادتنا من حيث أتينا فحسب ، اذ يوجد لهذه الغاية مصطلحات دولية ، واجراءات قائمة بذاتها يعرفها الطيارون في العالم أجمع ، لم تطبق بالنسبة الي في أية لحظة ٠ كان طيارو الميج يعرفون ذلك أيضا ٠ ولم تدع هجماتهم المتكررة أي شك حول التعليمات التي تلقوها ٠

كان السوريون شديدي الحساسية بالنسبة لمجالهم الجوي ٠ فقد اكتشفوا قبل ذلك ببضعة أشهر طائرة مدنية لبنانية فوق دمشق ، فأطلقوا عليها نيرانهم بدون انذار ٠ ولقد تمكن الطيار من النجاة بأن هبط بشكل عمودي نحو الارض وطار على ارتفاع منخفض باتجاه بيروت ٠ ثم وقعت حوادث أخرى فيما بعد لم يتم جلاء أمرها أبدا ٠ ولكن ما هي الاعذار التي يمكن الاحتجاج بها عندما تضرب بالمدافع الرشاشة الطائرة المدنية المجردة من السلاح ؟

ليس ثمة غير جواب واحد في نظري ٠ انهم كانوا يريدون القضاء علي كما قضوا على ابن عمي فيصل ملك العراق قبل ذلك بثلاثة أشهر ليخلصوا من الهاشميين ٠ ومن السهل جدا أن يقال فيما بعد بأن هذا الحادث يعود الى اصراري على الرغبة في الطيران ! ٠

من هم هؤلاء الطيارون ؟ من الذي ألغى التعليمات الاولى التي أذنت لي بالطيران عبر الاجواء السورية ؟ لم يردنا بالطبع أبدا أي جواب مرض على أسئلتنا من جانب سلطات الجمهورية العربية المتحدة ٠ وقد روعي الصمت المطبق فيما يختص بمعرفة الشخص الذي صدرت عنه الاوامر المضادة والتعليمات المعطاة لطياري طائرتي الميج باسقاطنا ٠

بعد دراسة الحادث بشكل جدي ، قررنا عدم عرض القضية على الامم المتحدة ٠ فقد فضلت أن أجعل منها قضية شخصية بدلا من اعتبارها قضية قومية ٠ فمعرفة وزن الامور ، خيرها وشرها ، بهدوء وبمعزل عن انفعال النفس ، تدخل في باب مهنتي كملك ٠

وما من شك في أن هذه المواجهة مع طائرتي الميج السورية كانت اللحظة التي رأيت فيها الموت مني قاب قوسين أو أدنى ، طوال حياتي كرجل ٠

عندما تتلفتون الى الوراء لتتوجهوا بأنظاركم نحو الخمسينيات ألا يتكوّن لديكم انطباع بأن حياتكم كانت أشبـه بحيـــــاة المغامرين ؟• مرة كانت قططكم تأكل من طعامكم فتموت مسمومة• وفيما بعد وضع حامض كيميائي صرف في زجاجتكم التي تحتوي على نقـاط لعـلاج الانـف •••

نعم ، يتراءى لي أحيانـا أنني الشخصيـة الرئيسيـة لقصـة بوليسية • انني أصنف المؤامرات في ذهني صنفين متباينيـن • هنالك من جهة « الضربات الاعظم » ، كقضيـة الزرقـاء ، التـي تهدف الى الاطاحـة بالملكيـة وتقويض دعائـم الاردن • وبهـذه المناسبة ، اذا كـان القضاء المـادي علـى شخصي هاما بالنسبة للمتآمرين ، فهو ليس الا احدى المراحل في الدسائس والمكائد التي كانت تدبر • وهنالك من جهة أخرى محاولات اغتيال ضد شخصي ليس لها أية علاقة بالسياسة اطلاقا • فـاذا كانت المؤامرات ضد حياتي وحياتي فحسب ، أكثر عددا من تلك التي دبرت ضد نظام الحكم ، فذلك لان اولئك الذين جهدوا طوال هـذه السنين لايقاع الاضطراب والفوضى في حيـاة البلاد ، قـد أدركوا بأنـه ليس من السهل خلق ثورة عندنا • كانت آخر المحاولات وأشدها بعثا علـى الحزن والاسى ، هي محاولة أيلول الاسود عام ١٩٧٠ •

ليس من المستطاع ، كما أمل بذلك المعارضون ، شراء جماعات الوطنيين ذوي الولاء والاخلاص الذين يعلوان على كل ثمن • كان الخيار الوحيد أمامهم هو اذن التخفي في ثياب القتلة ، والعمل في الظلام ، بعيدا عن الانظار الفضولية ، ثم قتلي أنا شخصيا ، أو قتل بعض الحكام الآخرين ، على أمـل أن تؤدي هـذه الاغتيالات الوحشية الى زج البلاد في حرب أهلية محتملة •

لقد أحبطت بالفعل احدى هذه المؤامرات ، عندما اكتشفت أنهم يعتزمون اغتيالي بحامض كيميائي صرف • ولكن قبل أن أروي لك

هـذا الحادث ، يجب أن أقـوم بعودة قليلة الـى الوراء • سوف لن أقص عليك سائر المحاولات الراميـة الى قتلي منذ هـذا اليوم من تموز (يوليو) عام ١٩٥١ ، وفي المسجـد الاقصى بالقدس ، بعد الاغتيال الوحشي لجـدي ، عندمـا أصابتنـي رصاصـة في صدري فاصطدمت بأحـد أوسمتي وارتدت • لا سوف لن أقص عليـك كل هذا لانه سيكون باعثا على الكثير مـن الضجر والملل • لقد قادت العناية الالهيـة خطواتي طوال أكثر من عشرين عامـا ، ولا سيما أثناء هذا الصيف من عام ١٩٦٠ حيث نجوت من الموت مرتين خلال أربع وعشريـن ساعـة •

في التاسع من آب (أغسطس) ١٩٦٠ خضبت بالدمـاء ، احدى المؤامرات الوحشية ، هدوء الصيف وسكينته • في هذا اليوم اغتيل رئيس الوزراء هـزاع المجالـي واثنـا عشر آخرون مـن الاردنيين بأسلوب نذل دنيء ، عن طريق تفجير جهاز وضع في مكتب رئيس الحكومة • كان هـزاع المجالي رجلا شجاعـا مولعا بالحريـة واسع الشعبية في سائر أنحاء المملكة • وانني ما زلت أشعر بحزن عميق عندما أستذكر هذه الاحداث بالرغم مـن مرور خمسة عشر عامـا علـى ذلـك •

يستطيع أي مواطن ، جريا على العادة المتبعة في بلادنــا ، أن يقابل رئيس الوزراء في بعض أيام الاسبوع ، ليبسط لـه مطالبه وشكاواه • كان اليوم الذي اختاره القتلة اذن متأثرا بهذه الخاصية لانّ من البديهي أن يكون هـزاع المجالـي حاضرا ليستقبل زواره • ولما كان المتآمرون على علم بصلات الود التي تربطني به ، فقـد وضعوا القنبلة في مكتبه في ليلة ٢٨-٢٩ آب (أغسطس) وراهنوا على أنه عند اعلان وقوع المؤامـرة ، سوف أسرع فورا الـى مكـان الحادث • فوضعوا جهاز تفجير آخـر بأسلوب شيطاني مخصص لقتلي مـع أناس آخريـن •

لقد اعتلّت صحتي بعض الشيء في هـذا الصيف • فقـد عملت

كثيرا الى الحد الذي جعلني أصاب بالارهاق والتعب الشديد ٠ يضاف الى ذلك أن مرض التهاب الجيوب الانفية كان يقلقني الى حد ما ، فقررت في يوم الاثنين هذا ، الواقع في (٢٩) آب ، أن آخذ قسطا من الراحة ٠ لقد تحدثت مع رئيس الوزراء عشية هذا اليوم فقد كنا جد مرتاحين من الاعمال التي أسفر عنها مؤتمر وزراء خارجية الجامعة العربية الذي انعقد في شتورا في لبنان ٠

كنت اذن أستريح في مزرعتي في الحمّر ، عندما قرع جرس الهاتف في حوالي الساعة الحادية عشرة ، وفي الطرف الآخر من الخط تعرفت على الصوت الحزين لمدير مكتب هزاع المجالي ٠ كانت الجملة التي تلفّظ بها وقتئذ موجزة وجافة بحيث أصابني بالجمود :

« يا صاحب الجلالة ٠ ان مكتب رئيس الوزراء قد انفجر وهزاع باشا قد قتلَ » ٠

أعدت السماعة دون أن أطرح أية أسئلة ، وارتديت ملابسي على عجل ٠ تذكرت وأنا أستعد للخروج ، سرور هزاع المجالي في مساء اليوم السابق عندما أعرب لي عن ارتياحه لرؤية السلام وقد عاد يخيم على الاقطار العربية ، ولانتهاء المؤامرات والدسائس !٠ اذن ما هي جدوى قمة شتورا التي عقدت حديثا ؟ هل لا بد من العودة الى عهد الارهاب والقلق اللذين كانا سائدين في الماضي ؟ هلَ توقيعات وزراء الخارجية التي لم يجف مدادها بعد ، قد أصبحت الآن معدومة القيمة ؟

كنت وراء عجلة القيادة في سيارتي بعد بضع لحظات ، وقد وضعت سلاحا الى جانبي ، واتخذ جنديان مكانيهما في المقعد الخلفي ، وانطلقت باتجاه العاصمة ٠
عندما اقتربت من ضواحي عمان ، اعترضت طريقي سيارة خرج منها وزير الدفاع ، ثم وصلت سيارة أخرى كانت تقل حابس

المجالي القائد العام للجيش ، وابن عم رئيس الوزراء المقتول ٠

قال لي المجالي : « يا صاحب الجلالة ، اننا لن ندعكم تتابعون سيركم مهما كان الثمن ٠ انكم لن تستطيعوا عمل أي شيء الآن ٠ فقد انتهى الامر ٠ وانني قانع بأنكم ستتعرضون للخطر في الظروف الحالية ، اذا ذهبتم الى عمان » ٠

سألته عما وقع بالضبط ٠

ـ فأجاب : ان نصف المبنى قد انفجر وقد انسحق جسم هزاع المجالي بسقوط سقف مكتبه عليه ٠

ـ هل عثرتم عليه ؟

ـ لم نعثر عليه حتى الآن لوجود الكثير من الانقاض ٠ كما أن الذين يتولون عمليات الاغاثة ، لم ينتهوا بعد من مهمتهم ٠ ولا بد أن يكون الانفجار قد وقع في مكتبه ٠

رفض الجنرال المجالي ووزير الدفاع مرة أخرى أن أذهب الى مكان الحادث للاطلاع على الخسائر ، ولكنهما اقترحا أن أذهب الى القصر ٠

بعد مرور أقل من ساعة على الانفجار الاول ، وقع انفجار ثان بنفس العنف ، تسبب بمزيد من الخسائر ، وقتل مزيدا من الاشخاص الابرياء ، ولا سيما بين من كانوا يتولون الاغاثة ، وبين موظفي الرئاسة الذين جاءوا ليساعدوا في انقاذ الجرحى ٠

لقد أصبت بالغثيان من جراء كل هؤلاء القتلى ، كل هذا الدم وهذا الرماد ٠ كان بين الذين قتلوا ، صبي في العاشرة من العمر وشيخ في السبعين ، وامرأة طاعنة في السن جاءت من بعيد لتقدم عريضة الى رئيس الحكومة ٠ كان هزاع المجالي قد طلب الى

موظفي مكاتبـه ادخال أقل عدد مـن الاشخاص معـا ، فقـد كان يخشى وقوع مؤامرة ، لا سيمـا وأن مؤامرة قـد أحبطت قبل ذلـك ببعـض الوقـت ٠

كان لا بد من أن نمسك بزمام الامور بسرعة فائقة لكـي لا ندع أية فرصة للمتآمرين ، ولتجنب تشابك للامور من شأنه أن يؤدي الى نتائج خطيرة ٠ وبسرعة سمع (صوت العرب) من القاهرة ، يذيع بلهجـة تتسم بالعدوانيـة والاستخفاف والغيـظ نبأ مقتـل « عميل للاستعمار » سيتلوه مقتل آخرين !

وما كدت أبلغ مكتبي في القصر حتـى انتشرت أنباء تفيد بـأن هزاع المجالي ما زال حيـا ، وأنه كان يمسـك رأسه بيديـه ، وأن جسمه مغطى بالدماء ٠ بدأقلبي ينبض بشدة وقد فاض بالامـل والرجاء ٠ ولكن فرحي لم يدم سوى فترة قصيرة ، ويـا للاسف ، فقد اكتشفت جثـة صديقي المنكود الحظ ممزقة بفظاعـة ٠ كانت وفاته فورية ، لان جهاز التفجير القاتل كان قد أخفي داخل مكتب عمله ، وفي أحد أدراجه على وجه التأكيد ٠

دعوت فـورا أعضاء الوزارة الى اجتمـاع غيـر عادي لتشكيل حكومة في أقرت وقت ٠ لم يكـن من السهل استبدال رجـل كهزاع المجالي ٠ وقد وقع اختياري على رئيس ديواني بهجت التلهوني ٠

واليك على وجه التقريب الكلمات التـي وجهتها الى الحكومـة الجديدة ٠ قلت لهم : « أيها السادة ان من الامور الاساسية تشكيل حكومة في أقرب وقت ٠ لم يكـن من السهل استبدال رجـل كهزاع قضوا على هزاع ، فأصابونا اصابـة بالغة ، عنيفـة في أعماقنا ، ولكنهم لم يقضوا على الاردن ٠ فعلينا أن نواصل أداء رسالة هزاع المجالي ، رعاية لمصلحة هذا البلد وخيـره ٠ ولسوف نثأر لانفسنا من هذه الاهانة ، ومن جريمة القتل هذه ، ولكننا ، بانتظار ذلك ، سوف نعمل بمزيد من العزم والتصميم ، لانقـاذ بلادنا من الايدي

المجرمة التي تنوي تدميرها ٠ لقد فقدنا رجلا من كبار رجال الدولة ولكن ، حتى أثناء المحن والشدائد يجد المرء أحيانا بعض العزاء ، كالذي يتيح لي الآن أن أخاطبكم ، أنتم الذين صان الله حياتكم ٠

بقي معظم وزراء هزاع المجالي في مناصبهم لنبرهن للعدو بأنه لم يطرأ أي تغيُّر علـى السياسة التـي ننتهجها ٠ وقـد واصل التلهوني نفس المهمـة ونفس البرنامج كسلفـه الذي كـان خير صديق لـه طـوال سنـوات ٠

في آخر ساعات النهار استأنف الفريق الحكومـي نفسه العمل ، كما لو أن شيئا لم يحدث ، وأقسم التلهوني اليميـن القانونية ٠ كان كل ذلك أعظم ستار من الدخان نستطيع أن نضلل به أعداءنا ومنتقدينا ، فنثبت لهم بذلك بأنهم اذا ما صرعوا رجلا مهما عظم شأنه ، فانهم لن ينجحوا في تقويض أركان بلد ونظام حكمه ٠

ولقد أثبت التحقيق فيما بعد أن موظفين من دائرة المطبوعات يعملان في مبنى رئاسة الحكومة ، قد غادرا عمان في هذا الصباح ، وأجتازا الحدود السورية للذهاب الى دمشق ٠ كانت سورية وقتئذ الاقليم الشمالي للجمهورية العربية المتحدة التي كانت عاصمتها القاهرة ٠ وهكذا تأكدت الشكوك التي ساورتني ٠

عندما أصبح كل شيء هادئا ، وغـدا وجودي في القصر غير ذي ضرورة ، عدت الـى مزرعتي في الحمَّر لاستريح بضـع ساعات ، وأتناول بعض الطعام ٠ ومـا كدت أبلـغ القصر حتى اتصـل بي هاتفيا عمي الشريف حسين قائـلا : « يا صاحب الجلالـة ٠ انني أكلمكـم بحضـور حـابس المجالـي ، ورئيس شعبـة مكافحـة الجاسوسية ٠ لقد اتضح لنا أنهم سيحاولون قريبـا التآمر علـى حياتكم وأن الشخص الـذي اختير لهـذه العملية ، هـو أحد رجال حاشيتكم ، امـا في الحمَّر أو في القصر ٠ أرجوكم أن تبقـوا حيث أنتم ٠ ولسوف نأتي حالا » ٠

بعد فترة وجيزة ، أسمعني رئيس شعبة مكافحة الجاسوسية ، تسجيلا ٠

قال : « اصغوا الى هذا يا صاحب الجلالة » وأدار الشريط ٠
سألت من هو ؟

ـ فأجاب هو أحد رجالي الذي أصبح منذ فترة قصيرة صديقا شخصيا لعضو في سفارة الجمهورية العربية المتحدة » ٠

أخذ يقف شعر رأسي كلما طال استماعي للحديث الذي دار بين رجلنا وبين الدبلوماسي الاجنبي والذي كان يتضمن هذه الجملة التي لن أنساها أبدا : « بعد قليل سيلقى حسين نفس المصير ٠ فلدينا رجل من أنصارنا يعمل مع أفراد حاشيته الاقربين ٠ ولسوف ينتهي كل شيء قريبا ٠ ولو استمر في اتباع نفس مألوف عاداته ، فقط ، لكنا انتهينا منه ، منذ مدة طويلة » ٠

وأضاف عمي : « كل هذا صحيح ومؤكد تماما ٠ ومن الحكمة أن لا تناموا في قصر بسمان في هذه الليلة » ٠

ولما كان اتيان أمر مرة واحدة لا يصبح عادة ، لذلك قررت أن أذهب لانام عند موريس رينور وزوجته اللذين كانا يقيمان في دار قريبة من مكتبي ، في الحديقة الملكية ٠ وهذا من شأنه أن يتيح لجهاز الامن أن يرصد بسهولة ذهاب واياب الخدم وأن يراقب تحضير وجبات الطعام ٠ أقمت في غرفة صغيرة مخصصة للاصدقاء ، وطلبت الى صديقي أن يعمل على ارسال بعض ملابسي وأغراضي الشخصية التي أعطيته قائمة بها ٠ وجعلتهم يبعثون الي أيضا بزجاجة صغيرة جديدة من النقط الخاصة بمعالجة الانف ، لان جيوبي الانفية كانت تؤلمني ٠ ومن باب الاحتياط ، طلبت الى السيدة رينور أن تلقي بالنقط الانفية الموجودة في جميع الزجاجات المستعملة ، فمن يدري !
منذ نعومة أظفاري وأنا أعاني من الجيوب الانفية ٠ ولقد

أجريت لي عملية جراحية في هذه الجيوب عندما كنت تلميذ ضابط في ساند هيرست ٠ كان العلاج الوحيد هو الراحة ٠ ولكن راحتي في الاردن كانت أمرا غير ذي موضوع ، لا سيما في هذا الوقت بالذات ٠ فالمسكن الوحيد لما كان ينتابني من ألم هو اذن تعاطي هذه النقط ولقد كانت متاعبي اليومية والاحداث القريبة العهد ، ترغمني على تعاطي هذه النقط باستمرار ٠ ما الذي حملني في هذا اليوم على التخلص من الكمية القديمة التي كنت أدخرها من هذه المادة أية غريزة جعلتني أوصي على كمية أخرى منها ؟ ٠ لا أدري ٠

في هذا المساء ، بالفعل ، عندما طلبت من السيدة رينور أن تحمل الي دوائي ، نادتني من غرفة استحمامها قائلة : « تعالوا بسرعة وانظروا » ٠

فقد سالت من الزجاجة الجديدة التي فتحتها بعض النقاط ، ووقعت في الحوض ٠ لا بد للمرء أن يرى ليقتنع ٠ كان السائل يغلي! صببت عندها محتوى كل الزجاجة ، فنتج عن ذلك نفس الحادثة ! اذ كان السائل يتحرك ويضطرب ثم يغلي ويزداد غليانه ويرغي ويزبد ! ٠

لقد فتنت بهذا المشهد ٠ ثم قالت لي السيدة رينور : « انظروا الى الفعر » فوجدت أن الكروم والدهان قد تجمدا على شكل قشور متراكمة ٠

كانت التحاليل الكيميائية التي أجريت على السائل صريحة واضحة حاسمة : لقد احتوت الزجاجة على حامض كيميائي قوي شديد يكاد يكون صرفا ٠ لا بد أن أحدا من المقربين ـ لانه استطاع الدخول الى غرفة استحمامي ـ قد أفرغ الزجاجة أو الزجاجات من محتوياتها الاصلية ، وأبدلها بالحامض الكيميائي ٠

لم نكتشف أبدا المذنب الحقيقي ٠ فاذا رجعنا الى التسجيلات المغناطيسية ، فانه لا يمكن أن يكون الا أحد خدمي ٠ كان من

الصعب عليّ أن أتخيل أن يكون أحد هؤلاء الرجال الذين يعملون عندي بأمانة منذ سنين · ومع ذلك اضطررت الى ابدال سائر الخدم وجميع الادوية التي كنت أتعاطاها ·

ان قضية النقط الانفية فظيعة حقا ، ولكنها أبعد من أن تساوي في هولها وشناعتها قضية القطط · فالمرء لا يستطيع احصاء القطط في عمان لكثرتها · كان جدي يحب الهررة ، وفي عهده كانت مجموعة كاملة من السنانير تتردد على مداخل القصر ، بحثا عما يتمونون به من طعام ·

كنت أطوف يوما في ممرات قصر بسمان التي تحيط بها الزهور ، فاصابتني الدهشة المؤلمة من جراء اكتشاف ثلاث قطط ميتة · فاضت نفسي شفقة على سوء مصيرها ، اعتقادا مني بأنها قد ماتت جوعا · فأنا أيضا أحب القطط ، وطرحت على نفسي بعض الاسئلة بشأنها · وقلت لاول ضابط صادفته : « افعل اللازم لدفن هذه القطط الميتة » · مشيرا الى المكان الموجودة فيه ·

– ثلاث قطط يا صاحب الجلالة ! · ما أغرب هذا الامر ·

– قلت : « لماذا » ؟ ·

– فأجاب الضابط عندئذ : « بالامس جمعنا ست قطط في هذه الجهة ، وفي اليوم الذي سبقه كان هنالك سبع ملقاة في الجهة الاخرى » · اعتراني انفعال شديد · يا للحيوانات المسكينة · كان ذلك حقا · جميعها قد سممت · لم يرد أحد أن يبلغني بالامر لانهم على علم بمحبتي لهذه الحيوانات ، ثم لكي لا يثيروا قلقي ، وأخيرا لانهم لم يكونوا متأكدين تماما من طبيعة السم ·

ساورتنا بعض الشكوك حول شخص يعمل في المطبخ · ولكننا احتطنا بحيث لا يكون لهذا الرجل أية علاقة بطعام جلالتكم وأسرتكم ·

– من هو هذا الرجل ؟

– لقد وردنا تقرير سري منذ بضعة أيام من ملحقنا العسكري في بيروت ، يفيد بأن شعبة مكافحة الجاسوسية للجمهورية العربية المتحدة في دمشق ، على صلة حديثة العهد بمساعد طاه هنا في القصر · يدعى أحمد نعنع · وكنا قد اعتزمنا اعتقاله بلا ابطاء » ·

كان اعتراف هذا الرجل واضحا محددا · كان لاحمد نعنع ابن عم في دمشق يعمل في المكتب الثاني السوري ، عندما بلغه ان أحمد نعنع يعمل في مطابخ القصر · اقنعه بتسميم الطعام ، قاصدا في ذلك بداهة أن يصيبني أنا وأسرتي · وبحكم كون نعنع معدوم الخبرة في أمور السموم ، فقد كان يجري تجاربه على القطط ! · لقد أقر بملء ارادته وحريته بأنه اذا لم يجر بعد بأية محاولة ضدي ، فلأنه كان عاجزا عن تقدير الكميات الصحيحة التي يتعين عليه وضعها · وبالرغم من أبحاثه وملاحظاته ، لم تمت أية هرة بسرعة كافية · واشار الى أنه قد ارتكب خطأ بترك هذه الحيوانات تتجول في الساحات المعشوشبة من القصر حيث يراها الناس · ولولا ذلك ، وخلال فترة قصيرة ، فقد كان يعتقد أن بامكانه أداء رسالته على ما يرام ·

ألقي الرجل في السجن · وبعد مرور بعض الوقت · بينما كنت أغادر المسجد بعد أداء الصلاة فيه ، بمناسبة احدى أعيادنا الكبرى ، اقتربت مني فتاة صغيرة تحمل نسخة من القرآن الكريم وجعلت تتوسل الي أن أفرج عن أبيها الذي لم يكن غير أحمد نعنع · ماذا أستطيع أن أفعل وأنا خارج من بيت الله الذي أمرنا بالرحمة والغفران ؟ التفت الى رئيس ديواني ، وقلت له : « اتصل بالسلطات ، واعمل على اطلاق سراح هذا الرجل » ·

أفرج عن أحمد نعنع بعد ساعتين · وتمكّن من الاحتفال بالعيد مع أسرته ·

تعتبر دوائر استخباراتكم بين أفضل دوائر استخبارات في الشرق الاوسط . فاذا كنتم ما زلتم على قيد الحياة ، واذا كان الاردن ما زال أمة حرة ، ألا يعود الفضل في ذلك جزئيا الى ما تتصف به من مزايا ؟

قبل عام ١٩٥٦ ، أي قبل حملة السويس ، كانت دوائر الاستخبارات الاردنية محدودة الاهمية على الاقل ، بحيث لا تقارن بمثيلاتها لدى جيراننا ، ان لم تكن هزيلة . كان ثمة بعض المؤامرات والدسائس والوشايات . لا شيء أكثر من ذلك ، حتى أنه حدث مرة أن أبا لاسرة وشى بابن له كان قد غادر سورية مكلفا بمهمة قتل هزاع المجالي أو خالي الشريف ناصر . كان ذلك على كل حال ، قبل بضعة أسابيع من مصرع رئيس الوزراء في مكتبه مع أشخاص آخرين .

لم أحبب شخصيا في يوم من الايام كل هذه التدابير الامنية التي كانت تحيط بي ، ولكن ازاء موجة التحديات والهجومات التي كانت توجه ضد بلادي ، اضطررنا الى انشاء شبكة للمخابرات أشد فعالية وأكثر مضاء . وانني أعتقد بأنه ليس لدينا اليوم ما نحسد عليه أيا من جيراننا ، بل أن الامر هو العكس تماما .

ومن ناحية أخرى ، كان علينا أنا وخالي ، أن ننقذ أنفسنا من كمين نصب لنا قبل بضعة أشهر من رحيل كلوب عن الاردن . فقد اعتدت أن أتناول طعام العشاء في مزرعتي في الحمَّر ، عندما كانت حرارة الصيف مرهقة مضنية . لم تكن قائمة بعد ، الدار الجميلة التي عملت على انشائها فيما بعد ، لتتخذ منها أسرتي مسكنا لها ، وانما كان ثمة مبنى صغير تعود ملكيته الى جدي . كنت أتنقل بلا حرس يرافقني . وكثيرا ما كان يختلط على الناس الامر ، فلا يميزون بيني وبين خالي الشريف ناصر ، لاقتنائنا سيارتين من طرز بويك متماثلتين .

في احدى الامسيات ، سبقني خالي على الطريق الى الحمَّر ، بينما كنت قد أمضيت فترة بعد الظهر في جرش ، المدينة الرومانية القديمة .

أبصرت فجأة على ضوء مصابيح سيارتي ، سيارة خالي واقفة في عرض الطريق ، وعجلتاها الاماميتان منحدرتان في حفرة . كان يبدو على الشريف ناصر أنه قد أصيب بصدمة أذهلته بعض الشيء . وكانت ملابسه مغطاة بالتراب . قال لي بادىء ذي بدء أنه وقع ضحية انفجار لاطار احدى عجلاته . فلما اقتربت ، رأيت ثقبين أحدثهما الرصاص في النافذة الامامية لسيارته على مستوى عجلة القيادة ، وقد أحصينا تسعة ثقوب في السيارة ، أحدها أصاب اطار العجلة الامامية اليسرى .

لقد كان القتلة ينتظرونني منذ أن أقبل الظلام ، لعلمهم بأنني لا بد من أن أمر بهذا المكان . الا أنه اختلط عليهم أمر التمييز بين سيارتينا . عندما أبصروا سيارة البويك ، أضاءوا مصابيحهم لاصابة عيني السائق بالبهر والعشاوة ، ثم فتحوا النار من سلاحين اوتوماتيكيين . لقد توفر لخالي الوقت للتوقف والقاء نفسه خارج السيارة ، حتى أنه تمكن من انتضاء سلاحه واطلاق النار مرتين على القتلة الذين وثبوا داخل سيارتهم وفروا باتجاه عمان .

اندفعت داخل سيارتي وانطلقت في أثرهم . كانوا متقدمين علي فترة عشر دقائق . وعلى الرغم من الوصف الذي أعطانيه خالي لم أستطع اكتشاف سيارتهم . ولم نتمكن أبدا ، على كل حال ، من العثور على مرتكبي هذا الاعتداء .

لقد وقعت فيما بعد ، محاولات ومؤامرات أخرى ، ولعل تعدادها يغدو مملا باستثناء واحدة تستحق أن نتوقف عندها .

قليل جدا من الاشخاص ، وبالذات من رجال حاشيتي المقربين ، من كان مطلعا على سر وضع من الترقب والقلق استغرق أسابيع

خمسة ٠ وبالفعل خلال الخمس والاربعين يوما التي دامتـه رحلتي الى الولايات المتحدة في عام ١٩٥٩ ، كان الى جانبي متآمر ٠ رجل كان يريد قتلي ! ٠ كنا نعيش معا ، ونأكل معا ٠ كان دوما بقربي في السهرات الرسمية ٠ ولقد قدم الى القادة والحكام الامريكيين ٠ ولكنني كنت أعرف أن وراء ابتساماته وانحناءاته ، يختفي زعيم مؤامرة ، عقد العزم على الاطاحة بنظام الحكم الاردني ٠

كان هذا الرجل ، هو اللــواء صادق الشرع ، رئيس أركان حــرب القوات المسلحة ٠ لماذا كان الى جانبي ؟ ٠ قبــل قليل من مغادرتي الاردن القيام بهذه الرحلة الامريكية الطويلة ، تكوّنت لدي قناعة بـأن صادق الشرع وبعض الضباط قـد دبروا ضربـة ترمـي الى الاطاحة بي خلال وجودي في الخارج ٠ كانت الخطة قد أعدت بدقة ، بمساعدة بعض الاقطار الاجنبية ٠ وقد علمت فيما بعد ، أن بين الاعمال التــي كان يعتـزم تنفيذها ، احتلال مقـر قيـادة الجيش واغتيال القائد العام ، وقذف قصر زهـران بالقنابل ، حيث كانت تقيم أسرتي الخ ٠٠٠ ، لم يكـن صادق الشرع مـن الرجال الذيـن يكتفون بالتدابير الناقصة ، فقد قال لشركائه : « عندما تبلغون زهران ، لا تضيعوا الوقت في اطلاق النار بالبنادق ، بل استخدموا المدافـع رأسـا » ٠

كان يبلّغني عـن أفعال وحركـات صادق الشرع ، ضابط مـن الموالين ، كان يلعب لعبتـه ليطلعني بانتظام علـى المجرى الذي تتخذه الحوادث٠ لم يكن لدي حقا أي برهان محسوس على المؤامرة مع أن بداهتها كانت تبدو أكثر وضوحا يوما بعد يوم ، ومـا كنت لاستطيع على كل حال أن أعتقل هـذا الجنرال ، مـا دام أن البدء بالتنفيذ لم يتم بعد٠ واقتربت ساعة رحلتي ٠

ما العمل ؟ اتخذت القرار الممكن الوحيد : وهو أن أمضي بـه معي طوال هذا الارتحال الطويل الامد ٠ فيكون على الاقل تحت رقابتي٠ تعالّل بكل ضروب الاوجاع والموانـع الشخصية لكـي لا يرافقني ،

ولكنه لم يستطع التملّص ٠ كانت رغباتي بمثابة أوامر ! ٠

كنت مبتهجا بالقرار الذي اتخذته ، وبالموقف الذي وضعت فيه رئيس أركان حربي ٠ عندما بلغت الولايـات المتحدة ، كان معظم المتآمرين قد اعتقلوا وألقوا في غيابـة السجن ٠ أمـا رفيـق السفر المزعج ، فقد استبد بـه القلق المتزايد ٠ كانت الانباء الوحيدة التي يملكها ، تصله بواسطة الصحف الامريكية ، لانني أصدرت أمري قبل مغادرة عمان بأن لا يُشار الى اسم صادق الشرع مهما كـان الامر ، في البرقيات أو الرسائل التي كان يُبعث بها الي ٠ يضاف الى ذلك أنه لم يطلع على أية برقية ، رغم محاولاته المتكررة ٠ كان يقرأ سائر الصحف التي كانت تقع تحت يديه ، فيعلـم يوما بعد يوم باعتقال وسجن أصدقائـه ، ويخشى أن يشي بـه أحدهم أخيرا ٠ لقد راودته نفسه بالتواري والتخلي عـن مرافقتنا ، ولكن كان ذلـك مستحيـلا ٠

اتصل في واشنطن ثم في نيويورك بالاردنيين في محاولة لمعرفـة المزيد عن الامور الا أنه لم يكن أحد يعرف شيئا عن ذلك ٠ كان كل التماس له مرفوضا ، سواء لملازمة غرفته أو لاية أعذار أخرى ٠ فقد صممت أن لا يبتعد عني قيد أنملة طوال سائر رحلتي ٠

في لندن ، على طريق العودة ، أحس بأن الامور تسوء بالنسبة اليه ، فطلب أن يدخـل المستشفى لاجراء « عمليـة مستعجلة » ، مؤكدا أنه سوف يلحق بنا فيما بعد الى عمان ٠ ولكـن الاذن بذلك قد رفض ، الا أنني وعدته بأنـه عندما يعـود الى عمـان وتسوء حالته الصحية ، فلسوف يكون بامكانه العودة الـى انكلترا لاجراء هذه العملية ذات الضرورة الملحة ٠ بعـد قليل من عودتنا ، جـرى اعتقاله وسجنه ، وحكم عليه بالاعدام ٠ وقد خفف هذا الحكم الى السجن مدى الحياة ٠ ثم عُفي عنه وأطلق سراحه فيما بعد ٠ وهو أيضا يشغل اليوم مناصب هامة ٠

لماذا لم تحاولوا عرض « القضية الاردنية » على العالم في وقت مبكر ، على الامم المتحدة مثلا ؟

لقد حاولت طويلا أن أتفادى ذلك • كانت المشكلة عربية بالذات ولا تعني سوى العالم العربي • كنت أكره أن أبسط غسيلنا القذر أما مالآخرين ، الا أن المقتل الوحشي لهزاع المجالي أرغمني على اعادة النظر في موقفي ، فقررت ، بعد شهر من مصرع رئيس وزرائي ، أن أتوجه الى منظمة الامم المتحدة لالقاء خطاب هناك • كان ثمة بواعث عديدة تدفعني الى أن أفعل ذلك •

فقد أصبحت هذه الهيئة الدولية ، منذ بعض الوقت ، الهدف المفضل لخروتشوف والشيوعيين • لم يكن الزعيم السوفياتي ليخفي عداءه لسكرتير العام داغ همرشولد • كان يعتلج في نفسي شعور واضح جدا بأن العالم الشيوعي وبعض الامم التي تدعي الحياد ، قد تعاظمت أهميتهم باستمرار وأخذوا يستخدمون منبر الامم المتحدة مكانا لدعايتهم •

كان هنالك كتلتان تتجليان : الامم الحرة التي تريد أن تبقى حرة • ثم الآخرون • كان يساورني خوف شديد فيما يختص بالاختيار الذي سوف تمارسه الامم الافريقية التي استقلت حديثا •

ثم ، ولا سيما بالنسبة لسائر ما يتصل بنا من قريب في الشرق الاوسط ، كنت لا أحب هذه الامتيازات التي يدعيها لنفسه الرئيس عبد الناصر كناطق بلسان العالم العربي • فليست له في ذلك أية صفة أو أي حق • لقد مات الرجل حقا ، فلا يليق أن نثير جدالا حول هذا الموضوع ، ولكن آنذاك كنت أعتبر أن من واجبي ابلاغ الامم المتحدة بذلك ، خاصة فيما يتعلق بازدياد حدة التوتر بين الجمهورية العربية المتحدة والاردن •
كنت أعتقد أن لي أيضا رأيي الشخصي الذي من حقي الادلاء به

حول بعض القضايا الحيوية بالنسبة الينا نحن العرب ، كالقضية الجزائرية ، أو قضية وجود اسرائيل • سيكون صوتي ضعيفا حقا ، اذا ما قيس بصوت الروس أو أصدقائهم ، ولكنني قررت الذهاب الى نيويورك ، سواء سمعوني أم لا •

كنت أفكر بأنني سأقوم برحلة سريعة وسهلة ولكن دون أن أعتمد على « معونة » جيراننا في الجمهورية العربية المتحدة • ولما كان لا يوجد آنئذ خط مباشر للطيران بين عمان ولندن لطائرات الكوميت التابعة لشركة الخطوط الجوية البريطانية التي تخدم مناطق الشرق ، فقد طلبت أن تهبط في الاردن بشكل استثنائي احدى الطائرات النفاثة الانكليزية لكي تأخذني مع حاشيتي • فقبل الطلب •

بموجب الاتفاقيات الدولية ، أبلغت شركة الخطوط الجوية البريطانية ، دمشق بالتغيير الذي طرأ على خط سير الطائرة وبوجودي على متنها ، وبطيرانها عبر أجواء سورية • بعد أن قبلت دمشق هذا البرنامج الجديد ووافقت على التحليق عبر أراضيها ، عادت فرفضت رفضا باتا • وبعبارة أخرى لا تستطيع طائرة الكوميت أن تحط في عمان لتأخذني • فاضطررت عندها ان أستعير طائرة قديمة تعود للخطوط الجوية الاردنية ، وعرّجت على السعودية والسودان لابلغ لندن أخيرا مارا بطرابلس الغرب ومالطا • لقد تحول طيران طبيعي يستغرق سبع ساعات الى رحلة دامت ثلاثا وعشرين ساعة • ولكن لا شيء كان في مقدوره أن يعيق سفري الى الولايات المتحدة • وفي لندن أخذت أول طائرة متجهة الى نيويورك •

غداة وصولي ، جاءني السكرتير العام للامم المتحدة الى الفندق في زيارة مجاملة كانت على ما يبدو امتيازا نادرا • وقد علمت فيما بعد أنني كنت في الواقع رئيس الدولة الوحيد الذي جاء لتحيتي في

هذه الدورة ٠ وهذا ما تأثرت له شديد التأثر ٠ لقد كنت دوما أكن لهذا الدبلوماسي السويدي الـذي كرّس حياتـه لقضية الحريـة ، الكثير من التعاطف والاحترام ٠ وقـد كان مصرعه ضربة قاصمة لاصدقـاء حقـوق الانسان ٠

لم يكن من السهل كتابة هـذا الخطاب الهـام الاول ، لحكمـي الملكي الفتيّ ، ولكن هذا العمل كان جزءا من مهنتي ٠ كان أمامي يومانِ ٠ وعلـى عكس ما كـان يفعل رؤساء الـدول الآخرون الذين اعتادوا تكليف مساعديهم ومستشاريهم بكتابـة خطاباتهم فقد أعددت خطابي عمليا بنفسي ٠ لقـد مورست عليّ ضغوط مختلفة جاءت من كل جانب تشيـر علي بالاعتدال في أقوالـي وعباراتي ، ولكن ، حسبما قلت فيما بعد لاحد الدبلوماسيين الذي طرح عليّ السؤالَ : « لم أقم بهذه الرحلة الطويلة المضنية التي امتدت عدة آلافَ منَ الكيلومترات، لالقي فقط بعض المألوفَ من مبتذلَ الكلام»

انَ منظمة الامم المتحدة ، بالنسبة الينا نحن الشعوب الصغيرة لشيء سحري يمنحنا في الوقت نفسه ، الحماية والسلام والتقدم ٠ وقد كنت مصمما على أن أقولَ كلَ ما كـان يعتلج في نفسي ٠ والا فالافضل أن أبقى فـي بلدي ٠

أنهيت خطابي في الرابعة مـن صباح الثالث مـن تشرين الاول (أكتوبر) ١٩٦٠ ٠ ودخلت مبنى مانهاتان الزجاجـي في التاسعـة والنصفَ ٠ كان عليّ أن ألقي خطابي في العاشرة ، ولكن خروتشوف تقدمني ٠ ففي خطاب بالغ العنف حمل علـى منظمة الامم المتحدة وعلى مختلف مظاهر الحياة في العالم الحر ، مزدريا ومستصغرا كل ما نؤمن به من أمور ٠ كان لديّ انطباع بأن كلمتي التي أعددتها سوف تكون جوابا ممتازا على تهجماته ٠ وعندما بدأت خطابي ، نهض السكرتيـر العـام للحـزب الشيوعـي السوفياتـي ووفـد الجمهورية العربية المتحدة وغادروا القاعـة ٠ ولكنني لـم أكترث

لذلكَ اطلاقا ، لانني لم أكـن اليهم أتوجـه بخطابي ، وانما كان حديثي موجها الى العالم الحر ٠ بعد مرور خمس عشرة سنة ، ما زال خطابي يمثل المبادىء التي أدافع عنها ٠ لقد كان هذا الخطاب أهم ما ألقيته طوال ربع قرن من الحكم الملكي ٠ وانني أستطيـع القاءه الآن دون أن أعدّل فيه فاصلة أو كلمة (١) ٠

لقد تأثرت ، بعد القاء خطابي من تلقي التهاني مـن الرئيس أيزنهاور والمستر ماكميلان وحتى من المستر نهرو ٠ ولقد دعاني الرئيس فيما بعد الى البيت الابيض ودار بيننا حديث هام امتد فترة طويلة ٠ وأقام السيد همرشولد على شرفي حفلة عشاء خاصة ان هذا الرجل الذي استغرقتـه المشاغل ، ووجه اليـه قبل وفاتـه الكثير من الذم والقدح ، قد تمكن من التفرغ بعض الوقت ، على الرغم من التزاماته المضنية ، للمجيء مرة أخرى الى الفندق الذي أقيم فيه ، لتحيتي قبل رحيلي ٠

لقد مات أيزنهاور ، ومات نهـرو وهمرشولد ، وأدركت الوفـاة خروتشوف وعبد الناصر ، وما زلت هنا دومـا باقيا ٠ أما القضية الفلسطينية ، فمـا برحت على مـا هي عليـه ، رغـم التصويت المتكرر الحديث العهد حولها ، ورغم ما صدر بشأنها مؤخرا مـن مقـررات ٠

(١) : انظر الخطاب ملحقا في الصفحة (٢٦٦) ٠

بعد فترة على الاقل مضطربة ، تعرضت حياتكم خلالها للخطر مرات عديدة ، يبدو أن خصومكم ، مع بداية الستينيات قد غيروا من أساليبهم ازاءكم ، فازدادوا احتراما لشخصكم ، وعاملوكم كرئيس دولة حقيقي ، كما تعاظم وزنكم باستمرار على المسرح الدولي ٠

لم يستنكر العالم مصرع رئيس وزرائي هزاع المجالي ، عموما فحسب ، بل ان بعض الاقطار العربية التي لم تكن بين أقل الدول العربية أهمية ، لم تستحسن اطلاقا هذا الاعتداء البشع ٠ يضاف الى ذلك أن خطابي في الامم المتحدة قد أنالني مكانة رفيعة جديدة في ميدان الشرق الاوسط ٠ ومنذ ذلك الحين ، لم يعرفوني فحسب ، بل عرفوا أيضا ، وبشكل خاص ، بلادي وما يشغلها من هموم ومشاكل ٠ لقد كنت مرغما على أن أذيع من على منبر أهم المحافل الدولية ، وقائع احتفظت بها لنفسي فترة طويلة ٠ وكنت مستعدا للاستمرار في السكوت عنها ، لو لم يأتوا في عقر داري فيشيعوا الاضطراب والارهاب ٠

وما من شك اذن في أن المذنبين سيزدادون شعورا بالاثم فيما بعد ٠ وعلى ذلك كان من واجبي أن (أبسط لهم يدي) وأن أحاول ايجاد التقارب بيننا ٠ فخطوت اذن الخطوة الاولى بأن كتبت رسالة شخصية الى الرئيس عبد الناصر طلبت اليه فيها أن يبذل ما في وسعه لتحسين العلاقات بين الجمهورية العربية المتحدة والاردن ٠ وأن يضع حدا للدعاية المعادية التي كانت تشنها ضدنا اذاعتا القاهرة ودمشق منذ خمس سنوات ٠ وقد ضمنت رسالتي أيضا ما كنت أرجوه من امكانية الاجتماع به خلال الاشهر المقبلة لنجري معا محادثات صريحة ومخلصة ، حول سائر القضايا التي باعدت بيننا والتي يمكن أن تفرق بيننا في المستقبل ٠

بعد ثلاثة أسابيع ، وفي نهاية شباط (فبراير) من عام ١٩٦١ ،

أجابني الرئيس المصري بكتاب في منتهى الود ، وأستطيع أن أقول بكتاب يمتلىء حرارة ، دعاني فيه بـ (صاحب الجلالة) أو (أخي) وشاركني فيه وجهات نظري وأفاض في طياته بالعبارات التي تنسجم مع آرائي ومعتقداتي ٠ ولا شك أنه كان مشغولا بما فيه الكفاية بالهموم والمتاعب التي كان يثيرها حلفاؤه السوريون والعراقيون بحيث كان الاستمرار في اشاعة الاضطراب في بلادنا يتطلب منه المزيد من الجهود ٠ وعلى ذلك نشأ بيننا ، منذ ذلك الحين ، نوع من الهدنة ٠

كان هذا بداية عهد سعيد توافق من ناحية أخرى في ٢٥ أيار (مايو) مع زواجي بفتاة انكليزية شابة ، كريمة مقدم في البعثة العسكرية البريطانية في الاردن ، وهي المس جاردنر الشهيرة باسم الاميرة منى ٠ أثار هذا الزواج حقا بعض المشاكل من الناحيتين الدستورية والدينية ولكن تمت تسوية سائر الامور بسرعة ٠ وقد دام زواجنا اثنتي عشرة سنة ، أنجبت لي زوجتي الثانية خلالها أربعة أطفال : صبيان هما عبد الله وفيصل ، وابنتان سميتا زين وعائشة ٠

لقد بدا أنه قد بزغ فجر عهد جديد بالنسبة لبلادي ٠ فقد أتاح لاقتصادنا ، الهدوء الذي تلا فترة بالغة الاضطراب ، قفزة كان في مسيس الحاجة اليها ٠ كنا بالطبع نتمتع بمساعدات خارجية وعلى الاخص بمعونات أمريكية وانكليزية ، ولكن كان لدينا مواردنا الخاصة ٠ وكنت عازما على استثمارها وعلى العمل على ازدهارها ٠

كان قطاعنا الاقتصادي الاول عهدئذ يتألف من الفوسفات والبوتاس وتصفية البترول والسياحة التي كانت تجتذب سنويا مئات الآلاف من الاشخاص القادمين من العالم أجمع للاستغراق في الخشوع والتأمل الروحي بجوار الاماكن المقدسة ٠

أنشئت مصفاة جديدة في الزرقاء تتيح معالجة (١٨١) ألف طن

من البترول الخام اعتبارا من عام ١٩٦١ وكمية مضاعفة بعد مضي ثلاث سنوات ٠ أمـا الفوسفات فقد حقق نهضة أكثـر اتساعا ٠ كانت صادراتنا منه في عام ١٩٦١ (٣٢٠) ألف طن ، فبلغت (٦٦٠) ألف طن في عام ١٩٦٤ وتضاعفت الكميـة المصدرة في عام ١٩٧٠ ٠ وأما الاسمنت الذي كان صناعة ناشئة يتراوح انتاجها في حـدود (٨٥) ألف طن في السنوات الاولى مـن حكمي الملكي ، فقـد ازداد انتاجها حتى بلغ (٣٢٠) ألف طـن في عام ١٩٦٥ ٠ لقد رأت النور صناعات أخرى كان لها تأثير داخلي بشكل خاص ، ولكنها كانت تؤمن العمل لعشرات الآلاف من العمال كمطاحن الحبوب وصناعـة الدخـان والمعلبـات ٠

وظهر جيل من الاردنيين وخاصة من الصناعيين ومدراء الاعمال والتجار علـى الطراز الغربي ، ومـن الرجال الذيـن يتعاطون المهن الحرة ، ومـن المدرسين الحائزين علـى الشهادات مـن الجامعـات الاجنبية ، كما وضع الحجر الاساسي للجامعة الاردنية ٠

لقد انفتح أمامنا عصر جديد حقا ٠ ولكن الى متى سيدوم ؟ ٠

كنا في حاجة الى هذه الوثبة الجديدة ، الى هـذا الاندفاع ٠ ولما كنا لا ننسى أننا في الاردن شعب زراعي ، فقد بذلت جهودا خاصة في هذا المجال ٠ كان الشروع في انشاء قناة الغور الشرقية قد غـدا ضروريا لـري السهول في شمالي البـلاد ٠ وقـد أنجـزت الاشغال الخاصة بذلك في عـام ١٩٦٦ وبلغت نفقاتها خمسة ملايين جنيها استرلينيـــا ٠

أتاحت هذه القناة البالغ طولها (٦٥) كيلومترا والتي تسير في خط مواز لنهـر الاردن ، أتاحت ري أربعين ألف فدان مـن الاراضي الاضافية بمياه نهري الاردن واليرموك ٠ وهكذا استطعنا ، منـذ ذلك الحين ليس تنظيـم مجرى المياه فحسب ، وهي ميـاه كانت تأتي عالية أحيانا ، ومنخفضة انخفاضا خطرا في السنين الاخرى ،

ولكن تمكنـا بشكل خاص من معادلة انتاجنا من القمح الذي كان يعطـي في السنوات الجيـدة كعـام ١٩٥٦ (٢٤٥) ألف طـن وفـي السنوات العجاف ، كعام ١٩٦٠ (٤٣) ألف طن فقط ، وهو مـا كان يحمل بين طياته الكوارث والنكبات ٠

بفضل هذا الماء الذي بعثت به الينا العناية الالهية ازداد سائر الانتاج الزراعي ٠ بنسب محسوسة جدا ٠ حتىالماشية انتفعت به فقد كانت قطعانها لدينا قليلة الاهميـة نسبيا في الخمسينيات ، فارتفعت أعدادها الى (٨٠٠) ألف رأس من الغنم و (٦٥٠) ألف من الماعز و (٦٥) ألف من البقر و (١٩) ألف من الجمال ٠

ان كوني ملكا للاردن يعنـي أن أتولى العنايـة والاهتمام بكـل شيء بشغف وكلف وحماسة ٠ وما زالت ، حتى يومنا هذا ، جميع القطاعات وأسباب تطويرهـا وتنميتها محـل اهتمامي اليومي ؛ فأطلب من أجلها التقريـر تلـو التقرير وأقابل المسئولين ، وأقوم بالزيارات المفاجئـة ٠

ان خطط التنميـة لدينا موجودة هنـا للتنبؤ ولتقديـم الخطوط العريضة لاردن المستقبـل وان ما يُعتد بـه في نظري هـو الارقام الباردة التي لا تتأثر بالميول والاهواء ، الارقام الدقيقة ٠ لقد ازداد دخلنا القومي مقدار ستين بالمائة بين عامـي ١٩٥٤ و ١٩٥٩ ٠ وفي فجر حربحزيرن ١٩٦٧ بلغ ثلاثة أضعاف ما كان عليه في عام ١٩٥٤ كل شيء قد انطلق من الستينات ٠ سواء في ذلك تطورنا الاقتصادي أو الاجتماعي أو الثقافي ٠ أمـا ميناؤنا الوحيد على البحر الاحمـر ، ميناء العقبة ، فقد ضاعف من شحناته الصادرة والواردة بين عامي ١٩٦١ ـ و ١٩٦٧ ، وازدادت نقلياتنا على الطرق البرية ٠ كما اتسع نطاق النقل الجوي اتساعا جديدا وبلغت السياحة عندنا نسبا في غاية الاهمية ٠ كـل هذه الآمال ، كـل هذه النتائـج المشجعـة قد أوقفتها فجأة حرب عام ١٩٦٧ ٠ ولولا هذه الحرب لكان الاردن منذ عام ١٩٧٠ بلدا قادرا على سد حاجاته بنفسه دون معونة خارجية ٠

ولكن هذا الهدوء الوقتي العابر في الحياة الداخلية لبلادي لم يمنعني من النظر الى ما يجري في الخارج ، فالاتفاق بين العرب قد تعقدت أموره وارتبكت أحواله باستمرار ، وشهر العسل بين مصر وسورية قد تمزق كيانه الى أن أصيب أخيرا بالتلاشي والانحلال . فاعترفت فورا بالحكومة السورية الجديدة . وقامت بيني وبينها علاقة اتسمت بالمجاملة وحسن المعاملة . وهذا ما لم يلق عند عبد الناصر قبولا أو رضى . وهو أمر طبيعي . ولكن ماذا فعل لارضائي طوال هذه السنوات الماضية . لقد قلت له ذلك على كل حال بصريح العبارة ، في خطاب أذيع على موجات الاثير ، وجهته الى شعبي ، قبل قليل من حلول عيد الميلاد عام ١٩٦١ . وبعبارات غير مقنَّعة ، قلت له بصراحة بأنني سوف أستمر في مكافحة الاستبداد وما أقامته مصر في سورية من اضطهاد وفساد ، وكانت تنوي تطبيقه علينا . ولم يتسرب أي شك الى ذهني من أن خطابي لا ينطوي اطلاقا على أي هجوم على الشعب المصري ، بل على حكامه فحسب .

تقاربت أيضا مع العربية السعودية التي أخذت تبتعد عن القاهرة . وفي آب (أغسطس) من عام ١٩٦٢ قررنا أنا والملك سعود أن نوحد جيوشنا وأن نزيد أيضا من تنمية التعاون الاقتصادي بيننا . وبعد مرور شهر على ذلك ، نشبت حرب اليمن الطويلة التي كان يتصارع فيها نظام الحكم الجمهوري الذي يدعمه عبد الناصر ، ونظام الامام الملكي الذي كانت تسانده القوات السعودية .

الا أن الاحداث تجري بسرعة في الشرق . فعبد الكريم قاسم ، جلاد الاسرة المالكة في بغداد في تموز (يوليو) من عام ١٩٥٨ ، ذهب ضحية للعقيد عبد السلام عارف .و حل فريق من البعثيين محل حكومة قاسم التي كانت قد قطعت علاقاتها مع القاهرة ، وبذلك ثار موضوع الاتحاد مع مصر . وفي هذه المرة ، ليس مع سورية فحسب ، بل مع العراق أيضا .

بدلت رئيس وزرائي وصفي التل الذي كانت القاهرة قليلة الميل اليه ، بسمير الرفاعي في آذار (مارس) من عام ١٩٦٣ . وفي (١٧) نيسان (ابريل) وقع جيراني الثلاثة على وثيقة اتحادهم فاستتبع ذلك قيام سلسلة من المظاهرات في عواصم العرب الكبرى ولم تنج عمان من هذا النوع من المسيرات التي تحولت بسرعة الى شغب وفتنة . كان بعض المحرضين الشباب يصرخون باسم عبد الناصر ، ويتعرضون بالاذى للسكان المدنيين وللمباني العامة . وفي (٢٠) نيسان (ابريل) ، قتل أربعة أشخاص وجرح ثلاثون في القدس . وفي مساء اليوم نفسه أسقط البرلمان الحكومة . فعينت عمي الشريف حسين رئيسا للوزراء وعقدت مؤتمرا صحفيا لم أكتم فيه غيظي من هؤلاء البرلمانيين الذين أسقطوا الرفاعي ، ولكن، تفاديا من ازدياد تفاقم الامور، هنأت الاتحاد المصري السوري العراقي الذي كنت على استعداد تام للتعامل والتعاون معه .

لقد عانينا طوال سنين من تدخل العناصر الاجنبية في السير الداخلي لاعمالنا ، وقاسينا الامرين في حمل الآخرين على احترامنا . وقد مورس كل أنواع الابتزاز على أرضنا بأسم القضية العربية والتقارب الكبير . ان أفعالا كهذه ينبغي أن لا تتكرر ، وعليَّ أن أبدو حازما . لذلك أجرى العسكريون تفتيشا دقيقا في سائر أنحاء البلاد لتجنب كل تحريض أو كل محاولة للقيام بثورة أو انقلاب . وهكذا تغلب الحزم . ليس فقط لم يحدث شيء عندنا ، بل حدث بعد مرور بعض الوقت ، في تموز (يوليو) أن تعثَّر اتحاد الاقطار الثلاثة . ووجد عبد الناصر نفسه وحيدا ، وحيدا حقا ، فعمد ، حفاظا على ماء وجهه ، الى الدعوة الى قمة عربية تعقد في القاهرة في كانون الثاني (يناير) ١٩٦٤ . وقد دعيت اليها . ومرة أخرى كانت « لقاءات مؤثرة » ولكن عليَّ أن أعترف بأن الرئيس عبد الناصر ، قد تغير كثيرا . لقد بدأ يشيخ بعض الشيء . حتى أنه تكوَّن لدي انطباع بأنه كان في حاجة الى مساندتي . تلاقينا عدة مرات في هذه السنة . في آذار (مارس) وفي الصيف ، ثم في مؤتمر الاسكندرية في أيلول (سبتمبر) .

نوقشت في القاهرة ، نقـاط أساسية ثـلاث : قضية مياه نهـر الاردن التـي كانت تود سوريـة تحويل مجراهـا ٠ وانشاء قيـادة مشتركة برئاسة الفريق علـي عامر ،و أخيـرا ،وبشكـل خاص ، الدعم غيـر المشروط لمنظمـة التحريـر الفلسطينيـة التـي كـان يتزعمها وبقي يتزعمها أحمد الشقيري ٠

ألا تشعرون يا صاحب الجلالة بأنه على اثر مؤتمر القاهرة قـد بدأت مشاغلكم الاولى مع المنظمة والصدامات الاولى مع المقاومة التي أدت فيما بعد الى أحداث أيلول الفاجعة في عام ١٩٧٠ ؟

هذا جد محتمل ٠ وان التاريخ وحده هو الذي سيفصل في ذلك ٠ في ٢٨ أيار (مايو) من عام ١٩٦٤ ، عقد الفلسطينيون مؤتمرا وطنيا في القدس ، اشترك فيه ما يزيد على الاربعماتة مندوب ٠ وفي هذه المناسبة اعلـن الميثاق الوطني الفلسطيني ٠ وقـد نص في هـذه الوثيقة علـى ان فلسطين كـل لا يتجزأ وان دولـة اسرائيل غيـر شرعية وأن منظمة التحرير الفلسطينية وحدها هي صاحبة الاهلية الشرعية « لتحرير أرض فلسطين » ولكنها سوف لن تمارس أيـة سيادة على الضفة الغربية من المملكة الاردنية الهاشمية ٠ ويقول الميثاق أخيرا بأن المنظمة سوف تتعاون مع سائر الـدول العربيـة ولكنها سوف لن تتدخل في الشئون الداخلية لهذه الدول ٠

استقرت منظمة أحمد الشقيري في جميع العواصم والمدن الكبرى العربية ولا سيما في عمان ٠ ولكن الشقيري لم يحترم منـذ البداية الالتزامات التي وقع عليها في القدس ٠ فقـرر أولا فرض ضريبـة على سائر الفلسطينيين مهما كانت جنسياتهم ثم تجنيدهم في صفوف المنظمة ٠ وحاول بعدئذ أن يزودهم بالسلاح وخاصة اولئك الذين يعيشون في جوار الحدود الاسرائيلية ٠ ومـا من شك في أنـه ازاء مثل هـذه التصرفات ، لا بـد أن يزداد التوتـر بين الاردنيين وممثلي المنظمـة ٠ فقد جـرت مشادات بينهم خـلال مؤتمـر قمة الاسكندرية في أيلول (سبتمبر) مـن عام ١٩٦٤ ، وحـدث مزيـد منها أيضا أثناء انعقاد مؤتمر الدار البيضاء بعد مضي سنة ٠ فقد كان الشقيري يرغب في تسيير الامـور على هواه أكثر فأكثر ، بما يتعارض مـع الالتزامات التـي تعهد بمراعاتهـا ٠ ولـم يكن من الممكن التساهل في هذا الشأن ، لانـه كـان علينا أن نحافظ علـى وحدة بلادنـا ٠

ثم في الاشهر الاولى من عام ١٩٦٥ ظهرت منظمة فتح ، يدعمها حزب البعث السوري ، فبرز على مسرح الشرق الاوسط رجل جديد غير معروف الا قليلا من الجمهور ، وأخذ يتعاظم شأنه شيئا فشيئا بمرور السنين ، حتى اعترف به العالم بأسره ، بعد مضي عشرة أعوام وأعني به ياسر عرفات . وبظهور فتح تطورت الامور بسرعة .

ازداد التسلل نحو اسرائيل وخاصة انطلاقا من الاردن ، الامر الذي لم أستطع قبوله . فقد قلت وأعدت القول مرارا وتكرارا منذ ذلك الحين ، بأنني لا أريد أن تحدث عمليات الانتقام الاسرائيلية ضحايا أردنيين أبرياء ، من جراء عدم احترام المنظمة للوثيقة التي وقعت عليها في أيار (مايو) من عام ١٩٦٤ .

في الخامس والعشرين من أيار (مايو) ١٩٦٥ ، تسلل الفدائيون الفلسطينيون مرة أخرى الى اسرائيل ، وأصابوا ضحايا مدنيين بما في ذلك طفلان ، أما الرد على ما حدث فلم يدم انتظاره طويلا ، اذ هاجم الاسرائيليون بوحشية ، بعد يومين ، مدينتي جنين وقلقيلية. كنت وقتئذ في العقبة فانطلقت من فوري نحو المدينتين المنكوبتين وبذلت ما في وسعي لمساعدة الجرحى والتخفيف عن مصابهم . وكان علي في اليوم التالي أن أستقبل نائب رئيس الجمهورية الهندي الذي قدم في زيارة رسمية الى الاردن . وقد كدت أن لا أقابله أبدا اذ أصابني تعب شديد منذ أيام ، لانني لم أكن قد أغمضت عيني ، فنمت وأنا أقود سيارتي واصطدمت بحائط . ونجوت من هذا الحادث ، فلم أصب الا ببعض الخوف .

بعد مرور بضعة أشهر ، وفي كانون الثاني (يناير) من عام ١٩٦٦ ، استقبلت فيصلا ملك العربية السعودية في عمان . كان قد خلف أخاه سعودا على رأس الدولة . وقد أثارت هذه الرحلة الى الاردن من جانب عاهل سعودي ، غيظ عبد الناصر . فالملك فيصل كان يدعم النظام الملكي في اليمن ضد القوات المصرية التي كان

جيشها الغازي المؤلف من خمسين ألف جندي ، متورطا منذ أشهر في الجبال الجنوبية للجزيرة العربية . كنت أرى هذه الحرب في اليمن بعيدة تماما عن العقل و الصواب . كان التنافس بين الاسر الحاكمة العربية ، يزداد وضوحا بحيث كان كل شيء يمكن التعلل به لايجاد القطيعة . وهكذا فان الحكومة السورية التي كان دعمها للمقاومة الفلسطينية يزداد كل يوم والتي كانت تحمل عليّ بلا انقطاع . أذاعت على رؤوس الاشهاد في صيف عام ١٩٦٦ بأنها لن تشترك في القمة الاسلامية الرابعة التي ستنعقد في الجزائر في أيلول من عام ١٩٦٦ ، لكي « لا تجلس على نفس مائدة المناقشات مع الرجعيين حسين وفيصل » . وقد فعل عبد الناصر نفس ذلك بعد مرور بضعة أيام .

كنت أشعر حقا بالعزلة في العالم العربي على الرغم من التعاطف الذي كان يغدقه علي الملك فيصل . ولكن هذه العزلة لم تمنعني من القيام بزيارة رسمية قصيرة لبريطانيا استغرقت بضعة أيام حيث حاولت تناسي مشاغلي وهمومي . بيد انني لم أستطع ذلك اذ كان قلبي وأفكاري يتلفتان نحو عمان ، ونحو وطني حيث كان الموقف قد أصبح يزداد خطورة . كنا في نزاع مكشوف مع مصر وسورية حول منظمة التحرير الفلسطينية طبعا . انك سوف تدرك هذا التناقض وهو أن عبد الناصر يريد ، ان لم نقل يستلزم ، أن يفعل الفلسطينيون عندنا تماما ، ما لا يسمح لهم باتيانه عنده لانه كان يمنع غارات الفدائيين الفلسطينيين على اسرائيل انطلاقا من قطاع غزة الذي كان تحت ادارته .

كنت أهاجم من كل النواحي ، ليس من قبل جيراني العرب الاقربين ، فحسب ، بل أيضا من جانب روسيا السوفياتية التي كانت تتهمني بالتواطؤ مع اسرائيل . وهذا ما جاوز الحد ! أمرت باغلاق مكاتب منظمة التحرير الفلسطينية الموجودة في سائر الاراضي الاردنية . وفي تشرين الاول (أكتوبر) وجه وصفي التل ، رئيس وزرائي الذي خلف الشريف حسين في عام ١٩٦٤ ، وجه

انذار الى السوريين بأنهم اذا ما أغلقوا حدودهم مع الاردن فأن دباباتنا سوف تفتحها بكل الوسائل . كنت أشعر بأنني جيد التسليح ، حسن التجهيز مع لوائين مدرعين من أحدث طراز وفي أعلى مستوى من التدريب ، وسرب من القاذفات المطاردات التي كانت الولايات المتحدة على وشك أن تسلمها الي والتي كانت ستضاف الى طائرات الهنتر التي كانت لدي» .

ولكن على توالي الشهور كانت غارات الفدائيين تزداد على نسق يتسم بالخطورة بالنسبة الى الجميع . فمثلا : بين تشرين الاول (أكتوبر) ومنتصف تشرين الثاني (نوفمبر) تسلل مسلحو المنظمة الى اسرائيل ، احدى عشر مرة . ست منها انطلاقا من أراضينا . وكان رد فعل الدولة اليهودية عاصفا : ففي (١٣) تشرين الثاني (نوفمبر) من عام ١٩٦٦ ، كان يجب أن نسجل شهيدة جديدة في القائمة الطويلة من القرى التي ضحي بها ، هي قرية السموع التي نسفت جميع الدور فيها . وعندما وصلت قواتي الى المكان وجعلت تقاتل كان الجنود اليهود قد تركوا وراءهم أكثر من خمسين قتيلا وجريحا .

ومنذ اليوم التالي كانت بلادي تتعرض من كل جانب لهجوم الدعايتين المصرية والسورية ورجال المقاومة على السواء . فقد وصفنا بأننا عديمو القدرة والكفاءة ، خونة جبناء ، « عاجزون عن حماية السكان الفلسطينيين في أراضينا » . وانني لارجو أن تصدق بأن هذا كان يؤلمنا سماعه ! أما أنا فكنت أرى أن الامر المؤكد الذي غدا أكثر وضوحا يوما بعد يوم فهو : وجود مؤامرة شيوعية ترمي الى تدمير الاردن . وأن الجميع يعرفون ذلك ! كان علي أن أقاتل لوحدي ضد الجميع . وكنت سأقاتل وحيدا ضد الجميع ما دام الامر كان يحتاج الى ذلك . انني هكذا أفهم مهنتي كملك وليس شيئا آخر . أخاطر بحياتي في سبيل عيشة رضية لشعبي . فلا تهجمات

عبد الناصر ، ولا انتقادات دمشق ولا شتائم الشقيري الذي اقترح الانشاء الفوري للجمهورية الفلسطينية في الاردن ، بقادرة على أن تغير من الامر شيئا . كان شتاء عام ١٩٦٦ - ١٩٦٧ يتبدى بشكل خاص عسيرا شاقا بالنسبة الى الجميع . ولكن كان لا بد لنا من الصمود . ولقد صمد الاردن .

لم ينسنا الانكليز والامريكان . فقد دعمونا ليس بالكلام وبالتصويت في الامم المتحدة ، فحسب ، بل بعثوا الينا بالاسلحة والمعدات فوصلت بكميات جسيمة الى مينائنا في العقبة في فجر عام ١٩٦٧ ، هذا العام العصيب .

ومنذ ذلك الحين بدأ التشابك والتصعيد ٠

هذا واقع أكيد : لقد ازداد التوتر على توالي الاسابيع : الحرب الاذاعية ، حرب البلاغات ، هجمات رجال المقاومة تضاعفت حدتها كان يسقط القتلى من كل جانب ٠ كان هنالك خسائر يومية جسيمة تقريبا في المعدات ٠ الا أن أمرا واحدا كان يدهشني ٠ فالطائرات السورية التي كانت تسقطها المطاردات الاسرائيلية والقتلى العرب سواء في سورية أو الاردن ، كل ذلك كان يبدو وكأنه قد أبقى الرئيس عبد الناصر فاتر الهمة غير مكترث ٠ ولكن ماذا حل اذن بميثاق الدفاع السوري المصري ؟ ٠ لماذا لبثت الحدود الاسرائيلية المصرية هادئة ؟ ماذا حل بالتضامن العربي الذي أطنب رئيس الدولة المصري في الاشادة به وتحبيذه ؟ ٠ لقد لفت نظره الى ذلك ٠ حتى (حلفاؤه) السوريون أصبحوا قلقين ٠ وأعلموه بذلك ٠ فقد كانت دمشق ترغب بأي ثمن أن تجر القاهرة الى نزاع مسلح ٠

في (١٥) مايو (أيار) قرر عبد الناصر وضع سائر القوات المسلحة لبلاده في حالة انذار وأمر باجراء مناورات ضخمة في سيناء « لتخفيف الضغط على الحدود السورية الاسرائيلية » التي حشدت فيها تل أبيب قوات كبيرة ٠ واستوجب عبد الناصر في (١٩) منه ، رحيل جنود الخوذات الزرقاء التابعين للامم المتحدة فأصبح هذا الرحيل نافذا في (٢١) منه ٠ ثم جاء قرار القاهرة القاضي باغلاق مضايق تيران التي تفضي الى ميناء ايلات الاسرائيلي ٠ فاعتبرت الدولة اليهودية هذا التصرف عملا حربيا ٠

تلقيت نبأ هذا القرار بذهول في صباح (٢٢) فهذا الاجراء الذي يفتقر الى التروي والتفكير ليس من شأنه الا أن يقود الى النكبة ، الى الكارثة ٠ لان العرب لم يكونوا مستعدين للحرب اذ لا يوجد

بينهم أي تنسيق ولا أي تعاون ولا أية قوة مشتركة ولا أية خطة ! ولكنني كنت متيقنا بأنه : اذا كان لا بد للحرب من أن تنشب ، وهذا ما كان يزداد جلاء ووضوحا كل يوم ، فلنكن البادئين بالهجوم ٠ أما اذا ما هاجمتنا اسرائيل فانني لن أقف مكتوف اليدين ، وستنحاز قواتي الى جانب الشعوب العربية ٠ ولقد صرح ابن عمي زيد بن شاكر الذي كان يقود أحد ألويتي المدرعة ، في حديث صحفي أدلى به وقتئذ : « اذا لم يشترك الاردن في هذه الحرب ، فان حربا أهلية ستنشب في الاردن » ٠ لقد شعرت في قرارة نفسي بأنني مرتبط ارتباطا وثيقا بميثاق الدفاع العربي الموقع في القاهرة في عا م١٩٦٤ ، حتى ولو بدا أنه لم يعش الا على الورق آنئذ ، ولم يكن يعقل أن لا تحترم بلادي التزاماتها وتوقيعاتها وهي التي كانت دوما تأخذ مكانها في المراكز العسكرية الامامية في حروب التحرير منذ خمسين سنة ٠ فهذه الحرب المحتملة تخص فلسطين التي كان الاردن يدير جزءا كبيرا منها ٠ كنت اذن معنيا الى أقصى الحدود بهذا النزاع الوشيك الوقوع ٠

كان الاردن أكثر شعوب المنطقة تعرّضا للخطر من جراء الطول الزائد لحدوده المشتركة مع اسرائيل ٠ كان لدي حقا أسلحة ومعدات وجيش ممتاز مدرب خير تدريب ، ولكن بنسبة أقل من اعدائنا ٠ عبثا طلبت معونة العراقيين والسعوديين لتوحيد جهودنا في جبهة واحدة ، فلم يأت شيء من الشرق ٠ كنت أعرف اذن قبل نهاية شهر أيار (مايو) ١٩٦٧ بأنني سوف أبقى وحدي للدفاع عن خط قتال يمتد من البحر الاحمر حتى بحيرة طبريا ٠ هذه « التعبئة العامة » لجيوش ميدان القتال ، لم تمنع جيراني السوريين من ارتكاب اعتداء على أرضي بينما كان من الافضل أن يركزوا طاقتهم نحو الهدف المشترك !

ولما غدا كل حوار مع دمشق مستحيلا ، التفت نحو القاهرة التي بدت لي أكثر انفتاحا وتقبلا للآراء والافكار ٠ فبعثت في ٢٥ أيار (مايو) الى العاصمة المصرية ، برئيس

أركان حربي الجنرال عامر خماش ٠ استقبل طبعا بأدب ، ولكن لم يجر اطلاعه على شيء ولا على أي اعداد ٠ ولم يستطع مقابلة أي من القادة المصريين ، باعتبار أن عبد الناصر نفسه كان (مشغولا جدا) "٠ فلم يبق هنالك اذن سوى حل وحيد فقط من أجل احتمال معرفة ما يجري اعداده من جانب البلاد العربية ، وهو : أن أذهب شخصيا الى القاهرة ٠

اطلعت على رغبتي هذه ، سفير مصر في عمان الذي نقل طلبي الى حكومته ٠ وفي اليوم التالي الواقع في ٢٩ أيار (مايو) وردني جواب عبد الناصر :

« تعالوا الى القاهرة بأسرع وقت تستطيعون ! » ٠

كان ذلك الخطوة الاولى ٠ في اليوم الثلاثين من أيار (مايو) طرت سرا الى مصر ، وكان يرافقني رئيس وزرائي والجنرال خماش نفسه ، وشخصان آخران ٠ ارتديت لهذه المناسبة بزة القتال التي لم تفارقني طوال عدة أسابيع ، واعتمرت قبعتي ذات الشعار الملكي ، وعلّقت مسدسي بحزامي ٠ لم يصحبني أي حرس أما النيابة لبضع ساعات فقد أمنّها أخي الامير محمد في غياب ولي العهد الامير حسن الذي كان في اكسفورد ٠ استلمت أجهزة قيادة طائرة كارافيل مدنية تابعة لخطوطنا الجوية الوطنية ، وبعد طيران لم تتخلله أية مضايقات ، هبطت في مطار الماظة القريب من القاهرة حيث كان الرئيس المصري ينتظرني ، يحيط به رئيس وزرائه والفريق علي عامر رئيس (القيادة العربية المشتركة) التي كان من المفروض وجودها ! كان الاستقبال حارا وديا ٠ كان يقف المصورون انقاذا للمظهر الخارجي ! وقبل أسبوع كانت اذاعة القاهرة تشتمني ٠ وكان عبد الناصر يتجاهلني تقريبا ٠ واليوم تظاهر باعتقالي وهو يمزح أمام الجميع ، الامر الذي أثار ضحكنا الشديد ٠ وهكذا تسير السياسة ٠٠٠"

أعتقد بأنه قد قيل كل شيء وكتب كل شيء عن حرب الايام الستة ، حتى أنكم أنتم بالذات أصدرتم كتابا في هذا الموضوع هو (حربي مع اسرائيل) فمما لا شك فيه ، والاسرائيليون يعترفون بذلك ، أن الاردنيين كانوا أكثر المقاتلين خلقا للمصاعب والمشقات في مواجهة الاعداء ، وأنه ، بين سائر الجيوش العربية ، كان جيشكم هو الذي قاتل أفضل قتال ٠

عندما انسحبت قوات الامم المتحدة من قطاع غزة ، كان لا بد أن يكون المرء أعمى حتى لا يدرك بأننا قد ألقينا بأنفسنا في فم الذئب وأن الحرب مع اسرائيل قد غدت لا مناص منها ٠ وعلى توالي الاسابيع كان الموقف يتدهور ٠ حدث أولا العدوان الاسرائيلي على قرية السموع في نهاية عام ١٩٦٦ ، ثم التوتر المفاجىء على خطوط الهدنة السورية في آذار (مارس) ونيسان (ابريل) من عام ١٩٦٧ ، مع الاشتباك الجوي العنيف في السابع من نيسان (ابريل) ٠ كان قد أمسى واضحا ، منذ قرابة خمسة أعوام ، بأنه اذا لم يفعل شيء ، فاننا سائرون على خط مستقيم نحو نزاع مسلح ٠ لقد نشرت (كتابا أبيض) حول الموضوع منذ صيف عام ١٩٦٢ عنوانه : « الاردن والقضية الفلسطينية والعلاقات العربية » ولقد شرح هذا الكتاب وجهة النظر الاردنية حول ضرورة انشاء وحدة حقيقية وما يتسم به هذا الامر من طابع حيوي بالنسبة للعالم العربي ٠ كانت هذه الوحدة في نظري أساسية ٠ اذ من المستحيل أن ندعم مطالبنا ، اذا لم نجمع شملنا وتتوثق صلاتنا ٠ وعلى الرغم من اختلاف وجهات النظر بيني وبين عبد الناصر ، وعلى الرغم من اللقاءات والمعانقات العلنية ، ومن الخصومات الجديدة ، فقد كنت أشد من ناصره حماسة وحرارة شعور ، عندما قرر دعوة القمة العربية الاولى فجر عام ١٩٦٤ ٠ لقد ساندته في اللقاءات التالية التي تمت في الاسكندرية في أيلول (سبتمبر) من عام ١٩٦٤ ، ثم في الدار البيضاء في أيلول (سبتمبر) من عام ١٩٦٥ ٠ ولقد جرى استعراض كل قضايانا في هذه اللقاءات :

مياه نهر الاردن ، وعمليات منظمة التحرير الفلسطينية ضد اسرائيل انطلاقا من أراضينا ، والحرب المحتدمة الاوار في اليمن بين مصر والعربية السعودية الخ · كنت أعرف بأن أقل استفزاز سيكون مناسبة للاسرائيليين لمفاجأتنا وشن حرب خاطفة وقائية ضدنا · وهذا ما لبث أن تبدّى · كان ينبغي أن لا نعطيهم حجة يتذرعون بها لاشعال هذه الحرب · واذا كان بعض العرب قد فهمني ، فان الآخرين لم يصغوا اليّ ·

ومنذ نهاية القمة العربية الثالثة في الدار البيضاء ، تدهور الوضع بصورة خطيرة · ومرة أخرى كانت مصر هي المتسببة في ذلك : كانت القاهرة في نزاع علني مع العربية السعودية حول موضوع اليمن الذي كانت الحرب فيه لا تنتهي ، ومع الاردن حول موضوع منظمة التحرير الفلسطينية وعلاقاتي معها · ومنذ ذلك الحين أصبح في حكم المؤكد أن القمة العربية الرابعة سوف لن تنعقد ، خلافا لما كان متوقعا ·

منذ عام ١٩٦٦ ، أمسكت شخصيا ادارة الحكومة الاردنية بيدي وكنت أنا ، ولا أحد سواي ، هو الذي قرر اغلاق مكاتب منظمة التحرير الفلسطينية في سائر الاراضي الاردنية · كان لا بد لي من التحكم في توجيه هذه الحركة التي كانت تزداد انفلاتا وتملصا من رقابتي · وقد أتاح لي هذا الاجراء الذي اتخذته ، اشرافا أفضل على الوضع الداخلي في الاردن · لقد بدأ رجال المنظمة ، وانني هنا أزن كلماتي ، في ممارسة التخريب على نطاق واسع · كان هدفهم الاساسي هو محاولة فصل شعبينا في الضفتين الشرقية والغربية لنهر الاردن ، ليتسنى لهم السيطرة عليهما بصورة أفضل لهم · ولتضخيم أعدادهم ، عمد زعماء المنظمة الى ادخال أي كان في صفوفهم ، حتى الاشخاص الذين كانوا ينتسبون الى جماعات سياسية أو الى أحزاب محظورة عندنا · كانوا يجندون بشكل خاص من الذين ينتسبون الى الحركات الشيوعية أو اليسارية التي كانت تتكاثر فئاتها · كانت هنالك واقعة قد أضحت في نظري تزداد ثبوتا ويقينا وهي أنه : بتدهور علاقاتنا مع مصر

وسورية ، وبنشاطات المنظمة فوق أراضينا ، غدا مستقبل الاردن، مرة أخرى ، في خطر ، ومعه قضية الملكية أو النظام الملكي ·

لقد سبق لي الحديث عن عدوان السموع في ١٣ تشرين الثاني (نوفمبر) من عام ١٩٦٦ بحجة « الانتقام من النشاط الارهابي لمنظمة التحرير الفلسطينية » هذا الحادث الذي اشتهر ويا للاسف قد وقع مثله مرات عديدة ضد المخيمات والقرى الفلسطينية المجاورة لاسرائيل · أما قرية السموع هذه التي يبلغ عدد سكانها أربعة آلاف ، فكانت تتألف بشكل خاص من أسر اللاجئين الفلسطينيين الذين كان الاسرائيليون يتهمونهم بايواء المناضلين القادمين من سورية · استغرقت العملية أربع ساعات · ولقد سبق لي القول بأنه بعد رحيل الاسرائيليين ، جرى تعداد واحد وعشرين قتيلا وسبعة وثلاثين جريحا من الرجال والنساء والاطفال · أدينت اسرائيل بعنف من قبل الامم المتحدة بأكثرية أربعة عشر صوتا ضد صوت واحد · وللمرة الاولى ضم الامريكان صوتهم الى أصوات الفرنسيين والروس والانكليز · ولكن الامر الاخطر ، جاء من أصدقائي العرب : اذ بدلا من أن يحملوا على اسرائيل ، انقلبوا علي يهاجمونني ! لانني عارضت أن يقوم رجال أحمد الشقيري زعيم منظمة التحرير الفلسطينية وقتئذ ، بشن عملياتهم انطلاقا من الاردن ·

ومنذ ذلك الحين ، لم يعد من الممكن الا أن يسوء الوضع ويتدهور ليس بين العرب فحسب ، بل مع اسرائيل أيضا · ولم يخف وصفي التل الذي اغتيل في القاهرة بعد بضع سنين ، ما كان يعتلج في نفسه من مشاعر عندما أجاب على الاتهامات الموجهة الى الاردن خلال مؤتمر صحفي عقده في ٢٣ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٦ · اذ قال بشكل خاص بأن هجوم السموع الذي كان من الواجب أن يتيح للقيادة العربية الموحدة أن تختبر فعاليتها قد برهن بأن هذه القياة غير موجودة الا على الورق · وأنها كانت اخفاقا تاما · كان الاردن خلال هذا الهجوم ينتظر المعونة الجوية

من الجمهورية العربية المتحدة التي كانت مسئولة عن منطقة الدفاع هذه ، ولكن هذ المعونة لم تأت أبدا • وأخيرا ، كان قد تقرر أثناء مؤتمرات القمة العربية التي عقدت حديثا ، أن كل عملية للمنظمة انطلاقا من أي بلد عربي ، يجب عرضها ، قبل التنفيذ على القيادة العربية الموحدة لتتولى تقييمها ، وهذا ما لم يحدث • فقد كنت متصلبا بالنسبة لهذه النواحي التي كنت أعتبرها على جانب عظيم من الاهمية • اذ بالاضافة الى سورية ومصر ، كان علي أن أواجه خصما عربيا جديدا لا يقل عنهما ، لانه كان متواجدا عندنا : ألا وهو المنظمة • كانت الشعارات تتطاير في كل اتجاه • أما الشعار الذي كان أكثر ايلاما لنفسي فقد كان القول : « قبل تحرير تل أبيب ينبغي تحرير عمان » •

غدت الحرب لا مفر منها • ولعل مما يبعث على العجب أنها لم تنشب الا بعد مضي ستة أشهر • الجميع يذكر أهم تواريخ وأهم أحداث ربيع عام ١٩٦٧ • وانني أستعيدها لا لشيء الا للذكرى : (٧) نيسان (ابريل) ، المعركة الجوية العنيفة بين طائرات الميراج الاسرائيلية والميج السورية • (١٥) أيار (مايو) أذاع نائب رئيس الجمهورية العربية المتحدة المشير عبد الحكيم عامر ، أمرا يوميا يتطابق مع الذكرى التاسعة عشرة لاستقلال اسرائيل والعرض العسكري الضخم الذي جرى في القدس المحتلة : كان هذا العرض العسكري تحدّيا واستفزازا ، فرفض عدد كبير من الدبلوماسيين الاجانب حضوره • في (١٨) أيار قبل اوثانت السكرتير العام للامم المتحدة ، جلاء قوات الطواريء الدولية من قطاع غزة دون استشارة لمجلس الامن ، واستلمت مراكزها فورا ، القوات الفلسطينية والمصرية • في الحادي والعشرين منه ، بعث الينا السوريون بسيارة ملآى بالمتفجرات كان مقررا لها أن تنفجر في قلب عمان ، ولكنها انفجرت في الرمثا على حدودنا فأدت الى مصرع واحد وعشرين أردنيا ، الامر الذي أرغمنا على قطع علاقاتنا مع دمشق • وفي الثالث والعشرين من (أيار) (مايو) زار عبد الناصر سيناء وقرر اغلاق مضايق تيران • وبذلك غدا خليج العقبة محاصرا

وميناء ايلات الاسرائيلي مشلول الحركة • وفي الثلاثين منه كان لقائي مع عبد الناصر الذي سمّي فيما بعد (بالمصالحة) ، ووقّعت خلاله مع الرئيس المصري معاهدة الدفاع المشترك • وقد طافت صور تبادل العناق بيني وبين عبد الناصر ، سائر أنحاء العالم ، الا أن بعضهم بقي متشككا فيما يختص بهذه اللقاءات وهذا الفيض من العواطف الدافقة • واني لا أخطئوهم •

عدت الى عمان في مساء الثلاثين ولكن مع شخص مزعج الى جانبي هو أحمد الشقيري رئيس المنظمة • فقد رجاني عبد الناصر أن أعيده الى عمان معي فأضطررت الى الموافقة على ذلك • ومنذ ذلك الحين غدا القتال أمرا محتوما • بدأ الهجوم الاسرائيلي فجر الخامس من حزيران (يونيو) • كنت شخصيا في عداد الاهداف المقصودة ، لان الطائرات الاسرائيلية ، في موجات اثر موجات ، لم تقصف عمان والاهداف المدنية والعسكرية فيها ، فحسب ، بل ان عددا كبيرا من الطائرات ، بعد أن حدّدت موقع قصري الذي يظهر واضحا من بعيد ، لقيامه على احد تلال عمان السبعة ، ألقت قنابلها عليه بقصد قتلي وقتل مساعدي وأعضاء حرسي • ولم يكن القصر مستهدفا فحسب ، بل حتى مكتبي أصيب بصواريخ كان من المحتمل أن يقتلني لو كنت داخله • لقد كانوا مزودين بما يحتاجون من معلومات لهذه الغاية •

طوال عدة أيام قاتل شعبي بشجاعة وتصميم • فقد كان الاردنيون في نظر العالم ، أشد المحاربين بسالة وأقداما بين سائر العرب • وانني لفخور بذلك ، فخور غاية الفخر • ولكن كان علينا أن نسلم بالامور التي تبدو جلية واضحة للعيان • فليس في مقدورنا أن نقاوم وحدنا تقريبا في الجبهة الشرقية • لم يأت أي عون ولا أي دعم ، فسقطت القدس ثم أريحا والخليل ونابلس ورويدا رويدا وقعت الضفة الغربية لنهر الاردن بأسرها في قبضة الاسرائيليين • لقد نسفوا الجسور وقسمونا الى شعبين متمايزين • وفي الثامن من حزيران (يونيو) بعد أربعة أيام من بداية المعارك أبلغت السكرتير

العام للامم المتحدة بموافقتي على ايقاف اطلاق النار الذي قــرره مجلس الامن ۰ وماذا كنت أستطيع أن أفعل غير ذلك ؟
أصبح ايقاف اطلاق النار نافذ المفعول بعد ظهر ذلك اليوم، لان بعض جنودي رفضوا القاء السلاح وصمموا على مواصلة الجهاد ببطولة حتى النهاية ۰ وانتهت حرب الايام الستة هذه بالنسبة الينا بعد أن سلبت منا القدس ، أغلــى وأعز المدن الاردنية علــى قلبي ، وجردنا من الضفة الغربية لنهر الاردن ۰

بلا راحة ولا نوم ولا طعام تقريبا ، بعد أن غدوت الزعيم العربي الوحيد الذي اشترك بنفسه في الحرب ، قررت في مساء يوم الثامن مـن حزيران (يونيو) أن أخاطب شعبي العزيز مـن على موجات اذاعة عمـان ۰ وهذا هـو الخطاب : « لقـد قاتلنـا ببطولـة وشرف ولسوف يعترف العـرب فيما بعد بالـدور الذي لعبـه الاردن فـي هذا النزاع ۰

لقد دافع جنودنا عـن كل شبر مـن أراضينا بدمائهـم الزكيـة الغالية التي لـم تجف بعـد ، والتـي ستحتفـظ بلادنـا بآثارهـا وسماتها ۰ انهم لم يخشوا التفوق الجـوي المطلق للعـدو الذي شل بالمباغتة والمفاجأة الطيران المصري الذي كنـا نعتمد عليه ۰ والآن فان ما وقع قد وقع ۰ وان قلبي ليتفطر حسرة وألما عندما أفكر في جميع من فقدنا من جنودنا الذيـن سقطوا صرعـى والذين هم أعز علـي مـن نفسي ۰

أيها الاخوة ۰ يبدو أنني أنتسب الـى أسرة الذين أراد الله لهـم العذاب وبذل التضحيات التي لا نهاية لها لامتهم ۰ ان النكبة التي أصابتنا لاعظـم مما يستطيع المـرء تصوره ۰ ولكن مهمـا بلغـت جسامتها فـلا ينبغي ، أيا كان الثمن ، أن تضعف من تصميمنـا علـى استرداد مـا فقدنـاه ۰

وأخيرا اذا كان المجد لم يجزكم خير الجزاء ، فليس مـرد ذلك

الى نقص في الشجاعة ولكن لان هـذه كانت ارادة الله ۰ كـان الله مـع شعبنـا الآن » ۰

لقد ندر أن تأثرت في حياتي ، تأثري وأنا أخاطب شعبي ۰ كنت على وشك البكاء ولكن كان لا بد أن أمضي في خطابي الى نهايته ۰ كنت أعرف أن شعبي كان يذرف الدموع ، كان يبكي قتلاه وآلامه ۰ وكان يبكي من أجل بلاده ۰ ولن تكون هذه هـي المرة الاخيرة ، ويا للأسف ۰ أما الضيف المزعج أحمد الشقيري ، الذي غادر الاردن عند اغلاق مكاتب المنظمة ليلجأ الى دمشق أولا ، ثم الى القاهرة ، فقد رحل من عمـان في الثالث مـن حزيران (يونيو) قبـل يوميـن من نشوب الحرب ، للذهاب الى القدس ۰ وهنالك عقد مؤتمرا صحفيا وتفوه بكلمات مشئومة خدمت الدعاية الاسرائيلية ۰ ثم عاد فـي الخامس من حزيران الـى عمـان ۰ وفي اليـوم التالي يوم الثلاثـاء السادس من حزيران ، غادرنا فجأة الى سورية « ليطلب الى دمشق أن تساعدنا بأكثر مما فعلته حتى الآن » ۰ ولم نر وجهه أبدا ۰

ما هي العبر والدروس التي تستخلصونها من هـذه الحرب بعد أن اندملت الجروح بفعـل السنين ٠ لقد أفاض النـاس في الحديث مؤخرا بأن حرب عام ١٩٦٧ كانت حربكـم ٠ في حين أن حرب عـام ١٩٧٣ لـم تكـن تعنيكـم ٠

سوف أجيبكم على سؤالكم على دفعتين ٠

أولا : سوف أحملكم على الدهشة والحيرة ، ولكنني قلت ذلـك مرات عديدة : ان هذا النزاع الدامي المميت الشرس الضاري سوف يبقى في نظري (حربا مزعومة) ولا شيء غير ذلك ،، لم أقاتـل في أية لحظة ضمن شروط حرب حقيقية ، ولم أشعر في أي وقت بوجود هذه الحرب ،، انني كما تعلم لم أعلن الحرب أبدا على اسرائيل ولم (أحاربها) أبـدا بالمعنى الصحيح لهـذه العبارة ، فلـم أزد على أنني كنت أرد على كل اعتداءات أعدائنا ، كمـا كنت أفعل منـذ عام ١٩٥٦ أي منذ حوالي عشرين عاما ٠

ان السلام في بلادنا غير موجـود ٠ ولم يـر النور اطلاقـا ٠ فقد فرضت علينا الهدنة حقا في عام ١٩٤٨ بعد انشاء دولـة اسرائيل ٠ ولكن ما هي الهدنة ؟ انها ليست السـلام ٠ وهي لم تكن السـلام أبدا ٠ ما أكثر ما أستهتر بالهدنة وخرقها في أغلب الاحيان، اولئك الذين يقيمـون في مواجهتنا ٠ ان تعداد ذلـك سيكون مـن الصعب اجـراؤه !

لم يتحقق السلام أبدا ٠ وكما تبدو الاحداث اليوم ، فـان السلام ما زال بعيد المنال ! ، حتـى بعد مقررات قمـة الربـاط في تشرين الاول (أكتوبر) من عام ١٩٧٤ وبعدما أجرتـه الامم المتحدة مؤخرا من التصويت المتكرر ٠ لا بـد من ايجاد حـل عادل ، والا فلـن يكون هنالـك سـلام ٠

نعم فيحزيران عام ١٩٦٧ ارتكبنا أخطاءا وخسرنا حربا فرضت علينا واستخلصنا منها العبر والدروس التي تجلت على الاقل بعد مضي بضعة أشهر علـى حرب حزيران عام ١٩٦٧ ، خـلال العدوان الاسرائيلي في الحادي والعشرين من آذار (مارس) ١٩٦٨ ، علـى الشونة والكرامة ، في الضفـة الشرقية لنهـر الاردن ٠ كـان ردنا الانتقامي الخاطف علـى القوات الاسرائيلية قـد أحال مـا أسمته اسرائيل (بالعملية البوليسية البسيطة) الـى اشتباك عسكري تام نجمت عنه خسائر فادحة مني بها المعتدون وكانوا لا يتوقعونها ومع ذلك كانوا يفوقوننا في العـدد والطائرات ووسائل نقل الجنود وهو ما كنـا لا نملكـه ٠ لقد عرفنا كيـف نستخلص الدروس مـن ضعفنا بالنسبة للقوات الجوية ومن المعونة التي نستطيع توقعها من حلفائنا ،، وعرفنـا أننا اذا لم نعتمـد على أحـد ، قاتلنا قتالا أفضل ، وهذا مما لا يتطرق اليه الشك ٠ ولو اتكلنا علـى المساعدة فلسوف لن تأتي علـى العموم أبدا ! وانـنـي في مركز يتيح لـي أن أعـرف ذلـك جيـدا ٠

اكرر القول بأننا ارتكبنا أخطاءا منذ ثماني سنوات ٠ وفي رأيي أن أول هـذه الاخطاء هـو أننا لم ننظم قواعـد ومناهـج عملياتنا العسكرية تبعا لامكانياتنا الخاصة ٠ فمنذ سنين كانوا يحدثوننا عن القيادة العربية الموحـدة ، وعن القائـد العام لسائـر الجيوش العربية ، وعن معونة شعوبنا الشقيقة الخ ٠٠ وقـد اعتمدنا على ذلك ، وهو أمر طبيعي ٠ وما كان ينبغي علينا أن نفعل ٠ فلو لـم نعتمد على هذه المعونة الخارجية المحتملة ، لكانت (حربي) مـع اسرائيل قد اتخذت مجرى آخر تماما ٠ ما في ذلك أدنى شك ٠ عندما ينتظر الغطاء الجوي الـذي كنت أنتظره ، فانه لا بـد لي مـن أن أقاتل بالاسلوب الذي انتهجته في القتال ٠ ولـو عرف رجالنا منـذ البداية أنه لا يمكنهم تلقي أية معونـة ، لا مـن مصر ، ولا مـن سورية ، ولا من العراق ، لكانت اختلفت استراتيجيتنا عما كانت عليـه ، ولبقيت القدس في حوزتنا حتى اليوم ٠ لانـه طوال الايام القليلة لهذه الحـرب الخاطفة ، كنا دومـا نراعي احـلال المصلحة

العربية في المكان الاول ، واضعين مصلحتنا الخاصة في المحل الثاني من الاهمية • وهكذا كنت أفهم معنى التضامن " الا أن الجميع ويا للأسف لم يتقيد بنفس القاعدة التي انتهجتها •

لم تأت المساندة الخارجية ، وتلاشت بتوالي الساعات والايام المعونة المطلوبة التي وعدنا بها • فاضطررنا أن نتصرف بأسلوب الحركات التلقائية وأن نبتدع الحلول البديلة في اللحظة الاخيرة • كنا الى حد ما نرتجل ارتجالا ، في حين أن اشتباكا عسكريا في هذه الاهمية لا يعالج بالارتجال •

في اليوم الثالث ، عندما اضطررنا أن نتحقق من أن أحدا سوف لن يخف لمساعدتنا ، كان الوقت قد فات • كانت امكاناتنا أقل بكثير مما كنا نستهلك من أسلحة ومعدات • وكانت المقايسة بين القوات غير متوازنة اطلاقا • فمنعنا هذا العائق منعا باتا من افشال وايقاف تقدم العدو واحباط خططه • كان في مواجهتنا جيش مدرب خير تدريب ، موحد ومسلح بالعزم والتصميم ، لا يعتمد سوى على نفسه ، ولا يتكل على مساعدة أحد • أما هنا ، فقد كنا نعول على التضامن العربي وعلى المعونة التي وعدنا بها منذ أشهر والتي كنت ما زلت أنتظرها بلا طائل ! ولعل الذي كان أشق على النفس وأقسى ، هو ليس الساعات ولا الايام التي تلت الهزيمة ، وانما الاشهر التي كانت تمضي ، الاشهر التي كانت تثقل كاهلي ، وتحمل الي العناء والاعياء سواء من الناحية المادية أو الجسمية • كان لا بد لي من المقاومة والصمود • كنت أشعر بأن أعصابي على وشك الانهيار والانفجار • وكنت احس بأن صحتي قد تمكر بي في أية لحظة وتتلاشى مقاومتها " وهذا ما كان لا ينبغي أن يحدث • كان علي أن أبقى صلبا متينا لاواصل قيادة بلادي حسبما كان شعبي يتوقع مني ، ومثلما كنت أرجو وأتمنى • فسافرت كثيرا خلال هذه الاشهر التي تلت العدوان الاسرائيلي ، ودافعت بايمان وقوة عن قضية شعبي •

مرة أخرى ذهبت الى مقر الامم المتحدة في نيويورك بعد مضي

ثلاثة أسابيع على نشوب القتال • وألقيت خطابا أمام المحفل الدولي الكبير • كنت مقتنعا بأن الجيش الاردني قد قاتل قتالا أفضل مما فعلته سائر الجيوش العربية التي كانت متواجدة في المعركة • كانت تعليقات الصحف تثبت لي ذلك وكنت سعيدا من جراء هذا • كانت بلادي هي التي ذاقت النصيب الاوفى من الآلام والنكبات خلال هذا العدوان فخسرت أكبر عدد من الرجال والمعدات والاراضي • كنت اذن أحس بأنني أكثر الناس جدارة بالتحدث باسم القضية العربية • وهذا ما فعلته من صميم قلبي • ربما أيضا تحت تأثير الانفعال النفسي والتعب والعناء من هذه الحرب • اقترحت من علياء هذا المنبر ، عقد اجتماع عاجل لمؤتمر قمة عربي فووفق على عقد هذا الاجتماع في نهاية الصيف ، وهو موعد متأخر جدا في رأيي • كان يجب أن نضرب الحديد حاميا متوقدا وليس بعد مضي ثلاثة أشهر على نشوب الحرب ، عندما تكون الاذهان قد تطرق اليها النسيان •••

انتهزت الفرصة التي أتيحت لي للتواجد في الغرب ، فقابلت عظماء هذا العالم في طريق عودتي • بدأت بالرئيس جونسون • واذا كان قد أبدى لي بالغ اللطف وأكثر من العبارات الودية ، وكان شديد الاصغاء والالتفات الى أقوالي ، فقد أظهر لي بعض الحنق ازاء مصر ، والكثير من التبرم نحو اسرائيل التي كانت في الربيع قد أكدت له بأنها سوف لن تتخذ أية مبادرة عسكرية • وفي اوربا كانت أولى زياراتي مخصصة لرئيس وزراء العمال هارولد ويلسون الذي كان هو أيضا بالغ المودة تجاهي ومدركا واعيا للموقف كما يظهر على حقيقته • أما الرأي العام الانكليزي ، فقد كان معاديا لنا بلا شك ، وكان يتجلى ذلك في الاحاديث وفي الخطابات وفي مقالات الصحف • الا أن رئيس الوزراء وجورج براون وزير الخارجية قد أعربا لي عن الكثير من التعاطف والمشاركة الوجدانية • وانني أعتقد بأنه قد جرى بيننا تفاهم أكيد • وهذا هو الاساس •

اما أفضل لقاءاتي في الغرب وأحفلها بالفائدة والخصب ، وأكثرها

ايجابية ، فقد كان بلا ريب لقائي بالرئيس شارل ديغول ، الرجل الكبير العظيم الذي كان يعرف تمام المعرفة مشكلة الشرق الاوسط وقضية العرب بشكـل خاص ٠ لقد كنت دومـا أكن لهـذا الجندي الكبير أحر الاعجاب ٠ وانني أعتقد بأنه كان يعرب لي كلما قابلته عن تعاطفه الوجداني ان لم أقل عن محبتـه ٠ كانت أقواله تأخـذ طريقها المباشر الى قلبي ٠ كان يعرف اختيار الكلمات الصحيحة والنغمات التعبيرية التي تفيض بالصدق والاخلاص ولا سيما هذه العبارة التي سوف لـن أنساها أبدا :

« اذا كان من حق اسرائيل أن تعيش بسلام وأمان ، فان الاردن بكلّ تأكيد يستحق ذلك سواءبسواء » ٠

بقي علي أيضا أن أقابل الرجل الاخير الذي كنت لا أعرفه لانني لم أذهب أبدا الى بلاده بحكم أنني لم أكن أقاسمه آراءه ومعتقداته ألا وهو الرئيس الروسي نيقولاي بودغورني ٠ وقد حدد موعد الزيارة في الثاني من تشرين الاول (أكتوبر) ٠

ولكن قبل أن ألتقي بالزعماء الروس الذيـن هاجمتهـم بعنف طوال الخمس عشرة سنة من حكمي الملكي ، أردت أن أقابل جمال عبد الناصر الذي خرج من هـذه الحرب مثخنـا بالجراح ، وفاقـدا للكثير من هيبته ونفوذه ، والذي كف عـن التحامل علـى مباشرة بهجماته ٠ لم يكن في مؤتمر القمة في الخرطوم الذي انعقد فيما بين التاسع والعشرين من آب (اغسطس) والاول من أيلول (سبتمبر) الا ظلا لما كانت عليـه شخصيته القديمة ٠ وقـد كدت مـن ناحية أخرى أن لا أصل الى القاهرة في الثلاثين مـن أيلول ١٩٦٧ هذا ، من جراء رداءة الاحوال الجوية التي كانت سائدة فوق كل البحر الابيض المتوسط الشرقي مـن قبرص الـى مصر مرورا ببيروت وعمـان ٠ استلمت قيادة الطائرة من رئيس الطيارين وأقلعت باتجاه القاهرة التي كان مطارها مغلقا ومـدى الرؤية فيه لا تتجاوز مائتـي متر ، وهبطنـا بأقـل الخسائـر ٠

لقد اتسمت المحادثات التي أجريتها مع الرئيس المصري بطابع غاية في الود والحرارة ٠ لاول مرة تواجدت في مواجهة رجل آخر حلو

الحديث لطيف المعشر ودود حسن الالتفات ودار الحديث بيننا حول ما أسميناه (بالموقف العربي) ٠ كان هنالك خمس نقاط أساسية وجوهريـة بالنسبة الينـا :

١ ـ الاعتراف بحـق العيش بسلام وأمـان لكـل دولـة في هذه المنطقة بما في ذلك اسرائيل ٠

٢ ـ الاتفاق على وضع حد لحالة الحرب وللحرب نفسها ٠

٣ ـ فتح الطرق الملاحيـة الدوليـة للجميـع بمـا في ذلـك قناة السويس ٠

٤ ـ انسحاب اسرائيل من سائر الاراضي العربية التي احتلتهـا خلال حـرب حزيران ٠

٥ ـ التسوية النهائية لقضية اللاجئين الفلسطينيين المحزنـة والاعتـراف بحـق هـؤلاء الرجـال والنساء بالعـودة الـى أراضيهـم "

وبديهي أن النقطتيـن الاخيرتين لا تتعلقان بنـا فحسب ، بـل بأولئك الذين يتواجدون في مواجهتنا أيضا ٠٠ بعض هـذه النقاط وردت في القرار الامريكي الروسي ولكنهـا لم تؤخذ بعيـن الاعتبار من جراء بعض المتطرفين العرب الذين كانوا يفضلون تدابير أكثر صراحة وأسرع تنفيذا ٠ ومـع ذلك حتـى الجزائريين الذيـن كانوا يسلكون طريقا أشد صلابة ممـا انتهجناه ، قـد بذلوا لـي بعض التشجيع عندما التقيت بزعمائهم ، بعد قليل من مغادرتي القاهرة فقد وافق الرئيس بومديـن أن يدعنا أنا وعبـد الناصر ، لنحاول تحقيق ما اقترحناه موضحا لنا في الوقت نفسه بأنه لا يؤمن بذلك أبدا ٠ وعلى أثر هذه الاتصالات واللقاءات المتتالية بين زعماء الدول العربية ، ونتيجة للجهود التي بذلناها ، ظهرت مهمة الدكتور جونار

يارنج اثر قرار اتخـذه مجلس الامـن بالاجماع في تشريـن الثانـي (نوفمبر) من عـام ١٩٦٧ ٠

في الاول من تشرين الاول (أكتوبـر) كنت في موسكـو : قابلت فيها السيدين بودغورني وكوسيجين ٠ وكان الاستقبال وديا جدا ومرة أخرى أكد لـي الروس الدعم الـذي سوف يبذلونـه للشعوب العربية أيا كانوا ٠ كنت في موقف مبهم بعض الشيء ٠ لانني كنت لا أشارك المصريين والسوريين والعراقيين نفس الحماسة التيتتقد في صدورهم ازاء الكرملين ٠ كان الروس يعرفون بأنني لا أكنّ لهم ودّا ٠ وكان ما زال عالقا في كل ذاكرة خطابي الاول في الامم المتحدة في عهد خروتشوف ٠ ولكنني حاولت تبديد سوء التفاهم الذي كان طوال سنوات ، يؤثر على العلاقات بين بلدينا ؛ عدت اذن راضيا جدا عن زيارتي الاولـى لموسكو وعـن موقف الزعمـاء الروس ازاء بلادي ٠ فقد بدا أنهم يعرفونها جيدا أو أنهـم ميالون لمساعدتها مع وضع القضية العقائدية جانبا ٠

نعم ان بعض جروح عام ١٩٦٧ قـد اندملت بعض الشيء ، كمـا قلت ، ولكن بعضها الآخر ما زال ينزف دمـا ولفترة زمنية سيطول مداهـا ٠

ولكن ثمة نقطة لست أتفق واياك اطلاقا عليها ، عندما قلت بأن عام ١٩٦٧ كان حربي وأن عام ١٩٧٣ لم يكن مثل ذلك ٠ فمنذ سنين كانت جميع المعارك التي خاضتها الشعوب العربية هي معاركي ؛ كانـت جميعهـا تعنينـي ٠ وكانـت كلهـا تجتـذب اهتمامـي ، سواء وقعـت في الشرق الاوسـط أو في أي طـرف مـن الاراضي الاسلاميـة ٠
لقد قاتل الهاشميون منذ أربعة أجيال ، في سبيل نفس القضية ونفس الهدف والغاية ٠ لقد كـان الشريف حسين في مكـة أول من رفع الراية ٠ ثم جاء بعده جدي الملك عبـد الله ، وتلاه والدي ٠ أما أنا فاني من أبناء الجيل الرابع الذي قاتل في سبيل نفس القضية

ونفس الهـدف والغايـة ٠ ان كـل الحـروب والمعـارك لا تتشابـه والوسائل المستخدمة للدفاع أو الهجوم لا تتماثل أيضا ؛

كانت حرب عام ١٩٦٧ وحرب عام ١٩٧٣ مختلفتين تمام الاختلاف فالمعتدون والمعتدى عليهم لم يعودوا كما كانوا عليـه في الماضي ٠ وهذا بديهي ٠ ومع ذلك فهاتـان الحربان كانتـا حربـاي ٠ ولـو أن المواقع على الارض لم تتحرك بالنسبة للاردن ٠

ان جدي الاعلى مدفون في القدس كما تعلم ٠ أما جدي الملك عبد الله ، فقد لقي مصرعه في القدس بين ذراعي ٠ ان هذه المدينة هي مدينتنا لاكثر من سبب ٠ ومنذ ثمانية أعوام والمسلمون في العالـم أجمع ملوك وجنود وأغنياء وفقراء ينتظرون لكي يقيموا الصلاة من جديد في المسجد الاقصى الذي يمثل الشيء الكثير في أعيننا ٠

لقد قيل وكتب بأن حرب الايام الستة هذه قد أجهدتكم معنويا وجسميا وأنكم لم تعرفوا النوم طوال كل أيام القتـــال · ما هي بالنسبـــة اليكم والـــى شعبكـــم النتائـــج المباشرة لهـــذه الحـــرب وانعكاساتها على الصعيد الداخلي ؟

لست أنا فحسب ، بل ان رجالي وشعبي خرجوا جميعا مجهدين من هذه الحرب ، مزعزعين مثخنين بالجراح · لم يكـــن من السهل كفكفة سائر الدموع واطفاء كـــل الرماد الـــذي كان ما يزال حـــارا ، وازالة جميع ما تراكم من أنقاض · ولكـــن مرة أخرى ، لقـــد فعلت البلاد ذلك بشجاعة ونبل ووقار ، كما كان يفعل الاردنيون دوما في الظـــروف المماثلـــة ·

لقـــد سقطت القدس في صباح السابـــع من حزيـــران ، فاحتلهـــا الاسرائيليون مع قبة الصخرة وسائر الاماكن المقدسة الروحية كمـــا احتلوا بيت لحم ونابلس ورام الله والخليـــل ، لقد دافعنا بضراوة عن كل متر مربع من هذه الارض مضحين بحياة المئات والآلاف من الرجال · وانني أعتقد بأن من المستحيل أن يفعـــل غيرنا أكثر مما فعلنا · رجالي أيضا لـــم تغمض لهـــم جفون طوال هـــذه الليالي · وبعد ثلاثة أيام من المعارك الضارية التي كانوا يقاتلون فيها رجلا مقابل خمسة رجال ، اضطروا ، وقد نال منهم التعب المرهق ، الى التراجع مرفوعي الرؤوس · ليس لدي ما ألوم قواتي عليه · وانني لعلى يقين من أن المراقبين الاجانب قد أعربوا بوضوح عن آرائهم حول الطريقة التي حاربت بها الجيوش العربية ولا سيما الاردنيين الذين كانوا في نظرهم خير من قاتل منهم ·

تدهورت اقتصاديات البلاد الـــى الحضيض · فقـــد خسرنا كـــل شيء · وكـــان علينـــا أن نبدأ مـــن الصفر · ولكـــن ليس هذا الذي يستطيع ايقافنا ·ولقد أقمنا الدليل على ذلك · وللمرة الاولى لعب التضامن العربي ذروة أدواره · فاذا كان قد غاب عنا أثناء القتال

فقد ساعدنا مساعـــدات ضخمة طـــوال السنوات التاليـــة · اذ الى جانب المعونة التقليدية التي كـــان يقدمها الغرب اليـــنا كالولايات المتحدة وبريطانيا العظمى ، فقد كنا نعتمد على الامدادات التـــي كانت تزودنا بها كبـــرى الدول العربية المنتجـــة للبترول ولا سيما العربية السعوديـــة والكويت وليبيـــا ، التي أنشأت في أيلول ١٩٦٧ صندوقا خاصا مـــن أجل الدول التـــي اشتركت في الحـــرب وخاصة الاردن ومصر وسورية ، يبلغ مقداره (١٣٥) مليونا من الجنيهات الاسترلينية · منها أربعون مليونا خصصت للاردن ·· وقـــد أعاننا الاشقاء العـــرب أيضا في سبيل مئات الآلاف مـــن النازحين الذيـــن يقيمون فـــي ضيافتنـــا ·

لقد استمرت لحسن الحظ بعض صناعاتنا في العمـــل في حزيران (يونيو) وتموز (يوليو) ولا سيما الفوسفات الذي صدرنا منـــه حوالي مليون طن في عام ١٩٦٧ ومليون و (١٥٠) ألف طن في السنة التي تلتها · واذا كنا قـــد تركنا مزارعنـــا وأراضينا الخصبة فـــي الغرب ، فان مناجمنا ومستخرجاتها واقعة في الضفة الشرقية من نهر الاردن · وهذا ما عوض علينا بعض الشيء ، فقداننا لفواكهنا ولموارد سياحتنا التي عادت علينا بعشرين مليون جنيه استرليني في عام ١٩٦٦ ، وهو مبلغ مهم بالنسبة الى بلد صغير كبلدنا ·

ثم هناك مشكلة السلاح · فقد فقدنا الطيارات والدبابـــات والاسلحة الثقيلة والخفيفة · وغدا من الضرورات المستعجلـــة أن نحصل على بديل لها · وكنت على استعداد لان اتلقى السلاح من أية جهة كانت ، سواء من الشرق أو من الغرب · ذهبت الى موسكو في تشرين الاول (اكتوبر) ولم يخفَ عني الذين تحدثت اليهم من المسؤولين بأنني اذا كنت في حاجة الى شيء ، فهم تحت تصرفي ، تقرّبا الي واكتسابا لمرضاتي · الا انني فضلت الاستمرار في التزود بالسلاح من أولئك الذين كانوا يدعمونني دوما · فعوضني الانكليز ببعض طائرات الهنتر ودبابات السنتوريون · واسلمتني الولايات المتحدة طائرات من طراز ستار فايتر وبعض الاسلحة المختلفـــة ·

وهكذا بعد مضي ثلاث سنوات ، كان لدي جيش كامل العدد والعدة حسن التدريب ، يملك بشكل خاص (٣١٠) من الدبابات من طراز باتون وسانتوريون ، وعشرين طائرة هوكر هنتر وثماني عشرة ستار فايتر ٠ كما جهزت البلاد بنظام دفاعي من الصواريخ ٠ كان علي أن أكافح للحصول على كل هذه المعدات ، لان العقول كانت مـا تزال مستعرة اللهيب ، وكان الجميع يتحدثون عن حرب جديدة في حين انني بين عامي ١٩٦٨ و ١٩٦٩ لم أتلق سوى نصف التجهيزات التي كنت انتظرها ٠ الا أن حدة التوتر خفت لحسن الحظ بعـض الشيء ٠ وابتعدت أصوات الجزمات العسكرية ٠

بعد أن نهضت اقتصاديات البلاد من كبوتها ، وجهز الجيش من جديد ، كانت هنالك مهمة من نوع خاص وعلى جانب أعظم من الخطورة ، تنتظرني ٠ وكنت في ذلك العهـد لا أدري انها سـوف تستغرقني سنوات عديدة ، ألا وهي تحرير الاراضي المحتلة ٠ لـم يكن من المعقول أن ننال هذا التحرير بالقوة ، ولقد اعترتني الدهشة عندما سمعت عبد الناصر يحبذ مثلي أن نحقق هذا التحريـــر بالطرق الدبلوماسية ٠ كنت أرى أن مما لا شك فيه بأن المفاوضة هي الوسيلة الوحيدة لاسترداد أراضينا ٠ لذلك كان لا بد لنـــا من التلاقي وبحث هذا الموضوع بهدوء وبمعزل عن الانفعال ٠ فاقترحت عقد مؤتمر قمة جديد نتداول فيه بشكل خاص في الموقف المشترك الواجب اتخاذه ازاء اسرائيل ٠ كانت الدولة اليهودية على استعداد للتحدث مباشرة معي ومعي وحدي ، ولكنني لـــم أكن راغبا في الانفراد والانشقاق عن الشعوب العربية الاخرى التي وقعت ضحية العدوان في حزيران (يونيو) ٠ لهذا كان لا بد من توحيد قضيتنـــا واعداد خطة مشتركة ٠ وهذا ما أدى الى لقاء الخرطوم الذي قاطعته الجزائر وسورية ٠ وانني أكتفي من البلاغ النهائي الصادر عن هذه القمة بهذه الفقرة الهامة :

« قرر ملوك ورؤساء الدول العربية توحيد جهودهم السياسية على الصعيدين الدولي والدبلوماسي لازالة آثار العدوان الاسرائيلي

والحصول على انسحاب قوات العدوان الاسرائيلية مـــن الاراضي العربية المحتلة في الخامس من حزيران ٠ وسيتم ذلك ضمن نطاق المبادىء الاساسية التي تعتمدها الدول العربية وهي : لا صلح مع اسرائيل ، ولا اعتراف بأسرائيل ، ولا مفاوضة معها ، وتأكيـــد حقوق الشعب الفلسطيني في أراضيه ٠ »

لقد وجهت الينا انتقادات مريرة من جراء ما اتصف به هـــذا النص من الصلابة والحزم ولكنه كان الوسيلة الوحيدة لتأكيـــد ارادتنا التي لا تتزعزع في البقاء متحدين مصممين ٠

وجاءت فيما بعد مهمة يارينج ، وهو رجل يتصف بالنباهـة والذكاء ٠ كنا نبدوا اننا نتقدم بخطوات متثاقلة ٠ ولكن مع تراجـع الزمن ، يدرك المرء اليوم انه طوال كل هذه السنين التي أعقبـت حرب حزيران ١٩٦٧ ، كنا نراوح في مكاننا لا نريم وندور حـــول دائرة لا نتجاوزهـــا ٠

ومع ذلك ، على الرغم من تدمير جزء كبير من طاقتنـــــا العسكرية ، وعلى الرغم مما أصاب اقتصادنا من معوقات في هـذا الصيف من عام ١٩٦٧ ، فقد كانت هنالك مشكلة هامة ، وفي منتهى الاهمية أيضا وهي : المشكلة الانسانية الخاصة بالابقاء على حياة الشعب الفلسطيني ٠ قبل عدوان حزيران ، كـان عندنا في الاردن بمعناه المحصور ، أي في الضفة الشرقية من نهر الاردن ، حوالـي خمسمائة ألف لاجيء فلسطيني ، انضم اليهم مائة وخمسون ألفـا هربوا من الضفة الغربية ٠ كانت أحوالهم المعيشية مقلقة ، غيـر مستقرة ، ان لم نقل انها كانت لا تلائم حاجات البشر ٠ وقـد ركزت سائر جهودي لكي يتسنى لهؤلاء الناس الذين أقصوا عـن ديارهم ، العيش على توالي الاشهر ثم السنين ، بكرامة وبصورة طبيعية ٠ ومن أجل ذلك كنت في حاجة الى المال ٠ الى المال الكثير ٠ ولئن كانت المعونات تردنا من القـــارات الخمس ومن المؤسسات الخيرية ، فقد كانت هزيلة تبعث على السخرية ، في مواجهـــة

ضخامة المشكلة ٠ وكان هذا البطء لا يروق للاجئين وزعمائهم ، ومنهم ياسر عرفات الذي جعل يزداد وزنا وأهمية ، يضاف الى ذلك أن زعيم فتح وزعيم منظمة التحرير آنئذ أحمد الشقيري ، كانا يستغلان وصول اللاجئين الجدد والعاطلين عن العمل الجدد لالحاقهم في منظماتهما الفدائية وتدريبهم وتسليحهم استعدادا للضربات التي كانا يعتزمان القيام بها في المستقبل ٠ كنا نسير على مهل نحو تصعيد لا سبيل الى معالجته وتفاديه ، بلغ ذروته القصوى في أيلول عام ١٩٧٠ ، وهو تاريخ أسود وشهر من الحداد في حياتي ٠

كان الفلسطينيون قد وطدوا العزم على استرداد اراضيهم التي احتلت ظلما وعدوانا في أقرب وقت يتيسر لهم : كان لهم أقارب في الجانب الاخر من نهر الاردن ، كان لهم أولاد وبيوت وبساتين تمثل سنين عديدة ، ان لم نقل أجيالا من الجهود والتضحيات ٠ كانت سورية تدعمهم دعما فعالا ، وهذا ما كنا نعرفه قبلا ، وكان يساندهم العراق أيضا الذي كان له خمسة عشر ألف جندي يرابطون في الاردن بأستمرار منذ الحرب ٠ وقد كان الفدائيون بمباركة من دمشق وبغداد ، يجتازون الحدود الجديدة للقيام بضرباتهم ومناوشة العدو بعملياتهم ٠ وقد حدث ما لا بدّ من حدوثه ٠

كانت اجراءات اسرائيل الانتقامية ملطّخة بالدماء في شباط من عام ١٩٦٨ ٠ وقد ألحّ علي بعض قوادي العسكريين أن أتولى بشكل أكثر فعالية ، رقابة وتوجيه هؤلاء الفدائيين ٠ الذين بدأوا يتمادون في التصرف على هواهم في الاردن ٠ وقد صرح وزير داخليتي وقتئذ بشكل خاص بأن : « الاردن مصمم على أن يضرب بقبضة فولاذية كل الذين يقدمون لاسرائيل بأعمالهم ، الحجج والاعذار للعدوان على وطننا » ٠

كان علينا أن لا نصطدم وجها لوجه مع الفدائيين ٠ ولكن كنا

مصممين على الاحتفاظ بزمام الموقف في أيدينا ٠

ثم وقعت الغارة على الكرامة في اذار (مارس) من عام ١٩٦٨ من قبل القوات اليهودية ، كان الاشتباك دمويا من الجانبين خسائر في الارواح البشرية ، تدمير للمعدات ٠ وكان دفن الشهداء من الفدائيين مناسبة لقيام مظاهرة ضخمة ٠ مؤيّدة لهم ، وبداية ، ولا شك ، لنواة من المقاومة أكثر رسوخا وأمتن بنيانا وما من شك في أن المنظمة التي كان الفدائيون يجاهدون تحت لوائها كانت تلفت النظر بروعتها حقا ، كانت حسنة التجهيز ، جيدة التدريب ٠ وقد قاتلت في معركة الكرامة الى جانب القوات الاردنية ببسالة وفعالية ٠ ولكن لا بد لي من الاعتراف بأن من الصعب علي أن أمارس رقابتي وتوجيهي على جنود لا نستطيع تمييزهم من غيرهم في الاردن حيث توجد قوانين ، وحكومة لجميع المواطنين مهما كانت أصولهم وأجناسهم ومعتقداتهم ٠ هذه القوانين واجبة التطبيق على الجميع بلا استثناء ٠ لم أكن أرغب في دولة ضمن دولة ٠

هؤلاء الفدائيون الذين كانت سورية تتولى تسليحهم وتجهيزهم واطعامهم وايواءهم ودفع مرتباتهم ، كان أصدقاؤهم في دمشق والقاهرة يبعدونهم بلباقة عن أراضيهم ٠ فقد ألغت سورية كل عمل فدائي انطلاقا من حدودها ، أي من الجولان ٠ كانت دمشق ترتاب بشكل خاص في منظمة فتح التي كانت تعتبرها مزعجة جدا ٠ فكان الفدائيون ، دون أن يطردوا من سورية « يوجهون » نحو لبنان والاردن فينطلقون منهما للقيام بعملياتهم ضد الدولة اليهودية ٠ وهذا ما كنت أرفضه ، وما زلت حتى اليوم أرفضه ٠

انني لا احتاج الى دروس في القومية والوطنية أتلقاها من أحد فاذا كان أحد يعتبر وقتئذ ، وما زال يعتبر الان ، بأنه أكثر قومية عربية مني ، فليبرهن على ذلك في بلده نفسها ، وليس بأتخاذ

الاردن أرضا للتجارب ٠

ازداد عدد الفدائيين شهرا بعد شهر في الاردن ولا سيما في المدن ٠ وأصبحت عمان معقلا لهم ٠ كانوا يتجولون في شوارع العاصمة وأسلحتهم في أيديهم يتحدّون السكان وأفراد جيشي ٠ في تشرين الاول (اكتوبر) من عام ١٩٦٨ ، بلغ التوتر بين جيشي والفدائيين ذروته ٠ كانت الاشتباكات والخطب وبلاغات محطات الاذاعة كلها كانت تحضّ وتحرّض على الهيجان والفوران ٠ ولقد وقع ويا للأسف ما كان لا بدّ من وقوعه والذي كنت أخشاه ٠

لقد قابلتم ياسر عرفات عدة مرات بين عامي ١٩٦٨ و ١٩٧٠ ٠ أما كنتم أنتم الاثنان تستطيعان ايقاف هذا التصعيد ؟

بالطبع ، فقد أجرينا عدة محادثات أنا وياسر عرفات طوال هذه الاشهر الحرجة ٠ وعقدت اتفاقيات مع الفدائيين ، اعترفوا بموجبها ،في الفترة الاولى ، بسلطة الجيش الاردني٠ ولكن الجميع كان يعرف بأن منظمة التحرير الفلسطينية ليست هي التي تسلّح الفدائيين فحسب ، بل كان هنالك أيضا جماعات أخرى غير معروفة الا قليلا في ذلك العهد ، ثم ازدادت أهميتها بالتدريج فيما بعد ٠ لقد أجريت محادثات ودية جدا وايجابية مع ياسرعرفات في شباط من عام ١٩٦٩ ٠ ولكن ما العمل عندما ترفض القوات طاعة رؤسائها وتقرّر تشكيل مجموعات أخرى أشد اضطراما واحتداما وأكثر تصميما ٠ كنت راغبا في قبول القرار رقم (٢٤٢) الصادر عن مجلس الامن الدولي ٠ وكانت محادثاتي مع نيكسون الذي كان قد دخل البيت الابيض قبل قليل ، قد رسخت رغبتي التي كانت رغبة العرب جميعا ، وهي العمل على حمل اسرائيل على احترام المقررات التي كانت الامم المتحدة قد اتخذتها منذ مدة غير بعيدة ٠

ولكن الدبلوماسية بطيئة ، والضحايا الابرياء للعدوان الاسرائيلي لم تعد تقبل الانتظار ٠ كان الفلسطينيون تواقين الى أن يستردوا بالسلاح ما جردوا منه ظلما في عام ١٩٦٧ ٠ فازداد التوتر تفاقما في الاردن في عام ١٩٦٩ هذا ، ولا سيما في العاصمة عمان ٠ كانت المظاهرات واستعراضات القوة والنداءات الى التمرّد والشعارات المعادية للاردن وزعمائه ، يتوالى ظهورها في كل يوم ٠

ازاء خطورة الموقف في نهاية الصيف ، عينت خالي الشريف ناصر قائدا عاما لقواتنا المسلحة ، ومحمد رسول الكيلاني وزيرا للداخلية ٠ كانا رجلين يتصفان بالصرامة والفعالية والوطنية ،

ويعرفان تمام المعرفة ما أتوقع منهما ، وهو اعادة الهدوء الى داخل أراضينا ، والقيام بالمراقبة المشددة الدقيقة للحدود مع اسرائيل ٠

لقد سبق لي القول : بأن الصعوبة تكمن في أن الفدائيين كانوا شيعا وأحزابا ، فالاتفاقيات التي تعقد مع بعضهم لا يعنى بها الاخرون ٠ والالتزامات التي توقعها قوة ثالثة ، ترفضها مجموعة أخرى ٠ كنت أحتفظ بعلاقات مجاملة مع ياسر عرفات ٠ ولكن القرارات التي كنا نتخذها معا ، كانت تتجاهلها الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، التي يتزعمها الدكتور جورج حبش ، والجبهة الديمقراطية الشعبية لتحرير فلسطين التي كان يترأسها نايف حواتمه ٠ هاتان الحركتان المتطرفتان الى أقصى حدود التطرف ، كانتا تناديان بأعلى الاصوات على كل من يود الاستماع بأنه : « قبل تحرير فلسطين ، ينبغي تحرير عمان ٠ » ٠

ولكي يعرفوا بأنفسهم ، ويعترف بهم الناس ، كانت هاتان المجموعتان تستخدمان أكثر الاساليب مسرحية واستلفاتا للنظر ، كتحويل الطائرات عن خطوط سيرها ٠

ولقد تعرضوا حتى الى أسرتي ، ولا سيما الى زوجتي الاميرة منى ٠ فقد أوقفوها بينما كانت تستقل سيارتها في شوارع عمان قبل قليل من حلول عيد الميلاد وأطلق سراحها حرسي الخاص بعد بضع ساعات ٠

في بداية شباط (فبراير) من عام ١٩٧٠ قمت بزيارة عبد الناصر في القاهرة للتباحث معه في الموقف الداخلي الذي كان سائدا في بلدي ، واستطلاع رأيه بشأنه ٠ كان الرئيس المصري ما يزال محتفظا بكل هالة النفوذ التي كان يتمتع بها في العالم العربي وكانت نصائحه ومشوراته مسموعة ومأخوذا بها ٠ ولكن اذا كان قد نصحني سرا وبعيدا عن الانظار الفضولية ، بأن التزم جانب الحزم ازاء الفدائيين ، فلم يكن في مقدوره أن يفعل ذلك في خطاباته ، لان هذا كان سيثير الاستهجان في سائر العالم الاسلامي وعندما عدت الى عمان في العاشر من شباط (فبراير) كنت أعلم

انه كان لي في شخص الرئيس المصري ، صديق يتعاطف معي وجدانيا ، ولكن ليس حليفا رسميا في أية حال ٠ كنت أعرف انني وحيد ، وحيد أكثر من أي وقت مضى ٠ وأن أقل خطوة عاثرة ضد المنظمات سوف تكلفني استثارة غضب الشعوب الشقيقة وقطع المعونات الهامة التي كانت تمدني بها ليبيا والكويت ولا سيما منذ عام ١٩٦٧ ٠

في هذا اليوم اتخذ محمد رسول الكيلاني قرارا بمنع حمل السلاح في سائر الاراضي الاردنية وأجرى رقابة جديدة على كافة السيارات المدنية ٠٠ فأعتبر الفلسطينيون التدابير التي اتخذها وزير الداخلية بمثابة استفزاز حربي ٠ كانوا يرفضون بأي ثمن الموافقة على التخلي عن اسلحتهم ٠ وكان لا بد لي من استخدام كل ما أملكه من أساليب الاقناع خلال حديث مع الزعماء الفلسطينيين ، جرى في منزل رئيس الوزراء بهجت التلهوني ، للتوصل الى تنازلات متبادلة ، فتقوم الحكومة بتجميد مقررات الوزير بعض الوقت ، شريطة أن يضع الفدائيون حدا لتجاوزاتهم ٠

في الرابع عشر من شباط (فبراير) وخلال مؤتمر صحفي ، أعلنت بشكل خاص ، أن مقررات وزير الداخلية قد كانت خطأ يعود الى عدم الاحاطة بالموضوع ، وقلت : بكل اخلاص ، لم أكن أتوقع ردود الفعل هذه بعد صدور القرار الحكومي القاضي بمنع حمل السلاح ٠ ربما حدث انقطاع في الاتصالات ، فالحكومة لا تريد من الفدائيين أن لا يحملوا سلاحهم ، انما تود فقط موقفا يتسم بالتنسيق والتنظيم ٠ على كل حال فان قرارات الوزير سوف يجري تجميدها ٠٠٠ » ٠

بعد عشرة أيام أعفيت محمد رسول الكيلاني من منصبه فأعتبر كل جانب أن ما حدث كان نصرا له ، وبدا كل من الطرفين أنه قد كسب المعركة ٠ ولكن الحرب ، ماذا حل بها ؟ هل ابتعدت ؟ هل زالت معالمها ؟ لا ويا للأسف ٠ فقد تبع ذلك فترة هدوء قصيرة تغمرها الكآبة ويلفها القلق : فترة لم تدم سوى أربعة أشهر ٠
في صباح التاسع من تموز (يوليو) كان زيد الرفاعي مساعدي

في القصر ، والذي غدا فيما بعد ، رئيسا للوزراء ، قد استيقظ
مبكرا جدا على قعقعة الاسلحة الاوتوماتيكية ·· فأتصل هاتفيا
بأبن عمي زيد بن شاكر لمعرفة ما كان يحدث · فأبلغه الاخير
بأن الفدائيين كانوا يطلقون النار على المقرّ العام للمخابرات ·
فذهب الى هنالك على عجل مارّا تحت النيران المتشابكة الصادرة
من رجال جيشي ومن الفدائيين ، واستطاع كيفما اتفق أن يدخل
الى دار وأن يتصل بي هاتفيا منها لابلاغي وتحذيري · وعلى
الرغم من توسلاته الي لكي أبقى حيث كنت أقيم في الحمرّ ،
فقد اندفعت في سيارة مع القائد العام لجيشي وعدد قليل من
الحرس ، لنرى رأي العين ما كان يجري اذ كان أيضا من مقتضيات
مهنتي أن أتواجد حيث تدعو الحاجة الي حتى ولو كان ثمة خطر ،
وأي خطر كان سائدا في هذا اليوم ! ·

وما كدنا نمر أمام مركز القيادة العسكرية في صويلح ، حتى
جعلت نيران الرشاشات تدوي · فلاقى حتفه أحد الجنود المتواجدين
في سيارة الجيب التي كانت تتقدمني وجرح اخر · فأطلقنا جميعا
نيران اسلحتنا للافلات من هذا الكمين ، واستمر اطلاق النار بضع
دقائق أيضا الى أن توقف ، أسفر ذلك ويا للأسف عن وقوع قتلى :
ثمانية من الفدائيين ، وأحد جنودي ، وأربعة جرحى · ربّاه ، لماذا كل
هذا ؟ لماذا ؟ · وما أن بلغت القصر حتى أخبرني مساعديّ بأن
المنظمات الفلسطينية لا تنسب الى نفسها هذه المؤامرة وانها على
العكس من ذلك قد استنكرتها · غدا الوضع فوضى متزايدة
بأستمرار · لا أحد يطيع أوامر أحد · كل يلقي اللوم على الاخر ·
كانت الاذهان في حالة غليان ، ولا سيما بين رجالي من أبناء
العشائر الذين كانوا ينتظرون مني أن أعطيهم النور الاخضر حتى
يندفعوا الى المعركة · وانطلقت الشائعات التي لا تساعد على
تسوية الامور ، وتهدئة الخواطر : قيل بأنني أصدرت أمري الى
الجيش بمحاصرة مخيمات اللاجئين في الوحدات ، وفي مخيم الحسين
حيث « سقط مئات القتلى والجرحى ·· ! » يا له من هذيان ···
ومن باب الانتقام قامت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بمحاصرة
أهم فندقين في العاصمة واحتجزت ثمانية وخمسين من المواطنين

الاجانب كرهائن : وأعلنت بأنها سوف تطلق سراحهم عندما
تصمت نيران الاسلحة والا فانهم سو فيقتلون ، وسيدمر
الفندقان ·

في العاشر من حزيران ، جرى وقف لاطلاق النار · ولكنه لم
يدم سوى فترة قصيرة · وفي اليوم التالي أصرّ الفدائيون على
استقالة أربعة من أقرب المستشارين عندي · كان بينهم خالي
الشريف ناصر ، وابن عمي زيد بن شاكر · كان هذا غير معقول ·
ثم وقعت حادثة مؤلمة عندئذ : قتل الفدائيون الذين كانوا منتشرين
في كل مكان في المدينة ، شقيقة زيد بن شاكر ، ابنة عمي ، جوزاء
التي كانت قد صعدت الى سطح بيتها لتشاهد ما كان يجري ·
وسواء أقتلت عمدا أم سهوا فقد كان الفدائيون قد أحدقوا بدار أم
قائد الفرقة المدرّعة ، وفي نيّتهم أن يظهروا تواجدهم بطريقة أو
بأخرى · كانت جوزاء الضحية البريئة لذلك · ولما كان من الممكن
أن يستمر التصعيد وأن يستتبع هذا سقوط قتلى اخرين ·· فقد
اتخذت على كره مني ، قرارا بأعفاء الشريف ناصر وزيد بن شاكر
من منصبيهما ، وأبدلت خالي في قيادة الجيش ، بالجنرال
مشهور حديثه ، مقابل ذلك أطلق الفدائيون رهائنهم · وهذا لم
يمنع من أطلاق نيران الرشاشات على مشهور حديثه في اليوم
التالي لتقلده منصبه في احدى ضواحي عمان · ولحسن الحظ لم
يصب بأذى ·

أحسست بأن وجود خالي في الاردن في هذا الصيف من عام ١٩٧٠
كان يزعج الفدائيين الذين كانوا يأخذون عليه « توجيه دفة الامور »
من وراء الكواليس · فتسامحت أيضا ورجوت الشريف ناصر أن
يأخذ بعض الاجازة في الخارج ، ريثما تعود الاوضاع الى نصابها
من جديد · وفي السابع عشر من حزيران ، خلال مؤتمر صحفي
عقدته ، لم أستطع أن أتمالك نفسي من توجيه المديح والثناء
الرجلين اللذين أعفيتهما من منصبيهما وهما : خالي وابن عمي
اللذان عادا فيما بعد الى العمل ، واللذان كانا في رأيي مفخرة
لجيشنا ولشعب الاردن · في السادس والعشرين من الشهر المذكور

عينت عبد المنعم الرفاعي رئيسا جديدا للوزراء . وفي اليوم التالي استقبلنا في عمان بعثة عربية رسمية قادمة من الجزائر وتونس وليبيا ومصر والسودان . وقد جاءت بدعوة مني للادلاء برأيها والاعراب عن مشاعرها حول المشكلة التي تثير الهم والقلق وتقسم السكان الى طائفتين متناحرتين متعاديتين ، ومستعدتين لكل شيء . استمرت أعمالنا أسبوعين ، وأخيرا ، في العاشر من تموز (يوليو) وقّع اتفاق من قبل مختلف الاطراف . وقعه الرفاعي بأسم حكومتي ووقعه عرفات بأسم الفدائيين (والحكماء) العرب الخمسة ، وقد اعترفنا بموجبه بوجود (لجنة مركزية) للفدائيين على أراضينا ندع لها كل حرية للمناورة والتنقل مقابل أن يتخلى الفدائيون عن قواعدهم ومستودعات ذخائرهم في التجمعات السكانية الاردنية ويكفوا عن حمل السلاح في المدن .

كان هذا من شأنه أن يجعل المرء يتطلع الى المستقبل بهدوء وسكينة . لقد كان هنالك ما يدعوني ، بحكم طبيعتي المتفائلة ، أن أعتقد بأننا بذلك قد نجونا تماما من مواجهة قد يقتل فيها الاخ أخاه . ولكنني ما لبثت أن اضطررت الى تضييق مدى ما كنت أرتجيه : اذ لم تدم الهدنة سوى شهر واحد ، بلا زيادة يوم واحد ! كنت وافقت مثل عبد الناصر على الاقتراح الامريكي بايقاف النار لكي نتيح لوسيط الامم المتحدة مواصلة جهوده في جو أكثر هدوءا . وعندما قررت مصر والاردن الاحترام الدقيق لوقف اطلاق النار ثارت ثائرة الفدائيين مرة أخرى . فقد اعتراهم شعور بأن عبد الناصر وأنا قد خذلناهم وغدرنا بهم وأن قضيتهم قد « أغفلت » . لقد تكون لديهم انطباع خاطيء طبعا بأننا بعملنا هذا لم نعد نريد محاربة اسرائيل ، بل مقاتلتهم هم الفلسطينيون . ومنذ ذلك الحين تجاوزت الاحداث ياسر عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية . وأمسكت جبهة التحرير والجبهة الديموقراطية بالامور في أيديها . كانوا يودون العمل بسرعة ، وبسرعة قصوى . لم يعد أي شيء يستطيع منذئذ أن يوقفهم . كان الامر في نظرهم مسألة تتعلق بالابقاء على حياتهم .

ثم كان الانفجار وكان أيلول الاسود ....

اعتبارا من ذلك الوقت ظهرت الازمة . فاما نحن أو هم . لم يقبل أحد أن يقدم تنازلات ولم يكن أحد راغبا في أن يتراجع عن موقفه . كانت المواجهة أمرا لا يمكن تفاديه ، ويا للأسف ! . بالطبع كان ثمة خلافات بين المنظمات الفلسطينية مثلما توجد خلافات بينها اليوم أيضا . ولكن من أجل الابقاء على حياتها كانت لا تستطيع الا أن توحد جهودها .

ذهبت في الاول من أيلول لاستقبال ابنتي الكبرى عاليه في مطار عمان . فتعرضنا في طريق العودة لنيران غزيرة من أسلحة أتوماتيكية كان يطلقها الفدائيون علينا من بيوت تحصنوا فيها . وثبنا خارج سياراتنا وألقينا بأنفسنا في الخنادق وفتحنا النار . وقد خرجنا من هذا الكمين كيفما اتفق .

بعد مضي خمسة أيام حوّل الفدائيون الفلسطينيون طائرتين مدنيتين عن خطوط سيرهما . احداهما سويسرية والثانية امريكية وأرغموهما على الهبوط في ميدان دوسون (قيعان خنّا) على بعد بضعة كيلو مترات شمال شرقي الزرقاء . كانتا تقلان (٣١٠) من الركاب والملاحين ، بمن في ذلك (١٢٥) امرأة وطفلا . كما فشلت في لندن محاولة تحويل أخرى أجريت على طائرة تابعة لشركة العال الاسرائيلية . وقد دمرت أيضا طائرة جامبو امريكية في القاهرة بعد هبوطها بقليل " هذه الهجمات نسبها الى نفسه وديع حداد الرجل الثاني في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بأعتبار أن جورج حبش كان وقتئذ في كوريا الشمالية . وفي التاسع من أيلول هبطت أيضا طائرة بريطانية من طراز (في سي تن) في ميدان داوسون وعلى متنها (١١٥) راكبا . كان المفروض اطلاق سراح الرهائن اذا ما أفرج عن سبعة فدائيين محتجزين في السجون الاوروبية ، وبعض اخر معتقلين في السجون الاسرائيلية . كانت منظمات

المقاومة منقسمة فيما بينها حول الاساليب التي تنتهجها الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ٠ كان ياسر عرفات معارضا لهـــذه الاختطافات وكانت تجاريه في موقفه المعارض سائر الاقطار العربية بلا استثناء ٠ في الثاني عشر من هذا الشهر ، أطلق سراح معظم المسافرين الذين كانوا محتجزين ضمن ظروف وأحوال شاقة عسيرة كانت تتفاقم بأستمرار ، ما عدا أربعة وخمسين شخصا وزعوا في مختلف انحاء البلاد ريثما تتم مبادلتهم بالفدائيين المعتقليـن ٠ وقد أطلق سراحهم جميعا سالمين معافين في نهاية الشهر ٠

وفي رأيي ، وهذا ما قلته وأعدت قوله : ان هذه التحويــلات لخطوط سير الطائرات المدنية لهي (عار على العرب أجمعين) ٠ عبثا طوقت ميدان داوسون بقوات من جيشي ، وعبثا حاول القائد العام الجنرال حديثــه مفاوضة الفدائيين من (٦) حتى (١٢) أيلول (سبتمبر) ، فلم نخرج من الامر بطائل ٠ كان الصـــدام العسكري غير معقول لوجود هذا العدد من الرهائن في أيـــدي الفدائيين ٠ كانوا يستحثونني من كل جانب لكي أتدخل بفعالية ٠ ولكن كان هذا غاية في الخطورة ٠ وكان الجيش يريدني أن أنتقل الى العمل الفعال ، ولو أدى الى سقوط بعض القتلى ٠

حتى أن بعض جنودي ، من بين أخلصهم وأشدهم ولاء ، لم يعودوا يعرفون ماذا يفعلون والى من يلجأون ٠ كنت متواجدا يوما ، خلال الاسبوعين الاولين الحرجين من أيلول (سبتمبر) في مواجهة سرية مدفعية مستعدة لعمل أي شيء ما عدا البقاء في وضع سلبي ٠ كانت تتقدم في أحد مفارق الطرق جنوبي الحمَّر ، وبينما كنت أتجه في سيارتي نحو هذه السرية في محاولة لايقاف سيرها ، ناداني أحد الجنود بعد أن قفز من سيارة شاحنة وقال : « توقفوا وعودوا مـن حيث أتيتم ، اذهبوا ٠ الى الخلف در ! » وجاء اخر فزاد على ذلـك قائلا : « انسحبوا من طريقنا أو أقتل نفسي أمامكم ٠ » ٠ وكان قد جذب مسمار قنبلة وأضاف : « لقد كنتم أملنا ، وكنا نحبكم ٠ كل هذا قد انتهى ٠ ! » ٠

لقد تقاضاني هذا الامر ثلاث ساعات لاصرف رجالي عــن محاولة القيام بهجوم عسكري والعثور على حل اخر غير الحـرب الاهلية وقتل الاخ لاخيه ٠

في ليلة الرابع عشر من أيلول ، كان رئيس وزرائي عبد المنعم الرفاعي وياسر عرفات يعملان بنشاط متواصل في محاولـة لارساء قواعد اتفاق يكفل بعض الحقوق للفدائيين ويتيح لهم انشـــاء معسكرات أخرى خارج المدن الكبرى ٠ ولكن في اليوم الخامس عشر ، عندما عرض علي الرفاعي الخطوط العريضة لهذا المشروع الـذي أعده طوال ساعات الليل كلها مع زعيم منظمة فتح ، لم أستطـع الا رفضه ٠ ولكي لا أصدم أحدا في مشاعره ، قلت بأنني سوف أفكر في الموضوع فيما بعد ، بذهن مسترخ ٠ وبعد ظهر اليوم نفســه ، جمعت في الحمَّر بعضا من أقرب مساعدي ومستشاري ، وهــم وصفي التل ، وزيد الرفاعي واثنان من كبار الضباط هما مــازن العجلوني وقاسم المعايطه ، وابن عمي زيد بن شاكر الذي كنت قد عينته في آب (أغسطس) على رأس دائرة العمليات في القيـادة العامة للجيش ٠ فأتفق الجميع في الرأي على وجوب اجراء عمـل حازم وسريع ضد الفدائيين ، ولا سيما وأنه في فترة بعد الظهر هذه قتل ابن قاسم المعايطه أثناء اشتباك بين الجيش والفدائييـن في الزرقاء ٠ كانوا يريدون الصدام العسكري قالوا ذلك بصريح العبارة ٠

اتخذ القرار اذن في مساء الخامس عشر من أيلول (سبتمبر) كان لا بد من العمل بسرعة ، والا سار الاردن كله في طريق الانهيار ٠ وفي ساعات متأخرة من الليل ، بعثت في طلب رجل لا يعرفه الجمهور الا قليلا ، رجل مسن هو الزعيم محمد داوود ٠ كان فلسطينيـــا محترما ، رفيع المنزلة عند عارفيه ٠ كان دائم الاستياء من تطرف بعض زعماء منظمة التحرير ، ومن فشل ياسر عرفات في محاولتـه السيطرة على سائر العمليات الفلسطينية ، ومن انعدام الانضباط لدى بعض وحدات الجيش ٠ ولسوف تبقى التعابيـر التي ارتسمت على وجهه عالقة في مخيلتي ، عندما طلبت اليه ترؤس حكومـــة

عسكرية ، قدمت اليه قائمة بأعضائها • كان الزعيم محمد داوود يعرف ما يتوجب عليه عمله : اذا لم يجلُ الفدائيون عن المدن كما تقضي بذلك احدى نقاط اتفاقية الرفاعي عرفات ، في الساعة الثامنة من صباح السادس عشر من الشهر ، فان الجيش سيشرع في الهجوم • كان الجو ثقيل الوطأة ، فأتخذ مع مستشاري الرئيسيين هذا القرار البالغ الاهمية الذي كنت قد رفضت اتخاذه منذ أشهر ، لا بل منذ سنوات •

كان الزعيم محمد داوود ، يقدره الفلسطينيون • وكان له العديد من الاصدقاء بين زعماء المقاومة • فلربما كان تعيين رجل متزن حازم ، سيؤدي الى انقاذ ما يمكن انقاذه ! •

في الساعة السادسة صباحا ، أذاعت محطة اذاعة عمان ، نبأ تشكيل الحكومة الجديدة التي كانت تتألف من سبعة جنرالات وثلاثة عقداء ، وثلاثة رواد ، وحلّ المشير حابس المجالي في قيادة الجيش محل الجنرال مشهور حديثه • وفي الرسالة التي وجهتها الى شعبي ، أعلنت بشكل خاص بأن : « حالة من الشك والفوضى وانعدام الطمأنينة والامن ، تسود بلادنا العزيزة ، وأن الخطر الذي يهدد الاردن قد ازداد • فقدرنا أن من واجبنا اتخاذ سلسلة من التدابير لاعادة القانون والنظام وحماية حياة كل مواطن ، وسبل عيشه وما في حوزته ••• » •

اعتبر الفدائيون هذا القرار وهذه الاقوال بمثابة اعلان حرب • واستدعى ياسر عرفات اللجنة المركزية الى مقر قيادته في جبل الحسين حيث أتخذ قرار في غاية الخطورة : اذ قررت جميع منظمات المقاومة أن تتحد تحت لواء ياسر عرفات والجبهة الشعبية ، ومنح اللواء يحيى منصب رئيس أركان حرب ، وهو الان قائد لجيش التحرير الفلسطيني • وتقرر القيام بأضراب عام يبدأ في اليوم التالي ويستمر « الى أن تسقط الحكومة الفاشية • » •
حاول داوود عبثا طوال نهار السادس عشر، الاتصال بياسر عرفات

الا أن الاتصال الهاتفي القصير الذي أجراه معه في ساعة متأخرة من بعد الظهر لم يغير من الامر شيئا • كان ذلك يعني الصدام العسكري والمواجهة التي طالما خشيناها والتي يقتل فيها الاخ أخاه •

بدأت المواجهة في الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والخمسين من صباح السابع عشر من أيلول • كان يتواجد من ناحية ، خمس وخمسون ألف رجل مجهزون خير تجهيز ومدربون خير تدريب ، ويشكلون كتلة واحدة وفي حوزتهم ثلاثمائة دبابة وحوالي أربعون طائرة • ومن ناحية أخرى خمسون ألفا من الفدائيين يمكن اعتبار حوالي نصفهم من الجنود الحقيقيين ، يساندهم عشرة الاف اخرون متمركزون في سورية ، بالاضافة الى أنهم يستطيعون أن يتمتعوا في أية لحظة بدعم اثني عشر ألف جندي سوري وعراقي مرابطين في الاردن منذ عام ١٩٦٧ •

كان أول رد فعل اجنبي خلال نهار السابع عشر هذا ، قد جاء من الرئيس السوري نور الدين الاتاسي ، الذي أيد الفدائيين فورا ، وكان يشجعه في ذلك مساعداه صلاح جديد ويوسف الزعيّن اللذان كانا يطالبان بالتدخل الفوري للجيش السوري الى جانب الفدائيين • ولكنهما أوقفا بعض الشيء في اندفاعهما من قبل وزير الدفاع السوري الفريق حافظ الاسد ، وهو رجلٌ راجح العقل نير الفكر • اذ كان يعتقد بأن من المحتمل أن يؤدي اتيان عمل كهذا الى حملُ اسرائيل على اتخاذ اجراء ضد دمشق •

كان عبد الناصر يبدو في حيرة وارتباك • فقد أرسل الينا ، بعد حديث مطول أجراه مع العقيد القذافي ، رئيس أركان حربه الفريق محمد صادق الذي دعا الفريقين عند وصوله الى ايقاف اطلاق النار •• ولكن الوقت كان قد فات •

ثم جاءت طعنة الخنجر التي تلقيتها في الظهر اذ تغلب

المتطرفون في كل من سورية والعراق وهاجموني في العشرين من أيلول ، في اللحظة التي كنا أقل الناس توقعا لها • كان لدى السوريين بشكل خاص ، (٨٨٠) دبابة ومائتا طائرة ، هل كانت النهاية في هذه المرة ؟ • كان علينا أن نواجه بجيشنا الصغير ووسائلنا الضعيفة ، خصوما ثلاثة ، في الداخل وفي الشمال وفي الشرق ، دون أن نجرد من أجل ذلك حدودنا الغربية من حاميتها • ثم مالت الدول العربية الواحدة تلو الاخرى الى جانب المعسكر الفدائي • وعمد أقرب الاصدقاء لنا ، أولئك الذين كانوا دوما يكنون لنا التقدير والوداد الى قطع علاقاتهم معنا ، ومنع المعونة المالية عنا •

لقد عاد الكفاح من جديد ، من أجل البقاء ، من أجل الحياة • كنت أهاجم من كل ناحية بموجات متتالية من عشرات الطائرات وبحملات من مئات المدرعات ، دون أن أستطيع الرد الا بضربات صغيرة سريعة وفعالة كنت أوجهها الى قواعد الخصوم الخلفية • كان ميزان القوى واحدا ضد ثلاثة ، وحتى ضد أربعة ! كان لا بد من مناوشتهم بلا انقطاع •

في الثاني والعشرين من الشهر ، استردت نفوسنا الامل والرجاء • فقد استقرت الجبهات وتوازنت • وفي اليوم التالي تراجع المهاجمون • لقد كانت الهزيمة • وفي مساء الثالث والعشرين من الشهر ، كانوا قد غادروا ترابنا الوطني ، تاركين وراءهم أكثر من ستين دبابة وعشرات من الشاحنات ، ومئات من الاسلحة • ولكنهم تركوا بعض القتلى أيضا • ربّاه لماذا كل هذا ؟

وفي مساء الثالث والعشرين نفسه ، جاءت بعثة أخرى تحمل النوايا الطيبة ، وكان على رأسها الرئيس جعفر نميري رئيس جمهورية السودان • لقد أتاح لنا النصر الذي أحرزناه امكانية ترجيح وتغليب وجهات نظرنا التي تقضي بما يلي :

١) وجوب اخلاء الفدائيين وقوات الجيش للمناطق المدنية •

٢) وجوب حصر نشاطات الفدائيين في مناطق الحدود مع اسرائيل •

٣) منظمة التحرير الفلسطينية هي وحدها التي يعترف بها كممثلة شرعية للمنظمات الفلسطينية •

٤) على الفدائيين أن يحترموا قوانين الاردن وسيادته •

رفض ياسر عرفات هذا الاتفاق • وبعد رحلة خاطفة الى القاهرة ، عاد النميري الى عمان لمقابلة الزعيم الفلسطيني • جرت المقابلة في مساء الرابع والعشرين من الشهر • وقبل ياسر عرفات في النهاية النقاط الاربع من الاتفاق • وأصدر أمره الى قواته بايقاف اطلاق النار • وفي ليلة الرابع والعشرين الى الخامس والعشرين ، أذاع هذه الرسالة من محطة اذاعة دمشق : « أيها الشعب العزيز العظيم الشجاع الثوري • من أجل تفادي المزيد من سفك الدماء ، ولكي يتسنى لنا مداواة جراحنا ، واستئناف الحياة الطبيعية ، أعلن لكم ، بوصفي القائد الاعلى لقوات الثورة الفلسطينية ، بأنني ، استجابة الطلب الذي أعربت عنه بعثة رؤساء الدول العربية ، قد وافقت على شروط وقف اطلاق النار • وانني أطلب الى الاخوة أن يفعلوا مثل ما فعلت ، اذا ما قام الجانب الاخر بعمل الشيء نفسه • » •

عاد النميري الى القاهرة وبرفقته ياسر عرفات الذي استقبل فيها كرئيس دولة • لقد تحدثوا هناك عن « مذبحة » ، وعن « عشرين ألف قتيل بين الفلسطينيين » وعن مشاهد من التقتيل • وقصارى القول : لقد أدين الاردن • جمد الدم في عروقي • فاذا كان عبد الناصر قد سمع رواية عن الحوادث ، فلسوف أسمعه الرواية الاخرى ، روايتي أنا • في صباح الاحد السابع والعشرين من الشهر ، وصلت القاهرة استقبلني عبد الناصر ، وأوصلني الى

فندق هيلتون ، حيث اجتمعت في الساعة الثانية والدقيقة الثلاثين
مع فيصل ملك العربية السعودية والشيخ صباح السالم الصباح
أمير دولة الكويت ، ومعمر القذافي رئيس جمهورية ليبيا وجعفر
النميري رئيس جمهورية السودان ، وسليمان فرنجيه رئيس
جمهورية لبنان ، والشامي ممثلا لليمن والباهي الادغم ممثلا
لتونس بالاضافة الى عبد الناصر وعرفات ٠ وهنالك حادث
تفصيلي طريف : كنت أنا وياسر عرفات نحمل سلاحا ! ٠ وبايجاز
أدخلت أمام نوع من المحكمة ٠ استغرقت المحادثات ست ساعات
ونصف الساعة ٠ كان الاتفاق الذي ووفق عليه قبل بضعة أيام قد
تعدل ان لم نقل قد استهتر به ٠ لم يعد الموضوع يتعلق بأبعاد
الفدائيين خارج المدن بل : « بأحلالهم في مواقع مناسبة من أجل
المعركة مع اسرائيل ٠ » ٠ لم تتكلم أية من النقاط الاربع عشرة
للاتفاق الجديد ، عن « احترام قوانين الاردن وسيادته » ٠ وبناء
على الطلب الصريح الذي أعرب عنه الملك فيصل ، اضطررت الى
مصافحة ياسر عرفات ٠!

كل طرف كان يدعي النصر لنفسه ٠ جيشي المنتصر في
الميدان ، والفدائيون المنتصرون على الورق ٠ ولكن من الذي كان
رابحا ؟ ومن الذي مني بالخسارة ؟ ٠ نعم لقد سقط مئات القتلى ٠
ألف وثلاثمائة حسب أقوال المشير حابس المجالي ، وليس عشرون
الفا ٠ كان الفلسطينيون يتواجدون في المعسكرين ٠ وكان الاردنيون
متواجدين أيضا في المعسكرين ٠ وكانوا يتبادلون اطلاق النار على
أنفسهم ٠ نعم فرّ بعض الجنود من الطرفين ، حتى لقد اكتشفت
ان سائق سيارتي كان فدائيا وأن أحد الطهاة عندي قد حاول مرات
عديدة أن يسمم ما أتناوله من طعام ٠ وعندما جرى اعتقاله كان
يحمل قنبلة في جيبه ! ٠

ما أشد الحزن الذي كان يعتريني عندما أستعيد ذكرى كل هذا،
وما أشد الكآبة التي كانت تستبد بي ! كان لا بد من اعادة تنظيم
الامور في بيتي الاردني ، واعادة الثقة الى الشعب والجنود ٠ طوال
هذه الاحداث الفاجعة ، وخلال هذه الاسابيع المؤلمة الشاقة على

النفس ٠ نسيت حتى أن رئيس وزرائي قد استقال ، فاستبدلته
بأحمد طوقان ٠! لقد أهملت اتصالاتي مع شعبي ، التي كنت في
مسيس الحاجة اليها ٠

قمت بجولات عادت عليّ بالكثير من الراحة النفسية ، اذ كانت
بالنسبة اليّ مدعاة لتقوية المعنويات عجيبة ٠ في القواعد
العسكرية ، استقبلت بالهتاف : «يا حسين ، يا حسين»٠ بالطبع لم
تنتظم الامور في يوم وليلة ٠ وقعت أيضا بعض الاشتباكات هنا
وهناك ٠ وجرى بعض الاحتكاك ٠ ولكن الجيش كان يعيد النظام
بسرعة في كل مرة ٠ ووردتني أسلحة جديدة من واشنطن ولندن ٠

ثم جلجل الرعد في العالم العربي ، ووقعت المصيبة الفجائية :
باعلان الوفاة المباغتة للرئيس عبد الناصر ٠ وهكذا مات « الخصم
الودود » ! ٠ ماذا كنت أستطيع أن أستشعر غير الكثير من الالم
والحزن أيضا ، على الرغم من الهموم والمتاعب التي تسبب لي
بها طوال سنين عديدة ؟

لم يبق أحمد طوقان طويلا في ادارة الاعمال، فقد أبدلته بوصفي
التل ، أقرب المستشارين اليّ ، وعينت في نفس المناسبة
مستشاري الاخر ، رئيس الوزراء الحالي ، زيد الرفاعي ، سفيرا
في لندن ٠

خلال الاشهر التسعة التي تلت ، قضي بالتدريج على كل مقاومة
وغادر الفدائيون أراضينا ٠ وهذا تم على فترتين : من تشرين
الثاني (نوفمبر) ١٩٧٠ حتى نيسان (ابريل) ١٩٧١ ، حملهم
الجيش على الخروج من المدن الكبرى : عمان ، اربد ، عجلون ،
جرش ، ثم في الفترة الاخرى ، من أيار (مايو) حتى تموز
(يوليو) ١٩٧١ أخذ الفدائيون الذين تجمعوا في الغابات والقرى
والارياف ، أسرى ، وتمكن اخرون من الفرار الى لبنان وسورية ،
وبعضهم الآخر اتجه نحو الاراضي المحتلة ٠! وقد أطلق سراح جميع

الاسرى وزعمائهم فيما بعد ٠ وفي آب (اغسطس) من عام ١٩٧١ انتهى كل نشاط عسكري لهم ٠ ومنذ ذلك الحين ، غدوت ولي الامر في بلدي ٠ كنت أعرف أن الخصم كان يتصف بالعناد والتصميم ، وأنه كان ساهرا على الحدود ، فطلبت من رئيس وزرائي أن لا يذهب الى القاهرة في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧١! فلم يلتفت الى ذلك ، وقتله في ردهة الفندق الذي كان ينزل فيه ، فلسطينيون كانوا يدعون انتسابهم الى منظمة مقاومة لم نسمع باسمها سوى للمرة الاولى وهي منظمة أيلول الاسود ٠ وفي الفترة ذاتها نجا زيد الرفاعي من رصاصات قاتلة في وسط لندن بالذات !٠

كان موقفي الحازم ازاء الفدائيين ، محل انتقاد شديد من جانب مؤتمر عربي عقد في طرابلس لم يشترك فيه عملياً سوى قليل من الدول هي : ليبيا ومصر وسورية واليمن وياسر عرفات ٠ كانت حربا شريفة نزيهة وكان لا بد من كبش فداء لمشاكل الفدائيين ٠ ولكني لم أتمالك نفسي من الابتسام عندما بلغني في الوقت نفسه أن السوريين قد صادروا أسلحة الفدائيين التي وردتهم من اوروبا عن طريق ميناء اللاذقية ! وهكذا فعل آخرون ما كنت فعلته أنا نفسي ٠ ماذا كانوا يستطيعون غير ذلك ؟ وماذا كانوا هم فاعلون لو كانوا في مكاني ؟

ان من يعمل ملكا في الشرق لا يمارس في الحقيقة مهنة مريحة قطعاً ٠

لقد أوقفت حرب عام ١٩٦٧ بلا هوادة ، جهودكم المبذولة لتحقيق النهوض الاقتصادي ، ما هو الوضع الاقتصادي للاردن اليوم ، بعد كل هذه الهزات التي طرأت في السنين الاخيرة ؟

انه في تحسن مستمر ، وأستطيع أن أقول انه في تحسن يبعث على الدهشة ٠ ففي وقت قصير ، انطلق انتاجنا انطلاقة عظيمة ، فاشتدت كثافة طاقة التنمية عندنا في خمسة قطاعات رئيسية : مصادر ثرواتنا المعدنية والمائية ، وصناعتنا الخفيفة ووسائل المواصلات الداخلية ، والسياحة ٠

ليس من يجهل الاحداث المؤلمة التي أصابت حياتنا القومية بالاضطراب في عام ١٩٦٧ ، وعواقبها الوخيمة التي ما زالت عالقة بنا حتى يومنا هذا ، ولا أقل من أن نذكر منها الموجة العارمة التي كانت تتضخم باستمرار ، من النازحين الفلسطينيين الذين استقبلناهم في أراضينا والذين بقيت أغلبيتهم غير منتجة ٠

ان الاردن يبدو لي اليوم متمتعا بأكمل صحة لا سيما بعد المباشرة في تنفيذ مشروع السنوات الثلاث الذي يغطي الفترة الواقعة بين عامي ١٩٧٣ و ١٩٧٥ والذي ترمي أهدافه الرئيسية التي سوف تتحقق في نهاية هذه السنة (١) الى ما يلي :

١ - احداث سبعين ألف عمل جديد ٠
٢ - زيادة الدخل القومي الاجمالي بنسبة ثمانية بالمائة ٠
٣ - النهوض بالنشاطات الاقتصادية والاجتماعية عبر تنمية فعاليات البلديات والمجالس المحلية والمناطق الريفية خاصة فيما يتعلق بالماء والكهرباء والمواصلات ٠

(١) عام ١٩٧٥ ٠

٤ ـ زيادة مصادر الثروة الداخلية للبلاد حوالي أربعين بالمائة٠

٥ ـ تحسين ميزان المدفوعات وتخفيض مقدار عجز الميزان التجاري (وهو عجز أوصلناه من (٥ر١١) بالمائة بالنسبة للفترة الواقعة بين ١٩٦٧ و ١٩٧٠ الى (٣ر٦) بالمائة ، فكان علينا اذن خلال هذه الفترة أن نزيد من صادراتنا بمقدار (٥ر٥٦) بالمائة وأن نزيد من دخلنا السياحي (١٥٠) بالمائة ٠

لقد قدرنا ، عندما أعددنا هذا المشروع في نهاية عام ١٩٧١ أن التوظيفات الثابتة ، ينبغي أن تبلغ خلال هذه السنوات الثلاث ، (١٧٩) مليون دينار أردني (حوالي ٧ر٢ مليار فرنك فرنسي) ، منها (٥ر٩٩) مليون دينار ، ترد من القطاع العام ، و (٥ر٧٩) مليون دينار ، ترد من القطاع الخاص ٠

وما من شك في أنه في السنوات المقبلة ، وأقول في السنوات العشر القادمة سوف نبقى في حاجة لمعونة رؤوس الاموال الاجنبية ، (١) لا سيما التي ترد من الشعوب الشقيقة : ان أكثر خبرائنا تفاؤلا يعتقدون بأن استمرار هذه المعونة ينبغي أن لا يتجاوز ستة الى ثمانية أعوام ، أما أنا فأرى بأن عام ١٩٨٥ سوف يشير الى منعطف في تاريخنا ٠ ولكن من البديهي أن هذا الموعد سوف لن يتعلق تحقيقه بنا وحدنا بل سوف يكون ، بصورة أساسية تقريبا رهينا بالظروف الدولية :

كمقدار عدد اللاجئين الفلسطينيين الذين سوف يمكثون عندنا ليصبحوا مواطنين أردنيين متساوين في الحقوق والواجبات ٠ ومقدار عدد الذين سوف يعودون الى الضفة الغربية بعد أن يكونوا قد اختاروا الجنسية الفلسطينية ٠ والزمن الذي سوف يستغرقه

(١) بديء في عام ١٩٧٦ بتنفيذ خطة التنمية الخمسية ١٩٧٦ ـ ١٩٨٠ التي تهدف الى مواصلة المسيرة الانمائية في المملكة ٠

دوام الوضع الراهن الذي ما زلنا نتحمل نتائجه وحدنا ٠ والوقت الذي ستعاد فيه الاراضي المحتلة نهائيا الى الامة العربية ٠

فالى جانب العبء الهائل من المساعدة التي نقدمها الى اللاجئين والنازحين ، قد أضيف تلاشي صناعتنا السياحية التي انخفضت مواردها من (٣ر١١) مليون دينار ، أي (١٧٠) مليون فرنك عام ١٩٦٦ الى (١ر٣) مليون دينار ، أي (٤٥) مليون فرنك عام ١٩٧٢ ٠ وقد وازى ذلك أيضا انخفاض نسبة الزيادة في اجمالي الانتاج القومي من (٥ر١١) بالمائة خلال الفترة الواقعة بين ١٩٥٦ و ١٩٦٦ حتى بلغت أربعة بالمائة أثناء الفترة الواقعة بين ١٩٦٧ و ١٩٧٢ ٠

ولولا جميع هذه الهزات التي أصابت حياتنا القومية لكنا قد استغنينا عن المساعدة الخارجية منذ عام ١٩٧٠ ٠ فقد كان مشروع السنوات السبع الذي بدأنا في تنفيذه عام ١٩٦٤ والنتائج المشجعة التي أسفر عنها طوال الفترة الواقعة بين عام ١٩٦٤ وعام ١٩٦٧ ، قد ملأ نفوسنا اغتباطا ، وأتاحا لنا أن نعتبر عام ١٩٧٠ عام الانطلاق الاقتصادي ٠

لقد بقيت ذيول حرب حزيران عام ١٩٦٧ ظاهرة للعيان عندنا الى ما بعد مرور خمس سنوات على نشوبها ٠ ولكن منذ عام ١٩٧٣ بذل جهد لم يسبق له مثيل في بلادنا ٠ فاذا ما وقى الله الاردن من أي اعتداء في هذه السنوات المقبلة ، واذا ما استمر الجهد المبذول اليوم على ما هو عليه طوال عشر سنوات ، فان ما كان يمكن انجازه في عام ١٩٧٠ حسب تقديرات خبراء الاحصاء عندنا ، سوف يتم تحقيقه حتما في عام ١٩٨٥ ٠

ان الاردن يملك كل مقومات الازدهار ٠ فهو غني بالفوسفات فانتاجه من هذه المادة سوف يبلغ (٤ر٢) مليون طن في نهاية عام ١٩٧٥ ٠ وقد قدر له انتاج خمسة ملايين طن في عام ١٩٧٦ ، وسبعة

ملايين طن في حوالي عـام ١٩٨٠ ، وهذا ما سيتيح لنـا دفع قيمـة ثمانين بالمائة مـن مستورداتنا ، وهو غنـي أيضا بالبوتـاس ، وسينتـج المخصبات الكيميائيـة وكذلـك النحـاس والمغنيزيـوم بكميات هامة ٠ ومن الممكـن أن يكتشف البتـرول قريبا جدا فـي المناطق الصحراوية في جنوب البلاد ،، واحتمالات ذلك خمسون الى خمسيـن ٠

وهنالك عنصر أساسي في اقتصادنا لا يجوز أن نغفل اعتباره : وهو أن الشعب الاردني هو بلا ريب من أكثر شعوب المنطقة حبـا للعمل واقبالا ومثابرة عليـه ٠ انه متعطش للمعرفـة ، تواق الـى الاطلاع ، راغـب في أن يتعلـم وأن يعلّم بعدئـذ اولئـك الذيـن لا يعلمون ٠ ان شعبنا بالغ النشاط صابر مثابر لا تزعزعـه الشدائد وليس من بـلاد في الشرق الاوسط لم يشارك أردنـي في تنميتهـا وتطويرها ٠ فمهندسونـا وأطباؤنـا وخبراؤنـا موجودون في سائر أقطار الامة العربية ، من المغرب الى أقاصي شبه الجزيرة العربية ، يفيدون شعوبنا الشقيقة بعلمهم وخبرتهم ٠

لهذا فانني أقول ، وها هي الارقام شاهدة على ذلك ، بأنني جد متفائل بمستقبلنا ٠ وليس من سبب يدعـو لان لا نصبح في بضع سنين مثلا يحتذى للبلاد التي تحيط بنا ٠

ولكن هنالك أيضا التربيـة والتعليم والصحـة العامـة والعمـل والاصلاحات الاجتماعية ٠ ماذا فعلتم منذ عشرين سنة لمكافحة آفة القرن العشرين التي تدعى الامية ؟

ان قناعتنا بأن الجهل هو عـدو للعرب ، حملتنا علـى التصميم على سرعة تنمية وتطوير نظـام التربيـة والتعليـم عندنـا ٠ ان هدفنا الفوري هو اعداد الشباب وتأهيلهم في ميدان الخبرات الفنية والاساليب التقنية ٠ واننـا ندرك أهميـة العمل مـن أجـل تنمية وتطوير دولة ديموقراطية حقيقية ورفع مستوى المعيشة المضطرد والمنتظم لسائر العمال ٠ لقد كنت دومـا أعلق أهميـة كبرى على تثقيف الاردنيين وعلى مكافحة الجهل ،،

وانني أعتقـد بأن ايـراد بعض الارقام ستمكنك أكثر مـن أي شرح أو تفسير ، من أن تحكم علـى جهودنا وعلى ما أحرزناه من تقدم ٠ ففي الوقت الذي ازداد عدد سكاننا بمعدل (٣ر٣) بالمائة خلال العشرين عاما الماضية ، فان عدد طلابنا قد ارتفع من (١٤٠) ألفا في عام ١٩٥١ الى (٤٢٥) ألفا في عام ١٩٧٣ ، أي بزيادة بلغت ثلاثة أضعاف ٠ كما ازداد أيضا عدد الاساتذة زيادة محسوسة جدا اذ انتقل عددهم من ألفين في مطلـع الخمسينيات ، الى أكثر مـن خمسة عشر ألفا اليوم ، وقد لازم ذلـك أن قفزت ميزانية التربية والتعليم من (٣٠٨) آلاف دينار الى سبعة ملايين ونصف المليون دينار في العالم الماضي (١) ٠

ولا حاجة الى القول بأن التعليم العـام مجاني تمامـا في الاردن بالنسبة للصفوف الاولى ، أي أنه يشمل تقريبا جميـع من في سن التلمذة من الصبية الذين تتراوح أعمارهم بين السادسة والخامسة عشرة ٠ وفي نهاية هذه السنوات التسع التي أسميها « أولية » ، يتوجب على التلاميذ أن يتقدموا الـى فحص يتيح لهـم في حالـة

(١) عـام ١٩٧٤ ٠

النجاح متابعة دراستهم ٠ فمن أسعدهم حظ احراز شهادة بالنجاح
في هذا الفحص ، تسمـى « شهادة الاعـدادية العامة » ، (١)
يستطيعون الاستمرار في دراستهم عن طريق مرحلة ثانوية مدتها
ثلاث سنوات ٠ وفي ختام هذه السنوات الثلاث ، يفتح لهم الفحص
النهائي ، امكانية دخول الجامعة سواء في عمان أو في الخارج ٠

وفي يومنا هذا يتلقى التعليم حوالـي (٩٥) بالمائة مـن جميـع
الطلاب الاردنيين الذين تتراوح أعمارهم بيـن السادسة والثانيـة
عشرة ، ويدخل الجامعة خمسة وعشرون من أصـل كل مائـة طفـل
يدخلون مدارس الحضانة ٠ وهذا أمر يستحق الالتفات والاعتبار ٠

كانت الامية في نهاية الحرب ، أمرا مألوفا ، في بلادنا القديمـة
العهد ، الشديـدة التمسك بتقاليدهـا ٠ وكانـت نصيـب معظـم
المواطنين الذين كانت أكثريتهم من سـكان الباديـة والاريـاف ٠
وبمقتضى احصائيات عـام ١٩٧٢ ، كـان أربعـون بالمائـة مـن
السكان الذين تزيد أعمارهم عن الخامسة عشرة ، ما زالوا أميين
ولا بد لهذا الرقم الذي كـان أكثر ارتفاعا فيما مضى والذي جعـل
يهبط بانتظام منذ عـام ١٩٥٢ ، لا بد لـه من أن ينخفض بنفس
النسق خلال السنوات العشر القادمة ٠ وقد بوشر بمكافحـة فعالة
للجهل منذ عشرة أعوام تقتصر على الضفة الشرقية لنهـر الاردن
فقط ٠ ويوجد الآن أكثر من مائتين من مراكز التعليم الاستدراكية
تتيـح للرجـال والنساء تعلـم القراءة والكتابـة بمقتضى برامـج
تدريسية تستغرق سنتين ٠

وأخيرا فـان لدينـا أيضا صفوتنا المختارة مـن الشباب الذيـن
سيمثلون أردن الغد ٠ والذين يتلقون العلم في جامعتنا في عمان (٢)

(١) توقف العمل بهذا الترتيب اعتبـارا من السنـة الدراسية ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦ ، وأصبح الباب مفتوحا أمـام سائر الطلاب لاكمال المرحلة الثانويـة ٠

(٢) أنشئت جامعة اليرموك فيما بعد ٠

أو يتابعون علومهم في الجامعات الاجنبية الكبرى في بيروت وغيرها
من الحواضر العربية الكبرى أو في الغرب ٠ ويؤخذ من أحدث الارقام
المتوفرة ، أنه يجب أن يحصى أكثر قليلا مـن (٤٢٧١٨) طالبـا
يدرسـون في الجامعات منهم ما يزيـد علـى الثلث مـن الفتيات ٠
وهنالك ما يقرب من (٣٥٠٠) طالب يتابعون الدروس في المعاهد
العليا الاخـرى ، ولا سيمـا في معاهـد دور المعلميـن ، ليتخرجـوا
أساتـذة ٠

وانني أود أن أسمـح لنفسي بعـودة صغيرة الـى الوراء ، الـى
السنوات الخمسين الاخيرة : فقد ورثت دولـة شرقي الاردن منـذ
تأسيسها في عام ١٩٢١ ، نظاما تعليميا تأصلت جذوره عندنا وفي
سائر منطقة الهلال الخصيب من قبل الغزاة الاتراك ٠ كان تعليمنا
معتمدا علـى بعض المدارس الابتدائية لا تتجاوز فتـرة التدريس
فيها السنوات الثلاث ٠ وكان لدينا أربعة مدارس ابتدائية في اربد
والسلط والكرك ومعان ، كان يمتد تدريسها لفترة ست سنوات ٠
وكان ثمـة أيضا بعض المدارس الدينيـة الاسلاميـة والمسيحيـة
مبعثرة في كل مكـان تقريبا في مجمـوع أراضي الامارة ٠ ومنـذ أن
أقمنا مؤسساتنا الخاصة بعـد مضي سنة علـى تأسيس الدولة ،
زدنا معاهدنـا فبلغت أربعة وأربعيـن ، كان يدرس فيهـا واحـد
وسبعـون أستاذا فقـط ٠ وفي عـام ١٩٢٣ وضـع الحجـر الاساسي
« لمدرستنا السلطانية » أي المدرسة الثانوية ، باحتفال كبير في
السلط ٠ وبعد مرور سنة على ذلك ، عقد أول مؤتمر للمدرسين في
شرقي الاردن في البناء الجديد، ثم تتابع انشاء المدارس بمدرسين
وطلاب آخرين ٠ وفي نهاية السنة الدراسية لعام ١٩٣١ ، أي بعـد
مضي عشرة أعوام على استقلالنا ، كان لدينا ما يقرب من (٥٢٥٠)
تلميذا ، موزعيـن علـى أربعة وخمسيـن مدرسة حكوميـة يتولى
التدريس فيها (١٢٢) أستاذا ٠ وكانت ميزانية التربية الوطنية
تمثل (٦ر٣) بالمائة من ميزانيتنا العامة ٠

في خريف عام ١٩٤٠ أنشأنا أول وزارة للتربية والتعليم عندنا ،

وأقمنا البنيان الاساسي لتعليم جدي متين الاركان • وكان يتألف بشكل خاص من مرحلة أولى ابتدائية مدتها سبع سنوات • ومن مرحلة ثانوية تستغرق أربع سنوات ، دون أن نغفل امكانية أن يتابع الطالب لمدة سنتين ما نسميه (بالمرحلة الفنية) التي تعد الطلاب بصورة خاصة للاعمال التجارية والزراعية •

فيما يتعلق بفلسطين ، بحصر المعنى ، فان تاريخ التعليم فيها مختلف تماما عنه في الضفة الشرقية لنهر الاردن ، بالنسبة للفترة الواقعة بين عامي ١٩١٩ و ١٩٥٠ • ولم يكن يوجد في عام ١٩١٤ سوى مدرسة واحدة في القدس تقدم تعليما ثانويا كاملا، ومعهدين آخرين في كل من عكا ونابلس يقدمان تعليما ثانويا محدودا ، أستطيع أن أضيف اليها حوالي خمسمائة مدرسة ابتدائية ، جميعها خاصة ، تمول وتدار من قبل الجمعيات الاجنبية التابعة لحكومات ، أو للارساليات الدينية •• وبين نهاية السيطرة العثمانية وانقضاء أجل الانتداب البريطاني ، عملت الحكومة الانكليزية أشياء كثيرة • فقد أنشأت (١٥٠) مدرسة ابتدائية وعشرين مدرسة متوسطة • وأربع مدارس ثانوية تؤهل لدخول الجامعات •

ومنذ توحيد الضفتين في عام ١٩٥٠ ، وضعت المؤسسات التعليمية القائمة على ضفتي نهر الاردن تحت الرقابة المباشرة لوزارة التربية والتعليم في عمان التي تولت تقسيم البلاد الى ست مناطق تعليمية هي : نابلس والقدس والخليل في الضفة الغربية ، وعجلون والبلقاء والكرك في الضفة الشرقية • كانت المملكة الاردنية الهاشمية قبل خمس وعشرين سنة تضم حوالي سبعمائة مدرسة وثلاثة آلاف مدرس و (١٢٣) ألف تلميذ • ولولا انفصال الضفة الغربية ، لكان لدينا اليوم مجموعة قياسية من (٢٦٥٠) مدرسة وعشرين ألف أستاذ ، و (٦٥٠) ألف طالب • الا أن الاحداث قضت بأن تسير الامور على نحو آخر • ولكن ، كما تستطيع أن تتحقق

منه ، لقد بذل جهد لم يسبق له مثيل في مجال التربية والثقافة خلال السنوات العشرين الاخيرة •

الى جانب التعليم العام ومكافحة الامية ، فقد طلبت الى حكومتي ان تبذل على توالي السنين ، جهودا ضخمة فيما يختص بالصحة العامة والضمان الاجتماعي ، وتأمين المساكن لافراد شعبي ، لقطع الطريق نهائيا على الجهل والاهمال أن يتسببا في وقوع ضحايا لهما • لقد عانينا أشد المعاناة طوال سنوات • فقد رأينا عددا متزايدا بلا انقطاع من اللاجئين ومن الذين لا مأوى لهم • واذا كان قد تم انجاز الكثير في هذا المجال ، فما زال المزيد من العمل يتطلب التحقيق •

ولقد كنت دوما أعلّق أهمية كبرى على صحة ورفاه الاردنيين • وهنا أيضا ، وضمن حدود الامكان ، كنت تواقا الى أن ينفق مواطني القليل من المال على العناية بصحتهم ، اذا لم يتسن لهم عدم الانفاق اطلاقا • ففي يومنا هذا غدت العناية الطبية مجانية ، سواء فيما يختص بالصحة العامة ، أو بالنسبة للطب الوقائي • كما تدفع أجور زهيدة مقابل المعالجة الطبية أو استقبال المرضى في المستشفيات • وان الملكة علياء ، زوجتي الثالثة ، لهي أكثر مني اختصاصا في التحدث اليك عن المساعدات التي نقدمها للنساء الحوامل وللامهات الشابات والاطفال ، وكذلك الطاعنين في السن والمعدمين • ولكن لا حاجة الى القول بأن معظم ميزانيتنا تذهب الى اللاجئين الذين أدى ازدياد عددهم بلا انقطاع ، منذ عشرين سنة ، الى مضاعفة قلقنا • فهم أيضا ، بحكم أنهم يعيشون أحيانا في ظل أوضاع حياتية انعدم فيها الاستقرار والثقة بالمستقبل ، في حاجة الى العيش الرغيد والى تعهد صحتهم والعناية بهم ومواساتهم •

فاذا أخذنا أحدث الارقام واذا اقتصرنا في الكلام على الضفة الشرقية لنهر الاردن فقط ، فان لدينا الآن في المملكة الاردنية

الهاشمية أكثر قليلا من (٧٠٠) طبيب ، (٤٥٠) منهم يعملون في القطاع الخاص ، وحوالي (١٤٠) طبيب أسنان ، لاربعة أخماسهم زبائن خصوصيون ، وأكثر من (٢٠٠) صيدلي و (٣٥٠) ممرضة محترفة • قد يبدو هذا قليلا في نظر من يفكر بالعقلية الغربية ، ولكن عندنا ، تعتبر هذه الارقام مشجعة للغاية •

ان اسداء العون للامهات الشابات والعناية التي تسبق الامومة والتوليد والمراقبة الطبية بعد ولادة الاطفال ، جميعها مجانية تتحمل الدولة نفقاتها سواء عن طريق وزارة الصحة أو وزارة الشئون الاجتماعية والعمل • أما الضمان الاجتماعي ، فحديث العهد عندنا ، ويستفيد منه جميع الموظفين في البلاد مقابل دفع واحد بالمائة من مرتباتهم الشهرية • وهكذا فان الامراض والولادات والوفيات تتحمل الدولة تكاليفها ، كما يجري دفع مرتبات تقاعدية عند الاحالة على التقاعد ، سواء عند بلوغ الستين أو بعد خدمة تدوم ثلاثين سنة • وموجز القول ، فان نظامنا قد اقتدى بالانظمة المعمول بها منذ عشرات السنين ، لدى بعض الامم في العالم الغربي • فلنا اذن قوانيننا الاجتماعية وضماناتنا وصناديق الادخار الخاصة بنا ككل بلد عصري ، أو بلد يسير في طريق التنمية •

ولقد بذل مجهود خاص من أجل الاسكان • ولدينا في الوقت الحاضر ، أربعمائة ألف مسكن ، منها ما يزيد على الربع في العاصمة عمان • لقد وظف لغايات الاسكان أربعة ملايين دينار في عام ١٩٦٧ وعشرة ملايين دينار في عام ١٩٧٢ • وان تقديرنا الحالي هو زيادة سنوية تبلغ عشرين ألف مسكن • ومنذ عشر سنين ، تشرف مؤسسة الاسكان على هذا القطاع بمنتهى الكفاءة والفعالية سواء فيما يتعلق بالبيوت الخاصة أو الشقق أو المساكن التعاونية (١) •

فالتربية والتعليم والصحة العامة والاسكان ، هي دوائر

(١) لقد تجاوزت البلاد هذه الارقام بمراحل في وقتنا الحاضر •

رئيسية ثلاث أعلّق عليها أهمية كبرى •

ومع أن بلادنا دولة حديثة العهد ، الا أن الاصلاحات الادارية تجري فيها باستمرار • وسنواصل الاخذ بهذه الاصلاحات ، لانها جزء لا يتجزأ من جهودنا الرامية الى اقامة حكومة تتصف بالفعالية والديموقراطية الحقة • كما أننا نكافح الفساد الذي لا مكان له في دولة شيدت دعائمها على تعاليم الاسلام والايمان بالله •

فلنعد الى السياسة ، أليس لديكم انطباع بأن قمة الرباط المعقودة في تشرين الاول (أكتوبر) من عام ١٩٧٤ التي حرمتكم من الضفة الغربية لنهر الاردن قد كانت بالنسبة اليكم ، الى حد ما ، طعنة خنجر في الظهر وضعتكم أمام أمر واقع ؟

ان التاريخ هو الذي سوف يحكم على ذلك ٠ اذ لاينكر أن موقفنا قد تغير منذ الخريف الماضي بصورة مأساوية مثيرة ٠ هل حالفهم الصواب في أن ينكروا علي" حق التحدث باسم الشعب الفلسطيني؟ سوف يتولى التاريخ اصدار حكمه في هذا الشأن ٠ لقد عمل الهاشميون دوما باخلاص لصالح الشعب الفلسطيني وحقوقه القومية المشروعة لقد طلبوا الي" أن أقلب الصفحة ،، وها أنذا قد قلبتها ٠ ولا فائدة ترجى من التشبث بماض فات وانتهى ٠ ومهما كانت عواطفي الشخصية في هذه القضية المؤلمة ، فان هدفي الوحيد منذ ذلك الحين هو أن أساعد اخواني الفلسطينيين على استرجاع وطنهم المفقود بطريقة أو بأخرى ٠ لقد طلب ذلك مني تسعة عشر رئيس دولة عربية ٠ فقبلته بصورة عفوية تلقائية ، بلا مناقشة ٠ واني لارجو من كل قلبي أن تظهر منظمة التحرير الفلسطينية ، فيما تأتيه من أعمال في مستوى المهمة التي أوكلت اليها ٠ ولسوف أمد لها يد المساعدة ما استطعت الى ذلك سبيلا ٠

لقد قيل وكتب الكثير عن أن اسرائيل ترفض اطلاقا التعامل مع منظمة التحرير أو أية منظمة مقاومة فلسطينية أخرى ، وانها لا تقبل على ما يبدو اجراء الحديث الا معي ، ولكنني لا أعتقد بأن في وسع اسرائيل أن تستلزم ذلك ٠ فهي لا تملك الخيار ، وعليها منذ الان ، أن تتوجه بالخطاب مباشرة الى منظمة التحرير ٠ ولسوف لن أكون وسيطا ، أو سفيرا في هذه التحركات المقبلة ٠ ان كل مشروع يحتمل أن تعرضه الدولة اليهودية على الاردن، سوف يحول فورا الى منظمة التحرير ٠ فمنذ مؤتمر القمة في الرباط ، لم

يعد الاردن معنيا مباشرة بهذا النزاع ٠ ان هذه الاراضي ينبغي أن تعاد الى أصحابها الحقيقيين الوحيدين ٠ وبالنسبة الى معظم أعضاء منظمة الامم المتحدة ، فان منظمة التحرير التي يتزعمها ياسر عرفات ، هي وحدها صاحبة الحق في أن تتولى حيازة الضفة الغربية ، أي أن تتصرف بالاراضي التي كانت لنا في غربي نهر الاردن ٠

ولا حاجة الى القول أيضا ، بأنه في حالة ما لو عمدت نفس الدول العربية التي أحرجتني في قمة الرباط المعقودة في تشرين الاول (اكتوبر) من عام ١٩٧٤ ، الى الطلب الي في أن « أمثل » الفلسطينيين في المحادثات أو الاتصالات فانني لن استطيع الرفض ولكن ذلك لن يكون الا بصورة مؤقتة ،،

انني رجل مسالم ٠ ولقد قلت ذلك دوما أو أفهمته لمن كنت أتحادث معهم ٠ فالسلم في منطقتنا ممكن في كل وقت ٠ كل شيء متوفر للعرب واليهود ليعيشوا سعداء في ظل سلام دائم ٠ ولكن لا بد من أن تعيد اسرائيل الاراضي التي استولت عليها في حزيران من عام ١٩٦٧ وهذا أمر الزامي ، لا غنى عنه ٠ أما القدس ، فيمكن أن تبقى موحدة وأن تصبح نقطة التلاقي للديانات المسيحية واليهودية والاسلامية ٠ على أن يعاد عندئذ القطاع الشرقي من المدينة المقدسة الى العبادة الاسلامية ، والى السيادة العربية ٠

ان من حق كل زعيم عربي ، وكل رئيس دولة ، ومن واجبه أيضا أن يتصرف كما يشاء ويفهم ، ليتقدم خطوة بأتجاه السلام ٠ فقضية مصر الخاصة ، لا تشبه قضية سورية ، كما أن قضية سورية لا تشبه قضية الاردن أو لبنان ٠ أن كل محاولة ، حتى لو تمت بصورة انفرادية ، يجب أن تحترم وتشجع ، ما دامت ايجابية

ان موقف (اللاسلم واللاحرب) قد طال عليه الزمن ٠ ولقد عانينا جميعا من نتائجه ، نحن ، وأولئك الذين يقفون في مواجهتنا

ولذلك فان جميع المخارج لهذا الوضع ستكون ممكنة الحدوث ، حتى الفاجع المحزن منها . أما الفلسطينيون فلهم مني الدعم والمساندة وانني أتعهد بالتقيد حرفيا بالمقررات التي أتخذت في مؤتمـــر الرباط ذات الطابع المأساوي أحيانا . لقد أصبح لمنظمة التحريـــر الفلسطينية مكتب في عمــان ، كما كان لجيش التحرير الفلسطيني دوما وحدات عسكرية مرابطة في أراضينا حتى في الشهور التـــي أعقبت أحداث أيلول المؤلمة في عام ١٩٧٠ ، اننــا نستقبـــل الفلسطينيين على الرحب والسعة عندنا ، ما داموا يراعون قوانين بلادنا ويقبلون ضيافتنا . انني أعرف ان تهديدات هنا وهنــاك ، قد أطلق بعض الزعماء الفلسطينيين ألسنتهم بها ضدي . بعضهم كان يريد اغتيالي ، وبعضهم الاخر كان يود اقامة (نظـــام ديموقراطي) في عمــان .

انني اعتقد بأن للعرب في وقتنا هذا اهتمامات أخــرى . وان لهم عدوا اخر أشد صلابة وأقسى عودا . ان علينا أن لا نبعثـــر قوانا في المنازعات الداخلية التي لا طائل تحتها والتي برهـــن التاريخ على أنها لم تنته دوما في صالحنا . وهــذا أقل مــا يقال . والى أن يثبت العكس ، فانني صاحب الشأن في بلـــدي ، وان الاردنيين ومن يرغب في أن يصبح أردنيا من الفلسطينييـــن ، يستطيعون أن يبنوا مستقبلهم بالتعاون معي ".

"ان أقل ما يمكن قوله هو أن السنوات الاربعين من عمركــم ، قد كانت جميعها ملآى بجلائل الاعمال . ولكن في هذه الحياة التــي تحيونها في خدمة شعبكم ، ألم يكن هنالك مكان للسعـــادة ؟ الحياة الخاصــة والعائلية ؟

انني أعتقد بأن من العسير جدا ادراك السعادة في هـــذه الدنيا ، سواء أكان المرء ملكا أو انسانا عاديا . ما هي السعـــادة بالنسبة الاغلبية العظمى من الناس ؟ ، انها الحصول على عمـــل مغر ممتع ، وعلى راتب جيد ، وأسرة لطيفة تستعذبها النفــس ، والقيام بالرحلات من وقت الى اخر ، وأن يكون للمـــــرء بعض الاصدقاء ، وأن يساعد الناس ، ويساعدوه . لقد نلت كل ذلك . وما زال كل ذلك في متناول يدي . ولكن هل يعني هذا انني حقـــا سعيــد ؟ لا أعتقد ذلك .

نعم لقد كانت حياتي خصبة مليئة ، كما قلت ، ولربما لـــم يعرف مثلها الا القليل من الناس . لقـــد عرفت السراء والضراء . ولعل الضراء رجحت على السراء . وعانيت لحظات في غاية الشدة . ومرت بي فترات في أقصى درجات الضيق ، وألمت بي أوقات كنـــت أشعر فيها بأنني في منتهى العزلة ، وعرفت الحداد والاحـــزان والنادر من الفرح ، والقليل من السعادة . لقد عرفت كل ما يمكـــن أن يعرفه كائن بشري : الجوع والعطش والاذلال والهزيمــــــة ، والنادر من اليسار والبحبوحة والقليل من السلام والراحة والابتهاج . ولقد كان شعبي معي في كل هذا . لانني متعلق بشعبي في الاردن تعلقا لا تنفصم عــراه ، وموثوق الصلة به الى أبعــد الحدود . فقد كانت آلامي هي آلامه ، وأحزاني هي أحزانه .

ولما كنت أعلم أن مواطني ، منذ الحرب العالمية الثانيـــة ، لم يتذوقوا الا القليل من السعادة ، فأنا أيضا مثلهم ، لــم أعرف

من السعادة الا أقلهـا ٠

لا شك أن أبسط الاشياء تدخل السعادة الى قلبي : كنجـاح أحد المواطنين ، وفوز احدى المبادرات التـي تقدم عليهـا بلادي ، واليد التي تبسطها الى أمة صديقة ، وابتسامات زوجتي وأولادي٠

لانني اذا لم أتحدث اليك عنهم الا قليلا ، فانهم مع ذلـك يحتلون في حياتي مكانا لا حد له ٠ انني كما تعلم قد تزوجت مرات ثلاث ٠ ولي الان ستة أبناء اثنان منهم من الذكور ٠ (١) وان مـا أفعله لشعبي ، أفعله أيضا لهم على السواء ٠ فهـم جميعا أردن الغد ٠ ان حياتي الخاصة والعائلية غير منتظمة فأعباء الدولـة تحول بيني وبين أن أكون لهذه الكائنات الانسانية العزيزة الغالية بالقدر الذي أرغب وأتوق اليه ٠ وطالما أضطر أن أخيب امالهم فـي الوقت الذي ينتظرونني فيه لتناول طعام الغداء معي ٠ فأحتبس نفسي مع زائر أجنبي ، أو سياسي أردني ٠ ثم في حوالي الساعـة الرابعة أو الخامسة من بعد الظهر ، أطلب احضار بعض الشطائر لآكلها وأنا منهمك في عملي ٠ أما في المساء ، فانني أغادر مائـدة العمل في الساعة الثامنة أو التاسعة ٠ ويكون أولادي عندها قـد استسلموا الى الرقاد ٠ وتبقى في انتظاري زوجتي الملكة عليـاء وحدها (٢) مع ابنتي الكبرى التي تتابع الان دراستها الجامعية في عمان ، ليمنحاني الحرارة التي أفتقدها والتي أشعر بأننـي في مسيس الحاجة اليها ٠ (٣)

(١) في الثالث والعشرين من شهر كانون الاول ١٩٧٥ ، منّ الله سبحانه وتعالـى على صاحب الجلالة الهاشمية الملك الحسين المعظم وصاحبة الجلالة شهيدة الواجب ، الملكة علياء المعظمة ، بأمير أسمياه « علـي » ٠

(٢) في مساء اليوم التاسع من شباط من عام ١٩٧٧ ، استشهدت جلالة الملكة علياء أثناء قيامها بالواجب الانساني ، في حادث طائرة هيليوكبتر كانـت تستقلها وهي في طريق عودتها الى عمان من زيارة تفقدية لمستشفى الطفيلة ، للاطـلاع على أحواله وتقويم أوضاعه تلبية لنداء استغاثة ورد من أحد المواطنين ٠

(٣) في الخامـس عشر من حزيران ١٩٧٨ تم عقد قران حضرة صاحب الجلالة الملك الحسين المعظم على حضرة صاحبة الجلالة الملكة نـور الحسين المعظمة ٠

صحيح انني أقضي بعض الاجازات في العقبة أو في الارياف ، ولكنها أقل مما يرغبون ويرتضون ٠ ثم انني لا أذهب كما يفعـل الملوك ورؤساء الدول ، لممارسة رياضات الشتاء ٠ وللمرة الاولـى منذ ثمانية عشر عاما ، لبيت دعوة شاه ايران في شباط الماضي (١) لقضاء بضع ساعات بالقرب منه في الثلوج السويسرية ٠ لقـد تزلجت قبل ثماني عشرة سنة لمدة يومين ٠ وفي هذه السنة أمضيت ثلاثة أيام في التزلـج ٠

انني لست في حاجة الى من يتلهف علي ٠ فقد نلت الحيـاة التي ابتغيها وأشتهيها ٠ وانني اعتقد بأنني أمارس مهنة شيّقة تستهوي نفسي ، ولكنها شاقة عسيرة ٠ وانني أجتهـد في أن أتعاطى مهنتي على أحسن وجه استطيعه ٠ ولقد وفرت لي بعض المسرات التي اذا ما بدت هزيلة في نظر الاخرين ، فقد عوضتنـي الكثير عما كان لا بد لي أن أكابده وأعانيه من ضيق وشدة وعذاب٠

(١) من عام ١٩٧٥ ٠

ملحـــــق

نص الخطاب الذي ألقاه جلالة الحسين في الامم المتحدة في ٣ تشرين الاول (أكتوبر) ١٩٦٠

ان لوجودي هنا اليوم أربعة أسباب . أولا : انني اعتبر نفسي معنيا الى أقصى الحدود بهذا الهجوم الشديد الموجه ضد منظمة الامم المتحدة . ثانيا . أود أن استوثق من أنه لا يتطرق أي خطأ محتمل الى نظرتكم الى المكان الذي يحتله الاردن في النزاع العقائدي الذي يهدد السلم العالمي . ثم كرئيس ادولة صغيرة، فانني أعتقد بأن من واجبي ازاء الامم الصغيرة الاخرى على هذه البسيطة ، ولا سيما الاعضاء الجدد منها في الامم المتحدة ، ان أطلعهم على تجربتنا الخاصة بالدفاع عن الحرية التي نحن جميعا في مسيس الحاجة اليها . وأخيرا أعتبر أن علي أن أقدم اليكم وجهة نظري حول ثلاث قضايا حيوية في الشرق الاوسط ، تؤثر على السلم العالمي . وهي : التوتر المتزايد بين الاردن والجمهورية العربية المتحدة ، واستقلال الجزائر ، والقضية الفلسطينية .

ولعل من فضول القول ، أن نؤكد مرة أخرى بأن الامم المتحدة تمثل الامل الوحيد في السلم والحرية للانسانية جمعاء . وهذا أمر من الاهمية بمكان عظيم بالنسبة لسائر الاقطار الصغيرة في العالم لقد حاول الاتحاد السوفياتي من جديد تدمير الامم المتحدة، وعرقلة مناقشاتها، وايقاف مقرراتها ، وبأساليب صاخبة، وخروج متكرر من قاعات الاجتماعات ، يثير الجلبة واللغط ، حاول اضعاف مكانة وسمعة مجلس الامن والجمعية العامة .

وان أحدث ايضاح لما أقوله ، هو تصرفاته في الدورة الحالية ، ومحاولاته الرامية الى اضعاف سلطات السكرتير العام واقتراحه نقل مقر المنظمة . انها جهود لا يكاد يخفيها ، لتقويض دعائم

الامم المتحدة نفسها .

لا يستطيع أحد تابع مناقشات الجمعية العامة في الاسبوعين الاخيرين هذين ، ان يتجاهل المعنى الحقيقي لمثل هذا الاجتماع . ان القضايا المعروضة علينا ليست جديدة ، ولكن بحكم كونها ما زالت بدون حل ، فانها تتخذ حجما من الضخامة بحيث يشكل استمرارها تهديدا ليس للسلم العالمي فحسب ، بل لحياتنا نفسها وانني لا أملك مشروعا له فعالية « المعجزات » لحل هذه القضايا . ان الاردن الذي لا يحتاز الاسلحة النووية والذي ليس في مقدوره الا أن يعاني أشد المعاناة من قيام حرب ذرية ، لا يسعه الا أن يتوسل الى الدول المعنية ، لاستئناف جهودها ولان تسعى ، مهما كانت العوائق التي تعترض طريقها ، الى ايجاد صيغة ، أو ربما بالاحرى ، الى ايجاد مخرج حقيقي لا ينقذها فحسب ، بل ينقذكم جميعا .

هنالك صعوبات أخرى . ولا بد أن يكون المرء أعمى في الحقيقة ، لكي لا يدرك أن على أمم العالم أن تمارس عملية اختيار بين جميع القضايا الحيوية تقريبا التي تواجهها هذه المنظمة . هذا الاختيار لا يشوبه أي غموض . فالامر يتعلق اما بأن نصبح جزءا من الامبراطورية السوفياتية وأن نخضع خضوعا تاما لما يفرضه علينا المجلس الاعلى للاتحاد السوفياتي ، أو بأن نبقى أمة حرة ليس لها من ولاء خارجي سوى للامم المتحدة نفسها . فنحن بين أمرين وعلى كل بلد أن يمارس اختياره .

هل لي أن أقول فورا بكل قوتي وقناعتي ، بأن الاردن قد مارس اختياره ؟ ان جوابنا يكمن في أعمالنا . واني هنا لأؤكد من جديد موقفنا أمام سائر أمم العالم . اننا نرفض الشيوعية . وان الشعب العربي لن ينحني أبدا أمام الشيوعية مهما تنكّرت به من مظاهر لتفرض نفسها علينا .

لن تعمّر الشيوعية أبدا في العالم العربي لان هذا اذا ما حدث .

فسوف تحل الشيوعية محل القومية العربية ٠ وعندئذ سوف يزول وجود الامة العربية ." انني أعتقد بأن القومية العربية شديدة التأصل في حب الله وحب الحرية ، وفكرة مساواة الجميع أمام الله، ولذلك لن يخلفها نظام ينكر هذه المبادىء ٠

واني أذهب الى أبعد من هذا ، فأعرب عن عقيدتي الراسخة بأن على سائر الامم التي تؤمن بالله أن تتحد لمجابهة هذا التحدي لوجودها نفسه ٠ فلا حدة الانفعال النفسي الناشىء عن حب الوطن ولا المقاومة الناتجة عن الرفاه المادي ، ولا القوة الروحية المنبثقة عن مفهوم الحرية ، ما من عامل من هذه العوامل وحده ، هو في مستوى التهديد ضد السلام الذي تشكله الشيوعية الاستبدادية ٠ ولن تهزم الشيوعية ، ويسود السلام على الارض ، ما دام اولئك الذين يؤمنون ايمانا صادقا بالله ، وبما أوصى به من حب ومساواة وعدالة اجتماعية ، لا يترجمون أفكارهم الى أعمال ٠

لا يمكن أن يكون ثمة حياد في المجابهة الجبارة بين الشيوعية والحرية ٠ كيف يمكن لموقفنا أن يبقى محايدا بين نظامي حكم ، بين فلسفتين ، احداهما في مستوى هذه المبادىء في حين أن الاخرى تنكرها وتخنقها ؟ اننا بانحيازنا الى جانب العالم الحر ، لا ننسى مع ذلك كفاحنا الطويل من أجل الحرية ٠ ولن نستطيع أيضا احتمال بعض المظالم التي يرتكبها بعض أعضاء العالم الحر ٠ ولكن في الوقت الذي يبلغ الاستعمار العجوز مرحلة الغروب ، مرحلة الزوال ، فاننا لسنا متعامين عن الامبريالية الجديدة التي تتمثل في الشيوعية ، وهي امبريالية أشرس وأعتى وأخطر على فكرتي الحرية والقومية ، من كل شيء سبق أن عرفه العالم ٠

واذا كنا نرفض الحياد لانفسنا ، فاننا نحترم حق كل أمة في اختيار طريقها الخاص بها ، مع البقاء يقظين ازاء الاستخدام المحتمل للحياد في سبيل استغلال الخلاف القائم بين الشيوعية والعالم الحر ٠ ونحن يقظون أيضا ازاء خطر التوسع الشيوعي تحت قناع الحياد ."

أصل الآن الى مشكلة الشرق الاوسط الحيوية جدا للسلم العالمي وذات الاهمية الكبرى بالنسبة للامم المتحدة ٠ انني ألفت النظر ، في الجزء الخاص بنا من العالم ، الى قضيتي الجزائر وفلسطين ٠ في هذين البلدين ، يسود وضع ينبغي على الجمعية العامة أن تدرك أبعاده ." انني لن أتوسع في سرد الوقائع التي تبعث على الحزن والاسى ، لانني ان فعلت ، فان ذلك من شأنه أن يزيد ، بدلا من أن يقلل من خطر نشوب نزاع دولي ، ولكن على خلاف ذلك ، لو أننا تركنا هذه الوقائع تستمر وهي متوارية دون أن نثير انتباه الامم المتحدة ، فان ذلك في نظري سيكون خطرا أيضا ٠ لهذا فانني أعتقد بأن من واجبي أن أتناول بالعرض والايضاح التوتر السائد بين الاردن والجمهورية العربية المتحدة ٠

الى جانب بعض القضايا الاخرى ذات المستوى العالمي التي يقلق بال الجمعية العامة ، ربما يبدو من باب الغرور أن نعرض ما يحتمل أن يتجلى كموضوع ذي أهمية محلية ٠ ومع ذلك فلا يوجد ثمة قضية محض محلية ٠ وكما عرف العالم الآن ، ليس هناك من خلاف عقائدي أو تهديد بنزاع مادي ، يتوقف أمام حدود بلاد اولئك الذين تورطوا فيه ٠ يضاف الى ذلك أن المبادىء التي يجب أن تقود الى الحلول ، لهي قابلة للتطبيق في العالم أجمع ، وفي الوقت الذي يفوز فيه بالاستقلال عدد متزايد من البلدان ، فان التطبيق الفعلي لهذه المبادىء يرتدي أهمية متعاظمة ٠

وفي رأيي أن بقائي صامتا والحالة هذه ، من شأنه تشجيع قيام وضع قابل لتدمير الامة العربية ، ولجر الدول الكبرى في طريقه ، الى نزاع عالمي ٠

بدأ الامر منذ سنين عديدة ٠ في الفترة التي اضطر فيها الاردن الذي كان قد نال استقلاله حديثا ، الى مجابهة تهديد جديد ضد حريته ، تهديد أكثر هولا أيضا ، اتخذ شكل تغلغل شيوعي في منطقتنا ٠ لم تعد على الاردن ، تحذيراتنا للشعب الاردني ولسائر الامة العربية ، سوى بالتعيير والتحقير وبالهدم والتخريب

وبالضغوط الخارجية بمختلف أشكالها ٠ وقد كانت هــذه الضغوط من الشدة والحــدة بحيث جعلتنــا نعتقد بــأن هدف هــذا الشعب الشقيق من وراء ذلك ، كان تدميرنا ٠ كنــا نستطيع افتراض أن حكومته كانت شديدة التعلق بالوحدة المنشودة مثل الاردن سواء بسواء ، الا أن الواقع هــو أن هجمات الجمهورية العربيــة المتحدة ضدنا قــد تكررت وبلغت حــدا حملت الجمعيــة العامــة في الحادي والعشرين من آب ١٩٥٨ على المصادقة علــى قرار أصدرته الجامعة العربية ، ينص على أن الجمهورية العربية المتحدة تتعهد بايقاف حملاتها ضدنا ٠ ومن سوء الطالع أنها لم تحترم ولم تف بوعدها ٠ فقــد استؤنفــت الهجمــات ٠ وأصبــح التحريض علــى الاطاحــة بحكومتنا واغتيال ساستنا يذاع يوميا من محطة الاذاعة المصرية ٠ أما الحدود القائمة بين الجمهورية العربيــة المتحدة والاردن ، فقد أغلقت ، لالحــاق الاذى باقتصادنا بينمــا يجــري تشجيــع خونــة مشهورين ، أو علــى الاقل يسمح لهــم بــالقيام بعمليات تخريبية هدامة ضدنا ٠ وقد بلــغ الموقف حالة مــن شدة الخطورة ، حملت الجامعة العربية التي ينتسب الــى عضويتها كل مــن الجمهورية العربية المتحدة والاردن ، على التصويت على قرار يدعو أعضاءها الى الامتناع عن كل نشاط مــن شأنه أن يخل بالعلاقات الاخويــة بينهــا ٠

وفي اليــوم التالي لاختتــام دورة الجامعة العربية هــذه ، اغتيل رئيس وزراء الاردن هزاع المجالي بقنبلة وضعت تحت مكتبه ، مع أحد عشر شخصا آخرين بينهم طفل يبلغ العاشرة من العمر ٠ واني اذ أمسك عــن المزيد مــن الحديث عن هــذا الموضوع ، لأؤكــد لكم بأنني أفعل ذلك وأنا لا أتمالك نفسي الا في غاية الصعوبة ٠ وانني أود أن أضيف ، مع ذلك ، بأنني أضفي معنــى كبيرا على واقــع كون خلافاتنا مع الجمهوريــة العربيــة المتحــدة يعود تاريخها الى الفترة التي شهَّرنا فيهــا بالخطــر المتزايد للشيوعيــة في العالــم العربي ، يضاف الى ذلــك بأنني أرى توافقا بليــغ التعبير بيــن الاساليب المستخدمة ضد الاردن ، والاساليب التــي تصطنعهــا

الشيوعيــة فــي بــلاد العالم ٠

ولا يخفى على أحد بأن سياسة الاتحــاد السوفياتي ترمــي الــى حمل بعض الاقطار الصديقة على اختيار جانب القطيعة مع غيرها والى بذر بذور الشقاق والفتنة بين الشعوب ، لكي تبلــغ من ذلك غايتها وهي السيطرة التامة على العالم ٠

واني أود من ذلك أن أخلص الى هذا وهو اذا كانت آمالنا تتطلع الى مزيد مــن الحرية والى مزيد مــن التعاون ، وبايجاز الــى عالم أفضل ، كما يوحي بذلك انشاء الامم المتحدة ، فــان بقاءنا يعتمد على واقع الاستخدام الفوري لكافة وسائل العمل المشترك المتوفرة لدينا ٠ ولقوة الرأي العام الذي نمثله، لكي نضغط وبسرعة وفعالية على كل أمة تخالف هــذه المبادىء ٠ انني لا أدعي بأن هــذه الفكرة جديدة ، انها ببساطة فكرة الشرعيــة تطبــّق على أفعــال الاقطار ذات السيادة ٠ أما فيما يختص بي ، بوصفي رئيسا لشعب صغير تهاجمه ضغوط خارجية، فهي فكرة تستحق المراعاة والعناية في هذا الوقت ٠ لاننــي أعتقد بأن علــى تطبيقها الصارم ، يتوقف آخر الامر ، حياة وتقدم العديد من البلدان الصغيرة بما في ذلك بلدي ٠ وان الامم المتحدة هي الاداة الوحيدة القادرة على تطبيق هذا المبدأ بفعاليــة ونجــاح "

وقبل أن أواصل الحديث لاطرق موضوع الجزائر وفلسطين ، أود أن أضيف كلمة ختامية عن الجمهورية العربية المتحدة ٠ فمــع أن الاردن سوف يقدر دعم الامم المتحدة الصريح العلني لموقفه ، فان بلادي لا تتوقــع ولا تطلب جوابــا خاصا أو فوريا على مــا سبق لي قوله ٠ فاذا ما استطعنا مجتمعين أن نبتكر أو أن نستخدم وسائل أفضل من الوسائل الحالية لتأمين سلامة ووحدة أراضي الاقطــار الصغيرة، وضمان قدرتها على تحسين مصيرها، حرة من كل التدخلات الاجنبية ، فانني أعتقد عندئذ بأننا نكون قد حققنا تقدما ٠ واذا كان ما قلته سيساهم في هذا الامر ، فانه حينئذ يكون قــد استحق الجهــد المبذول في قولــه ٠

ما زالت المأساة الجزائريـة خطيرة ، كمـا يبدو عليهـا سيماء التفاقم وازدياد الخطورة أيضا ٠ ان القضية في رأيي هي من جديد؛ رفض الاعتراف لشعب بحقه في تقرير مستقبله الخاص ، وهذا هو جوهر الحرية نفسه ٠ ان الامم المتحدة لا تستطيع أن تمنح نفسها ترف الاستمرار في موقفها السلبي ، أكثر ممـا بقيت سلبية فيمـا يتعلق بكوريا والمجر ٠ وفي معنى من المعاني ، تعتبر هذه القضية بأنها أكثـر خطورة وأهمية لان أحـد طرفي النزاع هو أحـد أعضاء العالم الحر ٠ اننا نناشد فرنسا أن تراعي ما يبدو أنها قد أهملته وهو تقاليد الحرية والمساواة والاخاء التي اثرت عنها واختصت بها وما من شك في أن قسما هامـا مـن الشعـب الفرنسي مصمم مـن سويداء القلب على أن يدع لاشقائنا الجزائريين اختيار المستقبـل الذي يريدون ٠ ويا حبذا لو أن الحكومـة الفرنسية تترجم بالافعال نفس هذه القناعة ، فتجعل حق تقرير المصير الذي وعد به رئيس الجمهورية ، يشمل الجزائريين أيضا ٠ فاذا ما سلكت فرنسا هـذا السبيل ، فلسوف تسترد مكانهـا بين الامـم التي تكافح من أجل الحرية ، ولـن يكون هنالكَ عالـم أفضل اذا ما استمـر الاستهتار بالمبادىء الاساسية ، فعلينا أن نضـع حدا لحمامات الـدم التي لا طائلَ تحتها ٠ فالكثير من الشر قد سبق وقوعه (١) ٠

أما القضية الثالثة في الشرق لاوسط ، فهي فلسطين ٠ ان ضمير العالم قـد بدا أنه قـد أغمض عينيـه بصورة مخجلة ، ومنذ مدة طويلة جدا ، على هذه المأساة الانسانية ٠ ان اتساع هذه القضية قد بلغ حدا جعل أكثر من مليون لاجىء عربي من فلسطين ، يعيشون منـذ اثني عشر عاما ، مجهولين مـن قبلَ عالم لـم يحاول بشكلٍ

---

(١) لقد وضع الرئيس شارل ديغول حدا لهذه الحرب الضروس بعـد شهـور كما تعلمـون ومنذ ذلك الحين غدت الجزائـر أمـة حرة ٠ وقد كان وزير خارجيتها منذ عهـد قريب ، رئيسا للجمعية العامة ، وهذا ما ينبغي أن يجري لفلسطيـن ، وهذا مـا يمكن أن يُفعل من أجل فلسطيـن ٠

جدي حتى الآن ، أن يعينهـم علـى استعادة الحـق الاكثر أهميـة والاكثر قداسة في الوجود ، ألا وهـو الكرامة الانسانيـة ٠ ان فشل الامم المتحدة في البداية ، في منح هذا الشعب حق تقرير المصير في عام ١٩٤٧ ، قد ترك منذ ذلك الحين جرحـا لا يلتئم ٠ وليس ثمـة مراقب عادل وحيادي يُنكر بـأن الشعب العربي في فلسطيـن قـد لحق به الاذى عند تقسيم هـذه المنطقة ، وما تبـع التقسيم مـن انشاء دولة اسرائيل ٠ في ذلـك العهد ، كان التقسيم خطـأ وظلما سياسيا ٠ وهو ما زال كذلـك في يومنا هذا ٠ فالعالـم يقبل الامـر الواقع بسهولة ، وكأنه احدى المسلّمات السياسية الثابتة ٠

أن الجميع هنا يعرفون ذلك جيدا ، فقد جرى التصويت على عدة قرارات وعلى سبيل المثال القرارات الصادرة في عامي ١٩٤٨ و ١٩٥٩ ولكن لم يُفعل شيء اطلاقا لاقناع اسرائيل باحترامها ٠ ومن الواجب على الامم المتحدة أن تفرض ارادتها علـى عضو يرفض الخضوع لقراراتها ٠ اذ لـن يكون هنالك سـلام حقيقي في الشرق الاوسط ، دون حل مشرف وعادل للمأساة الفلسطينية ، ودون اعـادة الحقوق كاملة الى شعب فلسطين العربي ٠

لقد سبق لـي القول بأننا في الاردن ، لسنا حياديين بين الخيـر والشر ، كما أننا لسنا حياديين في ايماننا بالله ٠ واني أسأل الله الذي أومن به ، أن يبارك هـذه الجمعية العامة ، لكـي تتوفر لنـا الشجاعة في البت بحكمة وبـلا خشية أو رهبـة ، في القضايا التي تطـرح أمامنـا ٠

الفهرس

طبع في مطابـع الشركة العربية للطباعة والنشــر

كتاب جلالة الحسين

مهنتي كملك

قصة حكم ملكي قطع اشواطاً بعيدة بخطىً ثابتة راسخة اكيدة في مسيرته الطويلة السعيدة على دروب المجد والخلود. وتاريخ الأردن المعاصر، من خلال قصة حياة مليكه القائد الرائد.

دروس واقعية في الوطنية والقومية والحزم والعزم والتصميم. وأمثلة خالدة في الرجولة والبطولة والجرأة والتضحية. ومواقف انسانية سامية في الحلم والتسامح والعفو عند المقدرة.

لوحات فنية رائعة، تصور كفاح بطل فذ عملاق، يصارع الكوارث والأهوال والمصاعب، ويعاني المشقات والمتاعب في سبيل حياة أفضل لشعبه الوفي الأمين.

قصيدة من الشعر المنثور، رائعة التعبير، بالغة التأثير في حب الأردن وشعب الأردن، نظمها الحسين العظيم بنبضات قلبه الكبير.

قمة في السياسة والأدب والفن.